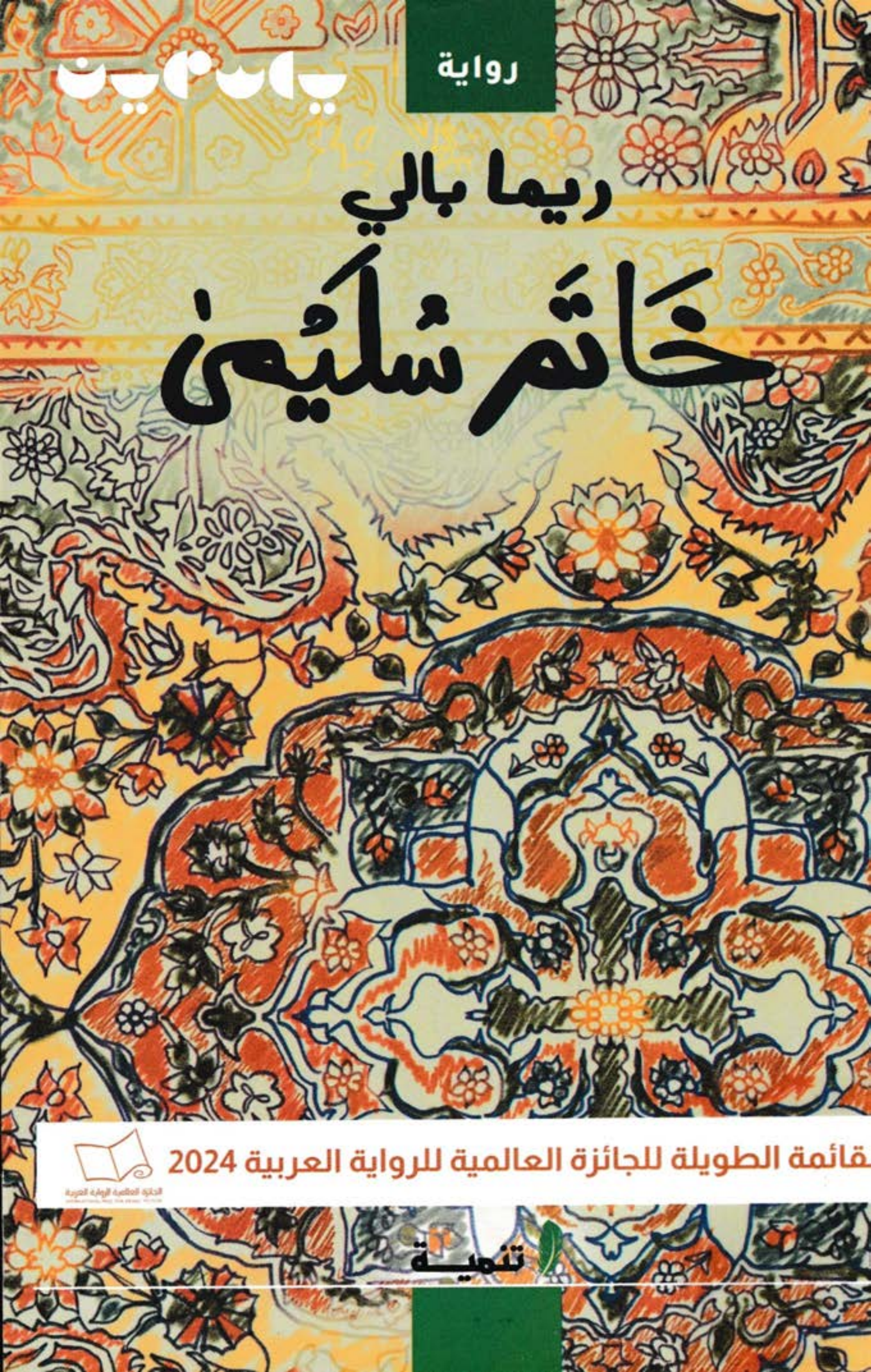


يوميات
رواية
ريما بالي
خاتم سليمى
قائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية 2024
تنمية



حكاية عن تاريخ ينسدل كبساطٍ مضرج بالعشق والدم، وسحر ينبعث من طيّات الزمن ليطارد الواقع. طبول حرب تدق، وقلوب تُخفق في رحلة بحثها عن مُسبّبات الوجود ومبرّرات الاستمرار، وخاتم قديم يدور بين أصابع الحكّائين في شتّى بقاع الأرض. سوريّة هي أرض الحكايات، وسلمى حائرة بين العاشق والمعشوق؛ بين الماضي الثري ممتد الأثر، والحاضر الرمادي المخضّب بالفقد والاقتتال. فهل تعثر سلمى على بوصلة القلب وتقرّر مصيرها؟ هل تستسلم لرمال الماضي المتحرّكة التي تذوب فيها وتُذيبها، أم تترك جسدها لوتر القوس المشدود شطر الغرب؟

بين سلمى ولوكاس وشمس الدين، اختلفت الأهواء وتباينت الخلفيّات والرؤى، ولم يتفق ثلاثتهم إلا على عشق حلب. المدينة الغاوية المغدورة التي تئن أسفل أنقاض الأحلام والفرص الضائعة. فهل يكون خاتم سُليمى السحريّ كافيًا لتحرير الأرواح الهائمة في فضاء المدينة؟ هل يُعيد وصل الرابط المبتور بين المقبل والفائت؟ أم أنّ على حلب أن تنتظر سُليمانًا آخرَ، يُبعث من سباته الطويل، فيرمّم عصاه المأكولة، ويستعيد سطوته على سائر المخلوقات المتناحرة، إذ يعثر على خاتمه المفقود؟

ريما بالي: كاتبة سورية ولدت في حلب وتقيم حاليا في إسبانيا، صدر لها: رواية ميلاجرو سنة 2016، وغدي الأزرق سنة 2018.

ريما بالي

خاتم سُليمى

تنمية

9 789776 633599

ريما بالي

# خاتم سُلَيمى

الكتاب: خاتم سُلَيمى، رواية
تأليف: ريما بالي
تصميم الغلاف: منى عبد الرحمن
عدد الصفحات: 304 صفحة
رقم الإيداع: 2022/14206
الترقيم الدولي: 978-977-6633-59-9
الطبعة الثانية: 2024



١٩ شارع هدى شعراوي من شارع طلعت حرب - وسط البلد، القاهرة
محمول ٠٠٢٠١٠٠٤٣٦٧٧٤٤
هاتف ٢٣٩٢٦٢٤٩ / ٠٠٢٠٢
Email: khaled_tanmia@hotmail.com

ريما بالي

# خاتم سُلَيمى



رواية

تنمية

إن حياة الإنسان يا سلمى لا تبتدئ في الرحم، كما أنها لا تنتهي أمام القبر، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعّة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالمحبّة والنفوس المُتضامنة بالتفاهم.

**جبران خليل جبران**

أنت... ألم تتذكرني؟

## -1-

على المصطبة الرخامية أسفل جهاز تجفيف الأيدي لمحه منسيًا في الزاوية، مدوّرًا ولامعًا كعين طفل قلق أضاع والدته فجأة في الزحام. ألقى عليه النظرة الأولى بعجالةٍ غيرِ المهتم، لكن شيئًا ما دفعه لاستراق نظرة ثانية، فتجمّدت عيناه على ذلك الخاتم الفضي لبرهة غير قصيرة من الزمن. نادته تلك الزخارف الشرقية السوداء والفيروزية المنقوشة عليه بإتقان، وهوى قلبه عندما غمز له التنين بخبث من يقول: هيه... أنت... ألم تتذكّرني؟

تذكّره... طبعًا تذكّره... وقفزت في خياله بقوة صورة الخاتم النفيس المشتهى عندما كان يتحلّق بكبرياء حول ذلك الإصبع الجميل... هذا هو بلا شك الخاتم نفسه... إنه خاتم سلمى.

تملكته حالة من الاضطراب... وكأول رد فعل، نظر حوله بتوجّس بحثًا عمّن ترك هذا الخاتم هنا... هل كانت هي؟ ولكن ما الذي سيأتي بها إلى دورة مياه الرجال؟ وهنا في مطار بيروت؟ تساءل... وهرول خارجًا رغم ذلك ممشطًا بعينيه كل المسافرين المنتشرين حول باب الحمام... مشى قليلا في الجوار باحثًا هنا وهناك... متفرّسًا في وجوه النساء الجالسات في المقاهي، والمهرولات في الأروقة ساحباتٍ حقائبهن، المنتظرات على المقاعد والمسترخيات على الأرض، والرافعات الرؤوس إلى اللوحات متفحصات جداول مواعيد الوصول والإقلاع.

لم تكن بينهن صاحبة الخاتم، الخاتم؟ انتفض كالممسوس وعاد راكضًا إلى دورة المياه حيث تركه... فلم يجده هناك... اللعنة... صرخ

بغضب... هل سرقه أحد ما؟ أو أن صاحبته عادت واسترجعته؟ هل يعقل أن يكون هو فعلًا نفس الخاتم أم آخر يشبهه؟؟ هل كان موجودًا هنا فعلًا أم...؟!!

اللعنة... صرخ مرة أخرى... ونظر في المرآة أمامه... وجد وجهه يغلي غيظًا وهو يلتقط أنفاسه المتلاحقة التي تقطعت جراء الجري والانفعال... ركز نظره في عينيه العسليتين وقرأ فيهما سؤالًا قلقًا: «لوكاس... هل أنت بخير؟!».

- عفوًا يا سيد، هل تبحث عن هذا؟

قال له رجل ظهر خلفه في المرآة فجأة، وهو يرفع الخاتم ملتقطًا إياه بإصبعيه.

- نعم... نعم... شكرًا لك.

أجابه متلعثمًا وهو يستدير ليواجهه.

- عفوًا.

أجابه الغريب وهو يسلمه الخاتم، ويمضي.

قبض لوكاس على الخاتم مخبّئًا إياه في راحة يده، تلفّت حوله من جديد، ثم دسّه في جيبه بسرعة وقلبه يخفق بعنف، كلص مبتدئ يرتكب أولى جرائمه، وكمنقب آثار ظفر أخيرًا بكنزه التاريخي النفيس.

نظر إلى ساعته، الثالثة وأربع وأربعون دقيقة، باقي أقل من خمسين دقيقة للإقلاع. «عليّ أن أتوجه إلى البوابة»، قال لنفسه. مدّ كفيه تحت الصنبور فتدفق منه الماء تلقائيًا، رشه على وجهه المحتقن، وجففه بمناديل ورقية وهمّ بالخروج، ولكنه تمهّل، واستدار ثانية رامقًا الزاوية الفارغة أسفل المجفف، حيث ظهر ذلك الخاتم الذي يقبع الآن في جيبه، لامعًا ومستديرًا، ومنقوشًا بتلك الزخارف التي كانت تحكي حكايات عجيبة، لم يتوصل إلى فهمها يومًا.

عندما أقلعتْ الطائرة من مطار رفيق الحريري في بيروت، مخترقة السحب والسماوات باتجاه مدريد، لم يكن الراكب «لوكاس أورتيز

بيريز» بخير، رغم أنه كان مسافرًا على متنها في درجة رجال الأعمال، كما اشترط على شركة المجوهرات اللبنانية التي تعاقدت معه كمصور فوتوغرافي محترف لتصوير منتجاتها من الحلي الفاخرة على مجموعة من الحسناوات لنشرها في كتالوج خاص.

لم يكن بريق الألماس والأحجار الكريمة، أو غنج العارضات اللاتي تسربلن بها وعرضنها بوضعيات مثيرة أمام عدسته طوال الأسبوع الفائت هو ما أغشى بصره وأهاج عاصفة في داخله، بل ذلك الخاتم الشاحب القديم ذو النقوش السوداء والفيروزية التي تشبه تنينًا ملتفًا على نفسه بغرابة آسرة. ذلك الوميض الفضي الباهت الذي غزا حياته من جديد وفتح أمامه نوافذ على عوالم أخرى كان قد أغلقها (أو ظن أنه أغلقها) منذ زمن بعيد.

وضع الخاتم في بنصره فانزلق بسهولة واستقر في نهايته مستكينًا وملائمًا له، فاجأه الأمر. «هل لسبابة سلمى نفس قياس بنصري؟ أم هو خاتم آخر؟» سأل نفسه مضطربًا. بل أنا هو... خاتم سليمى! أجابه التنين همسًا. قرّبه إلى شفتيه ولثم برودته اللاسعة في حين اشتعلت ذكرى دفء وعطر الإصبع الحريري في صدره... «نعم أصدقك... أنت هو... أنا أؤمن أنك هو!»

جاءته المضيفة بكأس النبيذ الثانية بعد أن اجترع الأولى دفعة واحدة، شكرها، وارتشف رشفة صغيرة قبل أن يغمض عينيه ويسترخي، مستمتعًا بلذة مازوشية، بذلك الشعور الذي كان قد أدمنه سابقًا وعاوده اليوم: الغوص حتى العمق، حتى الغرق، بحب امرأة قاسية القلب ومبهمة إلى حد الجنون. يعرف أنه لا يجيد السباحة في هذا البحر المائج بالأسرار، ولا يفهم لغة أعشابه وأسماكه وحورياته، يستسهل الاستسلام، فيترك نفسه للغرق يمتصه إلى أعماق مظلمة.

لوكاس أورتيز... أكمل منذ أسبوعين أعوامه الأربعين التي قضى أكثر من نصفها مخبئًا وجهه الخجول خلف الكاميرا، ملتقطا شتى

أنواع الصور، لكل ما يمكن أن تلمحه العين وحتى ما لا يمكن أن تلمحه. يلتقط الإيحاء الذي يضله من مشهد أو جسم أو فراغ ما، من دون أن يهتم إن كان ذلك الإيحاء سيُظهر شكلًا مجسمًا في الصورة بعد تحميضها أم لا، إذ تعود أن يصوّر في معظم الأحيان بإحساسه مدفوعًا بغريزته، من دون هدف، ليضم إنتاجه ذاك إلى مجموعة كبيرة من صور لم يشاهدها أحد سواه، كانت تعدّ بمثابة أرشيفه السري.

ما بدأ في حياته كهواية وشغف سرعان ما تحول إلى مهنة ناجحة، اقتحمها باندفاع بعد أن ركن شهادته الجامعية المرموقة جانبًا. فقادته موهبته في مسيرة لامعة حتى صار، خلال فترة قياسية وبعمر صغير، واحدًا من أشهر المصورين الفوتوغرافين في أوروبا.

في مدينة سانتاندير الساحلية عاصمة إقليم كنتابريا شمال اسبانيا، ولد لوكاس لعائلة عريقة ميسورة نسبيًا من دون ثراء فاحش. ورث قامته المربوعة وحسّه الفني عن والدته إستير، اليهودية الخجول التي تعشق الفن التشكيلي، وترسم لوحات زيتية جميلة تعلقها على جدران المنزل أو تهديها للأصدقاء. أما والده «رافاييل أورتيز» طبيب الأطفال الموظف في مشفى حكومي، فقد أورثه عينيه العسليتين بما يسكنهما من مشاعر رقيقة قلّما حملها فؤاد رجل، بالإضافة إلى شعره الأشقر الذي يميّز الإسبان الشماليين عن مواطنيهم الآخرين الذين يتصف أكثرهم بالبشرة الشهيرة السمراء وملامح حوض البحر المتوسط.

جاء ترتيبه الثاني في العائلة، بعد «ميكيل أنخل» الذي يكبره بعامين. طبعه الانطوائي الخجول الذي لم يُعرَف إن كان ولاديًا أم مكتسبًا، كبر معه يومًا بعد يوم، وإذ ترافق بميل فطري لاكتشاف الجمال والبحث عنه وتأمله، فقد وجد ضالته عندما التم شمله على أول كاميرا صغيرة أهداها له عمه يوم الاحتفال بمناولته الأولى للقربان المقدس وهو في الثامنة. لقد سمح له التصوير أن يكون حاضرًا في كل مكان ولكن مختبئًا خلف الكاميرا، متواصلًا مع الأحداث ومحدّقًا بالمشاهد

بشكل غير مباشر، يسرق منها ما يسترعي انتباهه بلقطة سريعة، ثم يأخذ كل وقته في التلذذ بتأملها ودراسة تفاصيلها وحده عندما يخلو إلى نفسه مستعرضًا بفضول وقح غنائمه التي قنصها بخجل وحذر.

رغم أنهم لم يخفوا انبهارهم بموهبته وإعجابهم بالصور التي كان يصنعها، لم يأخذ أهله هوايته تلك مأخذ الجد، ولم يفكر أحد من عائلة أورتيز، ومن ضمنهم لوكاس نفسه، أن التصوير يمكن أن يكون يومًا ما مهنة جديّة، وعليه فقد رضي الفتى أن يدرس الحقوق نزولًا عند رغبة والده، لكنه اشترط أن يفعل ذلك في جامعة «توليدو»، التي تبعد حوالي 500 كلم عن مدينته، موغلة في قلب إسبانيا ومجاورة لعاصمتها مدريد التي تقبع شمالها على مسافة 75 كلم.

اختار الشاب «توليدو» بالذات، لأنها المدينة التي طالما داعبت خياله بتأثير حكايات أمه عنها، إذ ادّعت أنها موطن أجدادها اليهود الذين كانوا يملكون فيها بيتًا جميلًا، قبل أن يغادروها مطرودين في القرن الخامس عشر لأنهم لم يقبلوا التحول إلى الكاثوليكية. وقد حافظت العائلة في مهجرها على مفتاح ذلك البيت وأورثه الآباء إلى الأبناء حتى وصل ليد لوكاس، الذي استلمه من أمه خجلًا منها بعد تمنّع أخيه الأكبر، رغم كونه مثله غير مهتم بالقضية.

ولم ينسَ لوكاس عند انتقاله إلى توليدو أن يحمل معه، بالإضافة إلى المفتاح، الكاميرا وكل أكسسواراتها المتطورة التي كان يحرص على شراء الأحدث منها دائمًا: عدسات مختلفة لجميع المسافات وواقيات للعدسات وحوامل وقواعد واستاندات وأغطية وحلقات وأطر للحماية... إلخ.

وصل الفتى ذو الثمانية عشر عامًا مع حمولته من قطع الاستوديو الصغير ذات يوم قائظ في أواخر شهر آب من العام 1995، إذ كان عليه أن يلتحق بالجامعة في الأسبوع الأول من أيلول. وما كاد يفتح علبه، ويرتّب ما أخرجه منها من أدوات وآلات في زاوية أمينة من غرفة نومه

في البيت الصغير الذي استأجره قريبًا من الجامعة، حتى عاد وحملها معه خارجًا، هائمًا في شوارع المدينة القديمة التي أذهله جمالها فاحتار من أين يبدأ التقاط الصور.

توليدو، بتفاصيلها الساحرة العتيقة، بدت كمفاجأة جميلة لعاشق التصوير، الذي اعتادت عيناه المشاهد الطبيعة الخلابة لمدينته الساحلية سانتاندير، حيث كان الأطلسي هناك بمختلف ألوان زرقته المتغيرة حسب مزاج السماء التي تعلوه، وبشواطئه وموانئه ونوارسه وسفنه، ونسيمه الرطب العليل أو رياحه المجنونة وأمواجه العاتية، هو القوت الأساسي لعدسته الشرهة، إذ هيمن على المشهد العام حوله وحدد هوية المكان، بنكهة بحرية مختلفة تمامًا عن تلك التاريخية المميِزة لهذا الموقع الجديد الذي وجد نفسه مسحورًا به. موقع ذو هويةِ فريدة تجسدت في حكايا باحت بها أحجار قديمة ودور فسيحة وقلاع، تقبع داخل سور مهيب وتطل على نهر صغير يتمشّى تحت قدميها بتمهل وكسل، مُفشيًا الأسرار للضفتين، وعابرًا تحت الجسرين العاليين «القنطرة» و«سان مارتين»، اللذين يعلوان قناطر جميلة ويزهوان بتماثيل باهرة ونقوش فنية أخذت بلب الفنان الشاب الذي تقطعت من جمالها أنفاسه.

كانت توليدو في الماضي مقرّ الملوك الكاثوليك لسنوات طويلة وقد قرأ لوكاس قبل أن يصلها كآخر فاتح من الشمال، أن العرب الذين أسموها طليطلة فتحوها على يد طارق بن زياد عام 712م عندما هزموا القوط الذين كانوا يتخذونها عاصمة لمملكتهم. وعندما توغل أكثر باحثًا في تاريخها، وصلت به توليدو إلى زمن الإغريق، ثم نقلته إلى عهد الرومان حيث ازدهرت وحُصّنت بالأسوار، وأقيمت فيها المسارح والجسور، وأعطيت اسمها الحالي الذي يعني بالرومانية «المدينة المحصنة». كما لقبت أيضًا في القرون الوسطى بـ «مدينة التسامح» حيث تعايش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون، وما

زالت تسمى حتى الآن «مدينة الثقافات الثلاث» Las tres culturas، الاسم الذي يطلق على عدة مواقع عامة فيها من حدائق ومطاعم وساحات ومراكز ثقافية.

اكتشف ابن سانتاندير خلال بحثه عن بيت جده في أزقة توليدو -الأمر الذي تخلّى عنه بعد الأسبوع الأول- أن الثقافات والحضارات التي توالت عليها عبر كل تلك العصور لم تمر مرور الكرام لتُذكر فقط في كتب التاريخ والموسوعات، بل أنها كلها ومن دون استثناء قد تركت بصمات واضحة جلية تشرّبتها المدينة وعرضتها بجرأة أنثى فاتنة لا تستحي من إظهار مفاتنها أمام عشاقها، الذين صار لوكاس واحدًا منهم.

لمدة خمس سنوات التزم بإخلاص بكلية القانون والحقوق، درس العديد من الكتب، حفظ القوانين بتفرعاتها وموادها، اطّلع على عشرات المراجع والأبحاث، واجتاز امتحاناته بمعدل مقبول. لكن التزاماته الفنيّة الفطرية خارج الحرم الجامعي كانت هي ما استحوذ على اهتمامه الحقيقي إذ مارسها بدافع أقوى من الالتزام، دافع هو أقرب إلى الشغف منه إلى الإخلاص. كانت نشوته عندما يضغط زر الكاميرا ويسمع التكّة تضاهي نشوة عاشق لمح ظل معشوقه من بعيد، أما بهجته بتأمل الصور بعد تظهيرها، فقد فاقت بهجة ذلك العاشق عند انفراده بمعشوقه بعد انتظار طويل.

هل زادت هوايته تلك من انطوائه؟ أو أن خجله وعزوفه عن اللقاءات الاجتماعية الصاخبة هما ما زادا من التصاقه بتلك الكاميرا؟ سؤال لطالما ناقشه في تأملاته الطويلة التي كان يسرح بها وهو ممسك بصوره بين أصابعه، إذ كان يتوق أحيانًا إلى تلبية بعض الدعوات التي يتلقاها من أصدقائه، الذين حافظ على شعرة معاوية بينه وبينهم، لكنه كثيرًا ما استصعب التنفيذ وعدل عن الخروج في آخر لحظة، مفضلًا الاستفادة من الوقت في تحميض أو تنسيق بعض الصور، أو الدراسة،

أو قراءة كتاب ما من مجموعته التي ما فتئت تتنامى بتناسب عكسي مع عدد أصدقائه المقربين.

«خوسيه لويس»، أحد أولئك الأصدقاء المقربين، أصر على لوكاس ذات ليلة أن يشاركه الاحتفال بعيد ميلاده، طالبًا منه أن يصطحب الكاميرا ليلتقط صورًا من الحفل له ولصديقته الجديدة، العرض الذي لم يقوَ على رفضه، فخرج ليلة السبت تلك حاملًا على كتفه الحقيبة الخاصة بآلة التصوير وأكسسواراتها، وتوجه نزولًا إلى حي سانتا تيريزا خارج أسوار المدينة القديمة، حيث بدأ خوسيه الاحتفال في ناد ليلي هناك مع مجموعة من الشباب، كانت ماريا دولوريس (لولا) عارضة الأزياء المبتدئة التي ستقع في غرام الفتى الشمالي، واحدة منهم.

## -2-

دخل مُنهكًا إلى بيته في نهاية المطاف، إذ توجب عليه بعد أن حطت به الطائرة في مدريد أن يستقل سيارته المركونة في المطار، ويقودها مدة أربعين دقيقة إلى المدينة التي اختار أن يستقر فيها بعد تخرجه من الجامعة.

توليدو كانت مدينة مثالية لشخص خجول مثل لوكاس، قريبة من العاصمة بحيث لا تتعطل أعماله، وفي نفس الوقت بعيدة عن الضجيج والأنشطة الاجتماعية التي يمكن أن تفرضها الحياة في مدريد. كانت حجته جاهزة دائمًا للاعتذار عن الدعوات الكثيرة التي يتلقاها وينفر منها.

بعد أن ازدهر عمله وبدأ بتحقيق مكاسب طيبة، اشترى بيتًا جميلًا في المدينة القديمة هناك وسماه تحببًا «ألكازاريتو» (القصر الصغير)، باعتباره مطلًا على «ألكازَار»، المبنى الأعلى والأجمل في توليدو. وقد سمي هكذا اشتقاقًا من القصر العربية، بني كقلعة رومانية في القرن الثالث الميلادي، ثم أعيد بناؤه بتصميم جديد على يد المعماري «ألونسو دي كوفاروبياس» في العام 1545، ثم أعيد ترميمه أخيرًا بعد الحرب الأهلية التي تسببت في هدم برجين من أبراجه الأربعة.

جهز لوكاس قصره الصغير بشكل يحمل بصماته الفنية الخاصة مع إضافة بعض التفاصيل الحديثة لمجاراة الحياة العصرية وتسهيل الإقامة. لوحاته وأعماله كانت منتشرة على كل الجدران، باستثناء جدار واحد خصصه لتعليق سجادة نفيسة اشتراها منذ عشر سنوات

من حلب، المدينة السورية العريقة، خلال رحلة عمل غيّرت حياته حين التقى سلمى، صاحبة دكان الأثريات والتحف الذي اشترى منه تلك السجادة، وصاحبة ذلك الخاتم الجميل الذي لم يكن يفارق سبابتها.

بعد أن تمتّع بحمام دافئ، سكب لنفسه كأسًا وتمدّد على كرسي الاسترخاء الأحمر مواجهًا تلك التحفة الجميلة ذات الأرضيّة الكحليّة اللون، متأملًا نقوشها التي تتخذ أبرزها شكل أزهار خمرية بأغصان زيتية، تُكوّن بالتفافاتها إطارًا للسجادة يحتضن دوائر ترابيّة وعسليّة باهتة، مزركشة بخطوط شرقيّة، ومحيطة بما يسمى «البُركة»، وهي معين مدوّر الزوايا متمركز في الوسط، ومزدحم أيضًا بورود ورسوم متناظرة ومتعددة الألوان. قالت سلمى إنها مرتع روح السجادة التي تصحو عند ملامسة جسم الإنسان، فترسل لقلبه رسائل مبهمة تلامس عمق كيانه، لا سبيل إلى التقاطها إلا بممارسة طقوس معينة، تتلخص بتصفية الذهن والاكتفاء بضوء شمعة واحدة ذات عطر نفّاذ، والاستلقاء بوضعية خاصة، بحيث يلامس الظهر والكتفان والكفان والكعبان رسومًا محددة لكل منهم، ومن ثم الاسترخاء، والنوم، لاستقبال الحلم الغريب المحمل بتلك الرسالة التي تحتفظ النقوش بين طلاسمها بتفاصيلها المختلفة، بحيث تتراءى لكل إنسان حسب حالته وحاجته.

عندما اشترى لوكاس تلك السجادة مع علبة الشموع، لم يكن ذلك بدافع تصديقه لرواية تلك الفتاة الغريبة الأطوار، بل إعجابًا منه بجمالهما معًا، السجادة وصاحبتها. فهو لم يفهم كيف يكون للسجادة روح، كما لم يكن يومًا من المؤمنين بالماورائيات بمختلف تصنيفاتها، من علم معترف به وأبحاث أكاديمية، إلى خرافات وأساطير، أو دجل

صريح ورخيص يهدف إلى النصب والاحتيال. لكنه عندما حاول بدافع الفضول أن يجرّب ممارسة تلك الطقوس، حاصره البخور بخدر لذيذ ما لبث أن سلّمه إلى نعاس طاغٍ أخذه إلى حلم غريب مختلف عن كل أحلامه السابقة، حلم عجيب حرّك مشاعرًا مدهشة في أعماقه ونقله إلى عالم آخر، لم يتوصل إلى استيعاب الرسالة التي استلمها منه حينها كما هو مفروض حسب سلمى، التي عندما سألها، أجابته:

- هذا يعني أنك لست مستعدًا بعد لتلقّي تلك الرسالة... اصبر... وستفهم لاحقًا في الوقت المناسب... المهم... أن تكتب ما تتذكره من حلمك... وعليك الاحتفاظ بما تكتبه في مكان أمين... بعيدًا عن متناول أي إنسان كان.

عندما فرغ من اجتراع كأسه، راودته رغبة جارفة بنزع السجادة عن الحائط، الأمر الذي لم يفعله منذ مدة، ففعل، وألقاها أرضًا قبل أن يتمدد ملقيًا جسده المتعب عليها... وضع كتفيه في الموضع الصحيح، وأفرج ساقيه ليلامس كعباه المنطقتين الخاصتين بهما، وكذلك فعل بأن فتح ذراعيه ليدع كفيه يداعبان الزهرتين الخمريتين المرسومتين على الجانبين، أغمض عينيه لبرهة لكنه ما لبث أن أعاد فتحهما من جديد.

- الشمعة؟ قال لنفسه.

نهض بخفة لا تتناسب مع ثقل جسده المنهك، وتوجّه كالمنوَّم مغناطيسيًا إلى ذلك الدُرج في غرفة نومه حيث كان يحتفظ بعلبة الشموع. بحث عنها بلهفة ووجدها حيث هي، مستلقية بوداعة فوق الكتيب الصغير الذي احتفظ بين دفتيه بتفاصيل سوريالية لعدة أحلام مجنونة زارته فوق تلك السجادة منذ زمن بعيد. حين فتح العلبة، لم يجد فيها إلا شمعة واحدة، الشمعة الأخيرة من أصل ست كان قد

أحرق خمس منها بدافع من توق محموم... واحتفظ بالأخيرة كخيط رفيع يصله بعالم الأحلام السحري العابق بأنفاس سلمى. أخرج الشمعة العاجية اللون من مخبئها... قرّبها من أنفه واستنشق عطرًا ما زال يسكنها وإن خفتت حدّته... عاوده تردده القديم... هل يشعل الشمعة الأخيرة هذه الليلة ويحرق آخر تذكرة سفر يمكن أن تحمله إلى عالم أحلام سلمى؟! أم يؤجل الأمر إلى ليلة أخرى... لعل وعسى يستجد خلال ذلك التأجيل شيء ما!


اسمي سلمى

## -1-

- هل أنت صوفي؟

سألَتهُ بافتتانٍ، فأجاب بابتسامة هادئة وعربيّة ركيكة مدعومة بعبارات فرنسية:

- أنا عاشق للموسيقا الصوفية، ويمتعني أن أكرّس حياتي لها، فهل أكون صوفيًا؟؟ لست أدري.

كانت محظوظة لأنه لم يقل نعم بشكل حاسم، فلو فعل، لكانت مستعدة أن تتصوف من فورها سائرة على خطاه.

بعد أن مرّ أكثر من عام على عمر صداقتهما، أيقنت سلمى أن شمس الدين لا ينوي أن ينتقل بهذه العلاقة إلى مرحلة أخرى، وقررت أن تتصرف بنفسها، فدعت نفسها إلى فنجان قهوة عنده، وعاجلته بعد أول رشفة وبلا مقدّمات بالتصريح الخطير الذي ارتأت أن وقته قد حان:

- أنا أحبك.

لم يكن سلمى هو اسمها الحقيقي، بل الاسم الذي اختارته وقدّمت نفسها به لأصدقائها الجدد عوضًا عن «سيلين» الذي اختاره لها أبواها.

عندما بدأت تتشكل ملامح شخصيتها في عامها الثامن عشر، أصابتها لوثة التاريخ وأغرمت بكل ما يمت بصلة لحلب القديمة من آثار وتقاليد وثقافة وفن، خصوصًا بعدما ضربت سماءها صاعقة لمعت في ليلة فارقة، عندما التقت ذات صدفة أو ذات قدر بالمستشرق «سيلڤيو كارلوني» أو «شمس الدين»، الموسيقار الإيطالي الأصل الذي ترك

بلاده ليستقر في حلب، متخليًا عن الغيتار لصالح القانون، ومُؤسسًا لفرقة موسيقية تقدم التراث الحلبي الأصيل والألحان الصوفية الشرقية ضمن حفلات رفيعة المستوى كانت تجمع كوكبة من فناني ومثقفي المدينة في منزل هو أشبه بقصر أثري اشتراه في حي « باب قنسرين» في قلب حلب القديمة.

اسم شمس الدين الذي اعتمده عوضًا عن اسمه الحقيقي «سيلڤيو»، أوحى للصبية المتحمسة أن تستبدل باسم عربي جميل اسمها الفرنسي «سيلين» الذي شعرت أنه لم يعد يمثلها. احتارت بين ياسمين وسلمى، لكنها أخيرًا اختارت الثاني إذ وجدت أن الأول قد استُهلك بكثرة في كل أنحاء العالم، حتى فقد سحره.

أهلها وأصدقاؤها القدامى استمروا في مناداتها ليلي كما تعودوا، ولم تعترض على ذلك إذ كان هذا اللقب اللطيف يصلح أيضًا كدلع لاسمها الجديد «سلمى».

سلمى أو سيلين أو ليلي العطّار، الصبية التي أدارت كل الرؤوس في مجتمع النخبة في مدينة حلب، ولدت في فرنسا حيث درس والدها الطب وتخصص وعمل لعدة سنوات قبل أن يعود ليستقر في بلده الأم. أبوها هو الطبيب الحلبي المعروف سامح العطّار، أما أجدادها، فكانوا، مثلما يدل اسمهم الذي لم يلقّبوا به عن عبث، من أشهر العطّارين في أسواق حلب القديمة في الأزمنة الغابرة.

ورثت ليلي عن أجدادها الشغف بالعِطارة كفن وليس كتجارة، كما يبدو أنهم أورثوها أيضًا خلطتهم السرية لتجري مع الدماء في عروقها، إذ وهبت الفتاة، إضافة لجمالها، روحًا متبّلة بأجود أنواع البهارات الشرقية.

دفعتها هذه الروح لتتأرجح على الشعرة الرفيعة الفاصلة بين

الجرأة والانحراف، حسب المعايير المتعارف عليها في مجتمع حلب المحافظ. وقد بلغت من المهارة حدًا جعلها تواصل ذلك التأرجح لفترة طويلة من دون السقوط في حفرة العار الحلبي. مجتمع النخبة الضيق هذا في حلب، والذي يتألف من عدّة عائلات ميسورة، العريقة منها والحديثة الثراء، تعوّد السهر ليلة كل خميس وسبت في نادٍ خاص به سمّي « نادي حلب».

هناك لمحت سلمى حين كانت طالبة في السنة الأولى بكلية الحقوق لأول مرة «شمس الدين... كارلوني!»

ربما استرعى انتباهها طوله الفارع وقوامه النحيف المشدود، أو شعره الفضي القصير المُصفف بعناية وبساطة، لكن الذي أضاف إليه سحرًا خاصًا في عينيها هو حديث أقاربها الذين كانت تشاركهم العشاء تلك الليلة، حين قالت عمتها هدى، عندما دخل قاعة المطعم برفقة مجموعة من الأشخاص المعروفين:

- لا تنظروا باتجاهه الآن، ذلك الرجل الطويل الذي دخل برفقة فؤاد التبان، يقال إنه مستشرق إيطالي يعزف القانون... شكّل فرقة موسيقية واشترى قصرًا في باب قنسرين، واستقر في حلب.

لكن سلمى، التي لم يكن اسمها سلمى بعد، طارت بنظراتها وقلبها صوبه بجرأة وفضول شديدين، وتمتمت بصوت كان مسموعًا لمن حولها:

- كم هو وسيم!

ضحكت عمتها وأردفت:

- ليس مناسبًا لعمرك يا بنت، وعلى كل حال قالوا إن لديه صديقة جزائرية.

- صديقة... صديقة؟

سألت ليلي مستوضحة

- صديقة... صديقة!

فسّرت عمتها بهزة في كتفيها، أعقبتها بغمزة عين.

تلك الليلة، انتظرت ليلي طويلًا، حتى تعثرت نظرات المستشرق الأربعينيّ بشبكة عينيها البنيتين الجميلتين، كصياد كان قد نصب فخه منذ زمن طويل وجلس صابرًا بانتظار مرور الطريدة. سارعت أخيرًا إلى سحب شبكتها لاصطياد تلك النظرات الرمادية الشاحبة وابتسمت بخفر، فهز شمس الدين رأسه بأدب، وأرسل بالمقابل ابتسامة آسرة.

بدا لها كأمير أوروبي هارب من مخطوطة شرقية قديمة، فانتازيا خلابة وخلطة عجيبة هيّجت مخيلتها وأثارت كل الغرائز في أعماقها الفتية.

ولم تمض إلا عدة أشهر، حتى استطاعت ليلي أن تؤمّن لنفسها، عبر بعض الأصدقاء، دعوة إلى إحدى حفلات «التخت الشرقي» التي اعتاد أن يقيمها شمس الدين في بيته الساحر ويحييها مع فرقته الموسيقية بمرافقة بعض المطربين المعروفين في حلب، ويدعو إليها أصدقاءه وأصدقاءهم، وكانت ليلي تلك الليلة واحدة منهم.

- اسمي سلمى العطار، سعيدة بالتعرف إلى حضرتك.

قالت جملتها التي تدرّبت عليها قبلًا عشرات المرات بلغة إيطالية سليمة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تعلن فيها عن اسمها الجديد وسط دهشة أصدقائها.

تلك الليلة لم تكن بالنسبة إليها ليلة عادية، بل توهجت كمفصل مهم في حياتها فتح عينيها وقلبها على دروب جديدة غنية بالسحر وعابقة بالنشوة، وطافحة بأجوبة لأسئلة لطالما ضجت في أعماقها، وطارحة أمامها أحجيات أخرى متحدية إياها أن تحلها.

لم يكن شمس الدين وحده هو السبب وإن كان هو المحرّض، أو الباب الذي دخلت منه إلى عالم اقتنعت للتو أنه عالمها الخاص الذي عاشت تبحث عنه منذ الأزل. ولما وجدته بانتظارها هنا بكل لهفة وصبر، شعرت بالانتماء، وارتاحت روحها ذات التابلة الحلبية السحرية، وفاح عطرها.

بدأت نشوتها تتصاعد مذ وطئت قدمها حي باب قنسرين، وكانت تلك هي زيارتها الأولى إليه. لم تكن تعرف من حلب القديمة أو المنطقة التي تسمى بالعامية (الحارات الجوانيّة) أي الداخلية، إلا القليل، إذ لم تتوغل أبعد من ساحة الحطب إلاّ إلى حي الجديّدة حيث يقع دكان الحج عبدو الفوال شيخ كار «الفوالين»، الذي اعتادت أن ترافق والدها إليه أحيانًا أيام الجُمَع لشراء الفول، وحيث تم مؤخرًا افتتاح بعض المطاعم الأنيقة في بيوت قديمة، وفندقين تراثيين صغيرين من طراز «بوتيك أوتيل» يحملان الطابع الشرقي المعتق.

كانت تعرف أيضًا القلعة والطرق المؤدية إليها، والأسواق القديمة المسقوفة التي يطلق عليها اسم «المْدينة»، حيث يوجد في سوق العطارين هناك دكان جدها الذي داوم فيه حتى آخر يوم في عمره، مصطحبًا إليه في مرات عديدة حفيدته الطفلة. ولاحقًا بعد وفاته قام الورثة ببيعه إلى جاره، ليضمه الأخير إلى دكانه ويصبح صاحب أكبر محل عِطارة في المْدينة.

تلك الليلة حاصرها شذا توابل وبهارات سوق العطارين، ولم تعرف إن كان الهواء هنا عابقًا بهذه الروائح فعلًا، أو هي مجرد ذكرى طفولية استفاقت فجأة بصخب عطري. ميّزت رائحة الزعتر والغار، ومزيج من البهار الأسود وجوزة الطيب، والقرنقل والبابونج... وغيرها الكثير مما استفاق عبيره في وجدانها ونسيت ذاكرتها أصله واسمه.

بعد أن ترجلوا من السيارة التي ركنوها في أقرب مكان مناسب، كان عليهم أن يعبروا سيرًا على الأقدام الأزقة الضيقة والعتيقة، التي تبدو كأن التاريخ بعد أن صنعها غفا مستريحًا على بلاطها الحجري ولم يغادرها لمواكبة العصور التي توالت خارجها، بل بقي مسترخيًا بأمان تحت ظلال مآذنها القديمة ومكتفيًا بالفخامة التي رُصّت بها أحجار جدرانها المنيعة.

تمنّت لو كانت لهفتها للوصول إلى الحفل أقل بقليل مما هي عليه، لتستمتع بإشباع لهفتها الأخرى بالتسكع في هذا الحي الذي قرأت عنه الكثير بمجرد أن سمعت أن دار «سيلڤيو شمس الدين كارلوني» تقع فيه.

أحبّت أن تأخذ وقتها في تأمّل البوابة التي اعتبرت من أهم أبواب حلب في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، وإحدى روائع الفن المعماري العسكري في سورية في القرون الوسطى، بقنطرتها الرائعة والنقوش التي تزين أحجارها. أرادت أن تزور المساجد الأثرية، وأن تتمهل في تمشيط الخانات والحمامات والمدارس القديمة. اشتهت أن تصل إلى حي الجلّوم لتتوه في أروقة مدرسة الشيباني الشهيرة وغرف البيمارستان الأرغوني الذي سمعت أنه بني في القرن الرابع عشر، كأول مشفى للأمراض النفسية والعصبية.

عندما وصلوا إلى دار مضيّفهم الفنان، وبعد أن فُتحت أمامهم البوابة الصغيرة التي هي جزء من باب كبير مصفح ومدعم بمئات المسامير الحديدية، عبروا دهليزًا ضيّقًا لتستقبلهم بعده ردهة شرقية بامتياز، مضاءة بفوانيس نحاسية، يغطي جدارها الأمامي سجادة فخمة ناطقة الجمال، لها نقوش بديعة تمثل ما يشبه ست شموس خمرية ذات مراكز ملتهبة الاحمرار محاطة بأكاليل من الأغصان الزيتية الحاملة هنا وهناك بعض الورود الحُمر.

- يا لروعتك!

ناجت سلمى السجادة الفاتنة وهي تتحسس نعومتها بكف يدها، وتتحسس بأعصابها شوقها العارم إلى عالم كانت قد ألفته وعشقته طفلة، ثم ضاع منها.

قام جدها الحاج عبد الله العطار من سباته الطويل وأمسك يدها ساحبًا إياها إلى سوق البسط والسجاد المسمى بسوق الحراج، ليسلّم على صديقه الحاج محمد مصفي العسل وليشاركه «كاسة الشاي» جالسًا وإياه على كرسيين واطئين من الخيزران خارج دكانه، في حين تلعب هي داخلها، متدحرجة فوق الألوان الفاقعة للبسط الكردية، وضائعة في متاهات النقوش الجميلة للسجاجيد العجمية والحلبية والدمشقية القديمة.

الحاج محمد، التاجر العجوز المتيّم بمهنته، أسعده ولعها المبكر بالسجاد والبسط، فأهداها يومًا بساطًا صغيرًا جميلًا، وهمس بأذنها بسر خطير يتعلق بذلك البساط، وأوصاها بالكتمان. كتمت الصغيرة السر حتى حدود النسيان، لكنه في هذه الليلة، استيقظ في وجدانها مع غيره من الأسرار، متألقًا ونابضًا بالحياة.

اشتهت أن تقوم بجولة في الدار الجميلة، لكنها خجلت وأجلّت رغبتها إلى زيارة أخرى صممت أن تكون قريبة، واكتفت بالمراقبة من زاويتها، وأرسلت خيالها ليسبر الغرف بأسقفها العالية والممرات بقناطرها الجميلة والباحات بنوافيرها، وهبطت به الأقبية وبحثت عن السرداب الذي يوصل إلى داخل القلعة. إذ قيل إنّ كل البيوت التي بنيت في تلك الحقبة خارج أسوار قلعة حلب، قد فتح في أقبيتها سراديب تصلها من تحت الأرض إلى قلب القلعة، وذلك كوسيلة

استباقية تمكّن الأهالي من الخروج في حالات الحرب وفرض الحصار وأيضًا لإيصال المؤن والذخائر إلى الداخل.

علقت سلمى في سراديب ذاكرتها وتوغلت فيها، فتماهت لحظتها الراهنة مع ذكرياتها البعيدة في انسجام حملها إلى أفق بعيد.

***

«لازمتني روائح الزمن الحميم ووجوه ناسه وأصواتهم، حتى بدأ شمس الدين العزف منفردًا على القانون، غطستُ حينها في بحيرة من شجن ذابت فيها كل الذكريات مفسحة المجال للنغم الساحر لينفرد وحده بمعانقة روحي المحلقة التي شعّت كعروس في ليلة جلوتها. وعندما بدأ المطرب أديب الدايخ، مطرب العشاق، بالغناء:

«لا تُخْفِ ما فعلت بك الأشواق... واشرح هواك فكلنا عشاق...»

كنت قد غرقتُ تمامًا ووصلتُ إلى قاع النشوة المُسْكرة، ونبت في صدري قلب جديد ينبض على إيقاع ذلك اللحن الخلاب.

رافقني قلبي الجديد إلى بيتي تلك الليلة، ومعه طيف ذلك الرجل الطويل النحيف الوقور، وأطياف أخرى مختلفة، منها ما ينتمي لأزمنة غابرة ومنها ما ينتمي لأزمنة لم تؤرخها كتب التاريخ بعد.

أول ما فعلته عند وصولي كان البحث عن ذلك البساط القديم الذي أهداني إياه الحاج محمد، وجدته في القسم العلوي من خزانتي، ملفوفًا ونائمًا ضمن صندوق يضم بضع الدمى من مقتنيات الطفولة عزّ علي التفريط بها. أخرجْته وفردْته على فراشي، ففاح السر الذي أبقيته محفوظًا داخل اللفة وانتشر في فضاء الغرفة، مررت براحتي مداعبة الورود القانية المنقوشة عليه كأنّني أسلّم عليها وأصالحها بعد قطيعة، ثم تمدّدتُ فوقها ونمت بسلام.»

## -2-

«سيلڤيو شمس الدين كارلوني» الذي تدلّهت في غرامه لم يبادلها إلا صداقة وقورة اكتفت بها كمرحلة أولى من العلاقة. كان يدعوها إلى كل حفلاته مع من شاءت أن تدعو من أصدقائها، ولم تتخلف هي عن الحضور أبدًا. حدّثها في إحدى الجلسات عن ولعه بالموسيقا العربية الذي اكتشفه في رحلة سياحية في مصر، حين دُعِي إلى حفل عُزفت فيه ألحان شرقية قديمة أغرته برمي الجيتار الذي كان مغرمًا به جانبًا واستبداله بالعود، وتوجب عليه من أجل إتقان ذلك أن يدرس الموسيقا الشرقية بشكل أكاديمي، ففعل متنقلًا بين معاهد في القاهرة وإستانبول ودمشق، إلى أن حطّ رحاله أخيرًا في حلب، معتمدًا آلة القانون التي ليس لها شبيه في الموسيقا الغربية، وبدأ بتعلم العربية وبتشكيل فرقته المتخصصة بعزف الألحان الشرقية عمومًا والصوفية خصوصًا.

بعد أن أعلنت له حبها بوقار ملكة تدمرية ذلك المساء، لم تحصل على أكثر من تلك الابتسامة الهادئة المعهودة، مع نظرة رمادية حنون، وكثير من الصمت.

- وإذن؟ سألته بانفعال ونفاد صبر.

- إذن ماذا؟

- ما رأيك بما سمعت؟

اقترب منها والتقط كفها بحنان، فتقطعت أنفاسها وأضاع نبض قلبها إيقاعه.

- عزيزتي سلمى، وأنا أيضًا أحبك... أنت تعرفين هذا... ولكن!
- لكن؟!
- أحبك كما أنت، كصديقتي الطفلة الجميلة والمتحمسة كشمس ساطعة لا تعرف المغيب.
- طفلة؟
قالت باستياء، وسحبت كفها.
- ما السيّئ في أن تكوني طفلة؟
- أنا في التاسعة عشرة من العمر! لقد تجاوزت الطفولة منذ زمن وبتّ أعرف جيدًا ماذا أريد.
- ماذا تريدين!!
لاحت في نظرته بسمة حانية، وتابع،
- عمركِ الغض لا يؤهلك لأن تكوني إنسانًا ناضجًا مكتمل الشخصية بعد. اسمعي جيدًا، حتى ولو كنتِ طيلة تلك الأعوام التسع عشر المنصرمة من عمركِ، تتلقين وتلتقطين معلومة في كل ثانية من الثواني الستين من الدقائق الستين من الساعات الأربع والعشرين من الأيام الثلاثمائة وستين من السنوات التسع عشر، فما زال ما تعرفينه من حقائق الحياة أقل بكثير من الموجود، وما زال أمامك الكثير الكثير لتتعلميه وتختبريه قبل أن تتبلور شخصيتك الحقيقية بشكل كامل.
- وهل يتحتم علينا أن نعرف كل حقائق الحياة لكي نحب؟
- طبعًا لا... فهذا المستحيل بعينه... ولكن علينا على الأقل أن نعرف حقيقة أنفسنا... ليس فقط ما نريد، بل لماذا نريد ما نريد؟ علينا أن نفهم ما هو الحب ومن هو هذا الذي نحب، قبل أن نبوح بالحب، وعلينا أن نميّز إذا كنا نوجه حبنا إلى الاتجاه الصحيح.
- بمعنى؟

- بمعنى أن نميّز إذا كان من نحبه كيانًا حقيقيًا أو مجرد انعكاس.
صمتت، وفكّرت قليلًا بما سمعت، ثم سألته:
- وأنت؟ هل تبلورت شخصيتك الحقيقية بشكل كامل على مدى الستة والأربعين عامًا من عمرك؟
اتسعت الابتسامة الهادئة:
- ليس بعد، لكنني أدركت بعض ملامحها، وما زلت أبحث عن البعض الآخر.
- وإذن... أنت لا تختلف عني كثيرًا.
- لا... ليس كثيرًا... فقط بمقدار سبعة وعشرين عامًا تفصلنا، بما تحويه من أيام وساعات ودقائق وثوانٍ!
- لم أكن أعرف أنك مغرم بالحساب!
- لا تسخري مني يا بنت!
- أنت الذي تفعل! أقول لك إنّني أحبك، فتقوم بإحصاء الثواني التي فصلت بين يوم مولدي ويوم مولدك!
- فعلت هذا لكي تدركي أمرًا ما! الحب شيء جميل، بل ربما هو أجمل الأشياء في الحياة، لكنه يصبح لعنة مدمّرة، عندما لا يكون مع الشخص المناسب وفي الوقت المناسب.
- أنا أشعر أنني في أنسب أوقاتي للحب!
قالت ذلك بنبرة مختلفة محمّلة بشيفرة ذكية، التقطها وفكّها من فوره، فرقّت نظرته وهمس لها:
- أنت امرأة مكتملة الأنوثة، أنا أرى هذا بوضوح، ولكن ليس هذا بيت القصيد.
- وما هو إذن؟
رمقها بعين حيرى، وقد أربكه إصرارها قال أخيرًا:

- هل أنت مستعدة للتحدي؟
- جدًا.
- حسنًا، أقترح أن نؤجل الحوار في هذا الموضوع لمدة عامين.
اتسعت عيناها البنيّتان بدهشة، ولمع فيهما وميض من غضب.
- عامان؟
- هذا اقتراحي، بإمكانك أن ترفضي، وسننسى هذا الموضوع نهائيًا في هذه اللحظة.
- لكن عليك أن تفسّر أكثر... ما الذي تنتظره من هذين العامين؟ هل تعطيني أملًا بأنه من الممكن أن تغيّر رأيك؟
- بل لنقل إنك أنت من ستغيّر رأيها!
- وإن لم أفعل؟
- سنناقش الموضوع وقتها حسب الوضع الراهن آنذاك!
أحسّت بخيبة غريبة، غير مكتملة، وعجز عن التفكير والتحليل والإجابة، الأمر الذي لم تعهده في نفسها.
- ولكن ماذا يعني هذا؟ لم أفهم.
- هو تمامًا كما فهمتِ، أو لنقل كما لم تفهمي.
استيقظت داخلها اللبؤة التي كانت مسترخية بوداعة ومنتشية بالغرام، وهز صوت زئيرها عرش الملكة التي اختل وقارها، فنظرت بحدة في عينيّ فاتنها البارد المشاعر وقد صممت ألا تتنازل:
- أنا موافقة ولكن بشرط!
- شرط؟
- لن تبقى صداقتنا كما هي اعتبارًا من اليوم.
ساد صمت طويل، قطعه أخيرًا.
- لم يعجبني هذا الشرط!

لم تجب، فأضاف:

- أنتِ حرة ولك أن تتصرفي كما تشائين، لكنني سأستمر في دعوتك لحضور حفلات التخت الشرقي هنا، وسيسعدني حضورك.

لم تعلّق، ونهضت لتنصرف.

- انتظري.

قال، وقام إلى مكتبته وسحب منها كتابًا وأعطاها إياه.

- سيكون عندك متسع من الوقت خلال هاتين السنتين لقراءة هذا الكتاب، وسيسعدني أن نناقشه سويًا... متى شئت!

- شكرًا لك... سأقرأه حتمًا.

أخذته منه وضمته إلى صدرها برفق من دون أن تنظر إليه، وانصرفت. لم يمهلها فضولها إلا عشر خطوات، توقفت بعدها لتتفحص الكتاب الضخم، فقرأت على غلافه:» مثنوي، جلال الدين الرومي». تصفحته بتعجب، فوجدت علامة بدت كأنها منسية بين الصفحات، فتحت الصفحة المعلّمة، وقرأت أول جملة لفتت نظرها:

«اعلم أن القمر في السماء. لا في ماء النهر».

# قمر في النهر

الجائزة المهمّة الأولى التي نالها لوكاس تقديرًا لأعماله الفوتوغرافية، والتي لفتت الأنظار إليه على نطاق واسع وعلى مستوى أوروبا، كانت من مجلة «يوروبيان فوتوغرافي» الشهيرة في العام 2003، بعد أن امتهن التصوير جديًّا قبل حوالي سنتين، وقتها بدأ بالعمل لصالح دار أزياء معروفة في مدريد تواصل معها عن طريق «ماريا دولوريس» أو لولا، الشابة الجميلة التي تعرف إليها في حفل عيد ميلاد صديقه خوسيه لويس، وأغرمت به.

لطالما تساءل لوكاس بينه وبين نفسه عن السبب الذي جعل هذه الفتاة الفاتنة الفارعة القامة تقع في غرامه، كان يعرف أنه على شيء لا بأس به من الوسامة، لكن خجله وطبعه الهادئ كانا يضعانه أبعد ما يكون عن نموذج الشاب المرح الجذاب الذي تعجب به الفتيات، وعارضة أزياء بالتحديد.

لكن لولا أحبته، ربما بسبب خجله، وربما بسبب آلة التصوير التي يعلقها دائمًا على رقبته كقلادة ثمينة أو كعضو إضافي من أعضاء جسده شكّل جزءًا لا غنى عنه من هويته. ورغم أنها لم تكن أول أنثى في حياته، فقد كانت بلا شك أجملهن على الإطلاق.

الفتاة الأولى التي أحبته وأحبها هي لوسيا زميلته في الثانوية، فتاة جريئة وذات شخصية طاغية. كانت هي من شجعته على فض عذريتها، فكان أن فُضّت عذريته هو أيضًا في ذلك اليوم الذي دعته فيه إلى بيتها

في غيبة من والديها، تركته بعد أقل من عام إذ وقعت في غرام شاب جامعي يكبرها سنًا، فضّلته على زميل مقعد المدرسة الضعيف الخبرة.

بعد لوسيا، اقتصرت حياته العاطفية والجنسية على عدة مواعيد تافهة دبرها له أصدقاؤه مع صديقات صديقاتهم، كان يلبيها بالكاد، تنفيسًا عن رغباته حينًا، وأحيانًا أخرى ليصرف عنه صفة المثلية الجنسية التي يسهل إلصاقها بأي شاب لا يتحمس لمواعدة الفتيات. كان يذهب إلى تلك اللقاءات كمن ينفذ واجبًا عليه أن ينهيه، مثلما يفعل في كليته، يؤدي ما عليه بإتقان ليتفرغ للاستمتاع بأخذ ما له. وما له لم يكن بالنسبة إليه أكثر من انفراده بالتقاط صورة لمشهد جميل.

عندما عرّفه خوسيه إلى لولا، حكت له بأنها متيمة بمهنة عرض الأزياء وترى فيها لنفسها مستقبلًا باهرًا. كانت قد قدّمت عدة عروض بسيطة حازت على قدر محدود من النجاح، إلا أن العارضة السمراء لفتت الأنظار بشكل خاص في أثناء مهرجان محلي، ما دفع إحدى الوكالات الشهيرة في مدريد إلى تحديد موعد لمقابلة معها، صادف تاريخها بعد عشرة أيام من لقائها بلوكاس، وإذ طلب منها أن تجلب معها سيرتها الذاتية مع بعض الصور المميزة، فقد اعتبرت لولا أن لوكاس وكاميرته هو ملاك أرسلته لها السماء.

لم يكن أمام لوكاس إلا أن يوافق، خجلًا من لولا وليس حبًا في تصويرها، فهو مع كل غرامه بالتصوير، لم تستهوه يومًا فكرة تصوير العارضات أو الأزياء أو كل ما يمت بصلة لعالم الإعلانات التجارية.

بعد أن نفّذ وعده بصبر، اكتشف أن هذا النوع من التصوير ليس سيئًا كما كان يظن، فالمرأة كائن عجيب يمكن أن يتحول أمام العدسة الماهرة إلى ألف كائن، يختلف واحدهم عن الآخر اختلاف البحر عن الصحراء.

واكتشفتْ لولا أن المربوع الخجول في النايت كلوب، هو إمبراطور عملاق في استوديو التصوير، يسيطر بإتقان على عدسته وعلى من يقف أمامها بموهبة فطرية فاتنة، حتى ليبدو ديكتاتورًا صغيرًا واثقًا من فنه ويعرف تمامًا أي لقطة يريد وكيف يحصل عليها.

النتيجة المبهرة لتعاملهما حفزت الوكالة للتوقيع مع لولا، ما حفز الشابين أيضًا للدخول في علاقة حب عاصفة لم يكن أحد من طرفيها يعرف أنها ستنتهي بمأساة.

عندما بدأت لولا عملها مع الوكالة المدريدية وعلاقتها مع الشاب الشمالي، كانت ما تزال في عامها التاسع عشر، بينما حبيبها الطالب في السنة الثالثة من كلية الحقوق قد بلغ عامه الواحد والعشرين.

بعد ثلاثة أشهر من جلسة التصوير تلك انتقلت العارضة الشابة للعيش مع لوكاس، فلازمته ثمانية أعوام. وإذ فرض عليها في الفترة الأولى أن تكون في مدريد لفترات طويلة بموجب التزامها مع وكالة الأزياء، كانت تقضي أيامها الباقية معه في شقته الصغيرة في قلب توليدو القديمة. يمارسان الحب بجنون، عندما لا يكون هو منهمكًا في ممارسة حبه مع الكاميرا. يلتقط لها آلاف الصور وهي تدخن، أو تستحم، أو تشرب، أو تنام كهرة ناعمة ملتفة بأغطية السرير.

إحدى تلك الصور كانت هي الصورة الفائزة بجائزة مجلة «يوروبيان فوتوغرافي» السنوية لعام 2003، وكانت تجمع الصبية ابنة الرابعة والعشرين مع بوابة «بيساغرا» Puerta de Bisagra ذات الأربعمائة وأربعة وأربعين عامًا[1].

لم تكن تلك الجائزة فأل خير على علاقتهما وقد بلغت من العمر

---

(1) وهي البوابة التي تعتبر المدخل الرئيسي لمدينة توليدو القديمة، وبنيت عام 1559 م. دعمًا للبوابة الأساسية التي بنيت في القرن العاشر.

حينها خمس سنوات، بل كانت على العكس بداية النهاية التي لاحت قاتمة بعد الخلافات العميقة التي ظهرت بين الطرفين.

سيطرة لولا أعادت إلى ذاكرته لمحات من علاقته الأولى مع المراهقة لوسيا، إذ كانت هي من تدير دفة حياتهما المشتركة وتوزع الأدوار بينهما، بحيث تسند إلى نفسها تلك الرئيسة والمهمة بينما تكلف شريكها بدور الكومبارس.

مسايرة لوكاس بدت لوهلة كأنها بلا حدود، خصوصًا عندما وقّع العقد مع وكالة الأزياء نزولًا عند رغبتها، رغم أنه كان أمرًا بعيدًا كل البعد عن الحلم الذي عاش يطمح إليه، ومنعته لولا حتى من مجرد التفكير به.

يؤمن لوكاس أن التقاط الجمال ليس هو هدف عدسته الحقيقي والوحيد، بل القبح والبؤس أيضًا، إذ كان يشعر بمسؤولية تدفعه لامتهان العمل الصحافي، ويحلم بالسفر إلى كافة أنحاء العالم لتغطية الأحداث الفظيعة التي تحصل هنا وهناك من دون أن تحظى (بحسب رؤيته) بتغطية كافية تتكفل بتقديم صور حية مباشرة تطرح أمام أعين الناس معاناة أخوتهم في الإنسانية.

لولا رأت في هذا الحلم خطرًا يهدد حياة حبيبها من دون مقابل مادي مضمون، فأقنعته بالتخلي عن الفكرة واستبدالها بتوظيف موهبته الفذة في عالم الأزياء والإعلانات: «ما لكَ بالحروب والفظائع والمآسي؟ أنت هنا تقبض أكثر، وتنعم بالرخاء والفخامة وصحبة الجميلات». وأرفقت كلامها بغمزة ساحرة. سايرها لوكاس على مضض، وهو يدرك في داخله تمامًا أن هذا الوضع لن يدوم طويلًا.

بعد نيله تلك الجائزة وتدفق العروض عليه، بدأت لولا تتصرف كأنها مديرة أعماله، وتمازحه بخبث قائلة إن ظهورها في لقطته هو

السبب الحقيقي لفوزها، وإن ظهورها في حياته هو السبب الأساسي لشهرته وتوهج موهبته وتفوقه في مهنته. كان لوكاس يعرف أنها في قرارة نفسها تؤمن بما تدّعي أنها تقوله على سبيل المزاح، وصار تكرار مزاحها الخبيث ذاك على مسامع كل من هب ودب، يؤلمه في الصميم، ألمٌ لم يتمكن من كتمانه طويلًا.

ولدت لولا لأم عزباء تخلت عنها بعد أشهر قليلة من الولادة لصالح زوجين ميسوري الحال من أقربائها؛ كانا قد طعنا في السن من دون أن ينجبا.

العائلة الجديدة لماريا دولوريس عُرفت بالتدين الشديد كغالبية عائلات توليدو، وحملت شيئًا من الطبع المتغطرس والمنغلق الذي اشتهر به التوليدانيون اعتدادًا بنسبهم القشتالي الرفيع.

وفّر الزوجان العجوزان لطفلتهما المتبناة كل أسباب الرفاهية الممكنة، فكبرت بينهما كإمبراطورة صغيرة لا يرد لها طلب، لكنها ما لبثت أن سقطت عن عرشها حين توفيا واحدًا تلو الآخر قبل أن تبلغ الرابعة عشرة، وعرفت حينها من بعض الأقرباء قصة أمها الحقيقية المراهقة الهاربة، وأبيها البيولوجي المجهول. الصدمة الثانية عندما نُقلت الفتاة بعد موت والديها بالتبني إلى مدرسة داخلية تديرها مجموعة من الراهبات الصارمات، حيث ذاقت الأمرين وأذاقتهما معها لراهباتها ومدرّساتها لمدة أربع سنوات، قضتها كإمبراطورة مخلوعة عن عرشها ومعتقلة في زنزانة أضيق من أن تتسع لجموح شخصيتها المتسلطة ورغباتها التي تعودت أن تلبى وتطاع في ذلك البيت الذي نشأت فيه. تمردت الصبية المراهقة على نشأتها الدينية المتحفظة كرد فعل للتحول الجذري الذي ضرب حياتها، فحاولت الهرب عدة مرات، وقبض عليها وهي تدخن في الحمامات، ونشرت

سرًا بين زميلاتها التلميذات أعدادًا من مجلة بلاي بوي وأشرطة لماريا كاري ومادونا ومايكل جاكسون، كانت تشتريها حين تخرج في الإجازات لقضاء عدة أيام في زيارة ابنة عمها المفترضة والتي تكبرها بعشرين عامًا. حين نالت شهادة البكالوريا وتخرجت من تلك المدرسة الكئيبة، خرجت من بوابتها المنيعة إلى فضاء شاسع لا يحده عرف ولا تقليد، طفلة ثرية ومجنونة بجسد أنثى صارخة الجمال.

لم تلتحق بالجامعة كما نصحها أساتذتها وطاقم الراهبات اللاتي ودعنها غير آسفات، إنما لاذت بشلة فتيان وفتيات في مثل سنها، كانت تدعوهم لقضاء ليال صاخبة عابقة بدخان المارجوانا في بيت أهلها الذي عادت للإقامة فيه. واكتشفت ولعها بعالم الأزياء فاقتحمته بثقة، عندما أدركت حجم الموهبة التي أُسبغت عليها بنيلها هذا الطول الفارع لجسد مثالي التناسق يحمل رأسًا مشوشًا ومزينًا بوجه جميل.

ورغم أنها تعرفت إلى لوكاس بعد حوالي عام واحد فقط من تخرّجها، إلا أنه لم يكن فارسها الأول، فقد عرفت في هذا العام المجنون الكثير من العلاقات المشوبة بجموح جنيّة تحررت للتو من قمقمها، إلا أن لوكاس، كان حبها الحقيقي الأول، وحبها الوحيد.

ساء طبع لولا عندما بدأت تشعر أن حبها يتسرب من بين أصابعها كحفنة من الرمال، هي التي لم تتعود أن يفلت من يدها أي شيء. ورغم شهرتها التي كادت تبلغ أوجها، وجدولها المزدحم دائمًا بالعروض داخل وخارج إسبانيا، وجلسات التصوير الطويلة، والصحافة والأضواء، إلا أن برود لوكاس وإعراضه عنها فتح ثقبًا أسود في وجدانها، سيطر على تفكيرها، امتص طاقتها، نغص سعادتها واستقطب كل تركيزها.

ورغم أنهما كانا يقيمان رسميًا في منزل واحد، إلا أن لقاءاتهما

صارت قليلة في السنة الأخيرة، حين راح لوكاس يسافر هو الآخر في رحلات عمل قد تطول وقد تقصر، تلبية لعروض مستقلة كان يحق له قبولها بحسب العقد الموقع مع تلك الوكالة.

شركات كثيرة ومهمة على امتداد أوروبا صارت تستعين به لتصوير منتجاتها بهدف إصدار كتالوجات فاخرة خاصة بها، وتنوعت تلك المنتجات من سيارات إلى مجوهرات ومستحضرات تجميل وتحف ومفروشات.

كل العروض كانت تصل إليه بعد مباركة من لولا، وكلها تندرج تحت بند الإعلانات التجارية، وكان ينفذها على مضض ممنّيًا النفس كل مرة أنها ستكون الأخيرة التي يقوم بها بهذا النوع من العمل، وأنه سيتفرغ قريبًا لحلمه الذي أهمل شهادته الجامعية من أجله، وسينتقي لعدسته المشاهد التي لم يخطر ببال مصور التقاطها، مشاهدًا حية وحقيقية، يمهرها بأحاسيسه المرهفة كعلامة مسجلة خاصة به وحده.

عندما يسافر ويصدف أن تبقى لولا في المنزل وحدها، تعودت إسكات قلقها بالويسكي والتدخين، كثير من الويسكي، وكثير من التدخين، الذي لم تكتف منه بالسجائر العادية، بل تخطتها إلى المارجوانا والحشيش، ومن ثم، عندما ساءت الأحوال أكثر بين العاشقين، بدأت تنزلق يومًا بعد آخر إلى عالم المخدرات، فاستنشقت الكوكايين، وحقنت نفسها بالهروين، وكانت تزيد الجرعة، كلما زادت الهوة عمقًا بينها وبين حبها الوحيد.

وبتأثير من المخدرات، تخلت عن كبريائها ذات ليلة وباحت بآلامها لصديقة وزميلة لها تعمل عارضة في نفس الوكالة، كانت تسهر معها في بيتها وتشاركها استنشاق الكوكايين وتطوف معها على نفس السحابة، رجاء المغربية. أنصتت إليها جيدًا ثم نصحتها بين شمّتين:

- في بلادي، من أجل أن تحتفظ النسوة برجالهن، يعمدن إلى ربطهن بالأطفال!

لمعت الفكرة في رأس لولا كمصباح أضيء بغتة في غرفة مظلمة. أحبت فكرة إنجاب طفل كغاية بحد ذاتها قدر ما أعجبتها كوسيلة لوصل ما انقطع بينها وبين لوكاس، واجتاحتها مشاعر الأمومة فجأة، وأغرمت مسبقًا بذلك الطفل الذي قررت أن تنجبه، وعزمت أن تكرس حياتها له وألا تتخلى عنه أو تضحي به مهما عظمت الأسباب، كما سبق وضُحي بها من قِبَل أم لم تسمع عنها إلا من خلال نميمة ضبابية، تركت في وجدانها ألمًا موغلًا في العمق، برعت في إخفائه حتى عن نفسها.

بعد أسابيع من نصيحة رجاء، كانت لولا تتعشى مع لوكاس في مطعم فاخر في مدريد. وعلى ضوء الشموع، مدت كفها باتجاهه وقالت:

- أعطني يدك.

التقط مندهشًا كفها الممدود نحوه بتضرع لم يعهده منها، واستغرب نظرتها الغريبة التي غمرته من خلف طبقة رقيقة من الدموع. باغته شعور بعدم الارتياح، وسألها بوجل:

- ما الأمر؟

ابتسمت برقة، ونهضت من كرسيها واقتربت منه وهي محتفظة بيده في يدها، ثم وضعت كفّه على بطنها وانحنت عليه حتى لامست شفتيها أذنه، وهمست:

- أنا حامل.

# ما تظنّه كنزًا

غاصت سلمى لفترة طويلة من الزمن في كتاب «مثنوي»، ليس إعجابًا منها بجلال الدين الرومي، ولا فضولًا لاكتشاف نمط تفكيره وفلسفته الصوفية، وإنما لرغبتها العارمة بالبحث عن الرسالة التي يمكن أن يكون شمس الدين قد تركها لها بين الأسطر.

***

لماذا أهداني هذا الكتاب؟

سألتُ نفسي هذا السؤال كلما باشرت بفتح الكتاب بشوق، وكلما أغلقته بضجر، بعد ساعات من قراءة نص معقّد لشدة بساطته.

كنت كلما أعجبتني جملة في أثناء القراءة، أقوم بنسخها على ورقة مستقلة، لأتأملها لاحقًا. وطالت ساعات التأمل، وطالت الورقة، وصارت كتيبًا صغيرًا، كتبتُ على صفحته الأولى كعنوان له: «المثنوي الصغير».

وشيئًا فشيئًا، غادر طيف شمس الدين الكتاب، ليتركني أنفرد وحدي بالقراءة والتأمل والتفسير، ناسية البحث عن تلك الرسالة التي خلتها مخبأة بين الأسطر، ومنغمسة في دراسة انعكاسات تلك الكلمات المحملة بأفكار جديدة على حياتي، كياني الخاص، إيماني، شكي ويقيني، وذاتي الحقيقية. ما لبثت أن استعنت بكُتيّب آخر، ملأته بمقاطع قصيرة رصدتُ فيها لحظات انكشافي أمام نفسي، وتوقي

للبوح بما عجزت عن الإفصاح عنه من مشاعر هجينة وأنصاف حقائق أضناني بحثي عن نصفها الآخر.

التزم شمس الدين بوعده، واستمر في دعوتي إلى كل الحفلات التي كان يقيمها في داره، أما أنا فلم ألتزم بمقاطعته كما هدّدت. لبّيت معظم دعواته مع تعمد التغيب عن بعضها من آن إلى آخر، أملًا مني بإثارة اهتمامه، وطمعًا باتصال منه يطمئن به عليّ ويتساءل عن سبب الغياب.

في حفلاته تلك، كنت ألتقي أحيانًا بـ «حسنا» الجزائرية، وهي امرأة جذابة في الثلاثينيات، شديدة السمرة وطويلة القامة، قدّمها لي وللآخرين على أنها صديقة، لكن أحدًا لم يكن يعلم الحدود الحقيقية لتلك الصداقة.

وتناسيًا لآلام قلبي، قررت أن ألاحق عشقي الآخر وأن أصنع لنفسي منه هوية خاصة بي وعالمًا يحتويني: شغفي القديم، الذي أيقظته تقاسيم شمس في تلك الليلة، فتركتُ له روحي ليسحبها معه إلى أفق عابق بشذى توابل الحاج عبد الله العطار، ومزخرف بنقوش طنافس الحاج محمد مصفي العسل.

هامت سلمى في سوق المدينة، وداومت في دكاكين العطارين تستفسر منهم وتتذوق وتشم وتجرب وتشتري، من دون أن تنسى التعريف بنفسها، كحفيدة شيخ الكار الحاج عبد الله العطار. كما عرّجت أيضًا على دكاكين باعة السجاد والبسط، وتاهت كما في طفولتها بين النقوش والألوان والقصص التي كان يحكيها لها كل بائع عن كل قطعة وهو يفردها أمامها.

حرصت أن تنتقي الأندر والأجمل، وبحثت بشكل خاص عن الورود الحمراء مثل تلك المنقوشة على بساطها القديم الذي باح

لها الحاج محمد بسرّه السحري. وهكذا بدأت شيئًا فشيئًا بتشكيل مجموعتها الثمينة، التي تجمعت على مدى سنوات واحتوت على قطع غير عادية، ميّزها أن لكل منها قصة، والقصة روح، كانت تنحني أمامها سلمى بخشوع وهي تلفها برفق في قلب تلك النقوش المجدولة بإتقان وحب، وأنفاس وعرق ودم، وتاريخ ووجدان.

من ناحية أخرى، وتلبية لشغفها باكتشاف آثار حلب وتراثها، انتسبت لجمعية «العاديات»، وهي جمعية أهلية تعنى بالتراث العمراني والأثري واللامادي في حلب.

لطالما رغبت سلمى بالانخراط في تلك الجمعية العريقة التي تأسست في العام 1924 باسم «جمعية أصدقاء القلعة»، وجاءت أهميتها بالنسبة لها خاصة وللحلبيين عامةً، من نوعية المؤسسين الأوائل لها التي عكست التنوع الثقافي والاجتماعي للمدينة، فقد ضمّت شيوخًا وعلماء كبار ومؤرخين ورجال دين، بالإضافة إلى شخصيات مثقفة بارزة من أطباء ومهندسين وقناصل. هذه التشكيلة هي التي رسمت خط الجمعية، التي صارت العضوة الجديدة المتحمسة تشارك بانتظام في نشاطاتها المتنوعة، من معارض وندوات ومحاضرات، ورحلات دوريّة للتعرف على المواقع الأثرية داخل حلب وما حولها.

- يعجبني حقًا ما تفعلين يا ليلي ولكن، ماذا بخصوص الكليّة؟

سألتها أمها، وقد كانت محقة في سؤالها، فسلمى كانت قد أهملت كليتها عامدة متعمدة، بعد أن وجدت أن كل تلك الكتب التي يجب عليها أن تحشو بها رأسها قبل الامتحان، لتنساها بعده مباشرة، لا تعنيها ولا تمثلها، وتلك الوثيقة التي ستحصل عليها بعد التخرج، لن تضيف إلى كيانها شيئًا ولن تُغني روحها، لأنها أيقنت أن مهنة المحاماة ليست لها ولن تمتهنها تحت أي ظرف من الظروف، وعليه، حسمت

أمرها واتخذت قرارًا سريًا بالتخلي عن الكليّة، لكنها لم تجرؤ على إعلان قرارها أمام والديها.

الدكتور سامح العطار وزوجته جانيت خوري خريجة كلية الآداب، وابنهما الأصغر سامر الطالب في السنة الأولى في كلية الطب، استهجنوا قرار الابنة البكر عندما تجرأت أخيرًا على إبلاغهم أنها ستتخلى عن دراسة الحقوق بعد مشوار متعثر في الجامعة، إذ رسبت في معظم مواد الصف الأول وأعادتها في العام التالي، وبالكاد انتقلت إلى السنة الثانية، فكررت الرسوب فيها، وحينها قررت الانسحاب نهائيًا.

- إن كانت مشكلتك مع مادة الحقوق، اتركي كليّة الحقوق والتحقي بأية كلية أخرى تختارينها، ولكن، لا يمكن أن تبقي من دون تحصيل جامعي، هذا مستحيل.

بدا الأمر بمثابة الكارثة للطبيب المعروف، فبالنسبة إليه، أن يشب الحريق في عيادته، أو أن يفقد عينًا من عينيه، أهون عليه من ألا ينال أحد أبنائه إجازة جامعية.

عندما كان سامح العطار طالبًا في السنة الرابعة في كلية الطب في جامعة تولوز، فسخ خطبته من ابنة عمه لأنها تركت التعليم بُعيدَ نيلها البكالوريا، بحجة أنها غير جامعية ولا تطمح أن تكون. ومع أن السبب الحقيقي لفسخ الخطوبة، تمثل في وقوعه في غرام جانيت خوري، الزميلة المسيحية لشقيقته في كلية الأدب الفرنسي، إلا أنه تمسّك أمام العائلة بحجته الأولى، مانحًا نفسه صورة المثقف المتعجرف الذي لا يؤمن بغير المثقفين، وقد التصقت به هذه الصورة على مدى سنوات عمره حتى صدّقها هو ذاته، إذ أقنع نفسه أن ما من شخص جدير بالاحترام والتقدير، إلا المثقف الأكاديمي الحاصل على إجازة

جامعية أو أيّة درجة من درجات التعليم العالي، مردداً بين الفينة والأخرى في مجالسه المختلفة الآية القرآنية: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

التقى جانيت خوري في عطلته الصيفية الرابعة في مسقط رأسه حلب. كان عائداً إلى المنزل ذات ظهيرة قائظة بعد زيارة خطيبته في بيت عمه، وفي الشرفة الكبيرة لمنزله الذي يقع في الطابق الثالث من بناء جديد وجميل في حي السبيل، لمحها عندما رفع رأسه وهو في أول الشارع متطلعاً صوب البيت. كانت ترتدي ثوباً زهرياً وتعقد على شعرها الأسود الجميل شريطاً من نفس اللون، تقف مستندة بمرفقيها على الحافة الحجرية للشرفة بجانب أخته هدى التي اتخذت نفس الوضعية، فبدت كزهرة من زهور أمه الحاجة أم محمود، المزروعة في أصص معلقة على الطرف الخارجي للشرفة وزاهية بألوان مختلفة.

عندما لمحته هدى، التي تصغره بعام واحد، لوحت له بيدها، ما جعل صديقتها تنتبه وتستقيم منتصبة، وتتراجع خطوة إلى الخلف بخجل. لكن هذه الخطوة الصغيرة، لم تكن كافية لتفادي المصير الذي أعلَنَ في هذه اللحظة عن خطته الطويلة فيما يخص هذين الشابين.

بعد أن صعد سامح قفزاً، تماسك أمام الفتاة التي توردت وجنتاها وهي تصافحه حتى بدا ثوبها أمامهما باهتاً، لمحت خاتم الخطوبة في بنصر يمناه، ولمح صليباً ذهبياً يرتاح على صدرها متدلياً من سلسلة معلقة في رقبتها.

- سامح أخي... جانو صديقتي وزميلتي في الجامعة.

قالت هدى مقدّمة أحدهما إلى الآخر.

- تشرفت.

قالها الاثنان في صوت واحد، قبل أن يعتذر سامح ويدخل غرفته،

وهو مشوش الذهن، وقد التصقت في باله صورة الصليب الذهبي المتأرجح فوق الثوب الزهري. كما اعتذرت جانيت وانصرفت بعد أن قبّلت صديقتها، وهبطت السلالم مسرعة هاربة من البركان الذي انفجر لتوه في الطابق الثالث من ذلك البناء، ولاحقتها حممه هابطة خلفها سلّمة سلّمة وطاردتها حتى منزلها في حي السليمانية، حيث أغلقت على نفسها باب غرفتها، وهي تحاول طرد تلك الابتسامة الجريئة من بالها، ومحو صورة اليد الممدودة ذات الخاتم الفضي في بنصرها.

بالنسبة لجانيت، قصة الحب هذه كانت ضربًا من المستحيل الجميل، وقد أودت بها في طريق شائكة عادلت دموعها ابتساماتها إن لم تكن جاوزتها. عرض عليها سامح أن يفاتح أهلها بالموضوع بشجاعة وأن يطلب يدها للزواج بوضوح، لكنها رفضت الفكرة رفضًا قاطعًا لأنها تعرف مسبقًا ردة فعل أهلها ومثلهم كل أفراد مجتمعها عن طرح كهذا، سيعدّون الأمر مصيبة ماحقة ستحل بهم، وعارًا كبيرًا سيلطخ اسم العائلة، ستُنبذ الفتاة في الحال، وستعدّ خارجة عن دينها، وسينكرها أهلها ويقاطعونها، وسترتدي أمها الأسود وتقول بحرقة: « ابنتي ماتت».

وهذا ما حدث، هربت جانيت مع سامح بُعيد تخرجها، وتزوجته بحضور أخته هدى وأخيه محمود وبعض الأصدقاء، إذ عارض والده الحاج عبد الله المشروع أيضًا لظروف الفتاة الدينية والاجتماعية ولكبر سنها مقارنة بابنه، طبيب المستقبل، لكن معارضته انهارت بعد فترة قصيرة لم تتجاوز الأسابيع الثلاثة.

سافر العروسان بعد إتمام الزواج إلى دمشق، وبعد أسبوع، طارا إلى فرنسا، حيث أكمل سامح دراسته وتخصصه في القلب والأوعية الدموية، وعمل في مستشفى في تولوز لعدة سنوات، أنجبت خلالها

جانو بكريتها سيلين، ثم ابنها سامر بعد سنتين، وحصل كل أفراد العائلة على الجنسية الفرنسية، قبل أن يقرر سامح العودة للوطن.

***

تُعجبني حقيقة أنني ثمرة اختلاط ثقافتين ودينين. وأما قصة حب والديّ، التي أفتخر بها ظاهريًا، وأتحدث عنها بشاعرية من يحكي أسطورة إغريقية، فتشكل لي في الحقيقة خيبة أمل محبطة باطنيًا، وأصارح نفسي أحيانًا بأنها ليست إلا كذبة كبيرة لا أجرؤ على إدانتها. فبالرغم من أن علاقتهما لا يمكن وصفها بالسيئة، إلا أنني لا أجد فيها أثرًا لذلك العشق الخرافي الذي دأبت على التباهي به. كما يعذبني شكّ مدعوم بهمسات خافتة، بأن والدي ليس مخلصًا لحبه الكبير وله علاقات مشبوهة وخفية. كثيرًا ما يلامس شكي ذاك حدود اليقين، ليتراجع عنها مدفوعًا برغبة عارمة بالتجاهل والتغابي، للحفاظ على صورة الرجل المثالي التي زرعتها في قلبي وأدمنتها، للأب الذي عشقته وارتكزتُ عليه، وحلمت في طفولتي بفارس يشبهه.

لطالما سألت نفسي إن كانت أمي نادمة على قرارها ذاك! أعرف أنه كلفها الكثير، لكنني لا أعرف أبدًا إذا حصلت بالمقابل على ما يستحق تلك التضحية.

***

- هل أنت سعيدة بزواجك من أبي؟

سألتها ذات مرة، وكانت تقلم أظافرها، فنظرت إليّ بدهشة، وأجابتني بشيء من الارتباك:

- ما مناسبة هذا السؤال؟

- لقد تركتِ أهلك ومجتمعك وعاداتك من أجله، أنا أعرف أنك تتألمين جراء ذلك، فهل الحياة معه تستحق هذا الألم؟

أشاحت جانو بوجهها عن نظرات ابنتها المتعطشة للفهم، وانكبّت تُعْمِلُ المبرد بنشاط متوتر في أظافرها التي كادت تختفي، وأجابت:

- لا تصدقي أن ثمّة حياة من دون ألم، لكل شيء ثمن.

- أعرف هذا، وإنما أنا أسألك إذا كنت تشعرين أن الثمن الذي دفعته كان مناسبًا لما حصلتِ عليه؟ أولست نادمة؟

حدقت جانيت بذهول في وجه سلمى، كأنها ترجوها الكف عن تعذيبها بنكء جراح حاولت تخديرها لعمر طويل.

- الأمر ليس كذلك، ليست صفقة تجارية لنحدد إذا كانت رابحة أم خاسرة.

- هي قصة حب إذن؟ هل ما زلت تعشقينه كما بالأمس؟

- حسنًا... كان حبًا كبيرًا... لكن الأمور تتغير مع الوقت.

- وأهلك، أمك، وإخوتك، هل تغيرت مشاعرك اتجاههم مع الوقت؟

لم تحتمل أكثر، فتضرّعت بيأس:

- أرجوك كفّي عن هذا، ماذا تريدين مني اليوم؟

- لقد التقيت بخالتي فيفيان هذا الصباح، وعندما لمحتني، ابتسمت لي وسالت الدموع على خديها!

كانت الجملة الأخيرة آخر مسمار دقته سلمى في نعش مقاومة أمها، فحملت مبردها وقامت بهدوء إلى غرفتها مدارية دموعها التي سالت على خديها، على عنقها وقلبها وروحها، دموع سالت لتغمر عمرها كله، وكيانها كله.

بعد عودة الأسرة الصغيرة للاستقرار في حلب، بدا أن جانيت اندمجت بشكل جيد مع مجتمع أهل زوجها، عاداتهم وتقاليدهم وحتى طريقة إعدادهم الطعام. لم تهمل أي طقس من الطقوس، صارت تصوم مثلهم في رمضان وتحتفل معهم بعيد الفطر وعيد الأضحى، وتشتري

الملبّس الأزرق في عيد المولد النبوي، وتساعد حماتها في طبخ «المامونية» صباح رأس السنة الهجرية. بدت مستمتعة بحياتها فعلًا لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك، بل كانت فقط ممثلة جيدة. هي في الحقيقة تشتاق إلى أهلها الذين نبذوها. تشعر أنهم تخلوا عنها وخانوها، في نفس الوقت الذي تشعر به بالذنب تجاههم. تشتاق طقوس حياتهم التي كانت حياتها وانسلخت عنها. تشتاق شجرة الميلاد والمذود الصغير تحتها، والنجمة المذنّبة على قمتها، والخبيصة في رأس السنة، والكبة اللبنية حسب طريقة أمها لا حماتها، تشتاق العدس بالحامض في أول أيام الصوم الأربعيني، والتجمع في ساحة فرحات يوم الجمعة العظيمة، والبيض المسلوق الملون في العيد الكبير، وعجة البقدونس والتتبيل وكعكة العيد، تشتاق صلاة الفصح الصباحية المبكرة المسماة بـ«التبكيرة» التي كان والدها يصطحبها إليها في السادسة صباحًا في كاتدرائية السيدة في ساحة فرحات، لتقضي نصفها غافية بحضنه. تشتاق صورة العذراء مريم وهي تحتضن وليدها معلقة على حائط الغرفة في بيت السليمانية، والمسبحة المعلقة فوق إطارها... تفاصيل... تفاصيل كثيرة... صغيرة وكبيرة انسلخت عنها بقسوةٍ جعلتها تشتاقها إلى حد الوجع، إلى حد النفور المكتوم من التفاصيل والطقوس الجديدة التي فرضت على حياتها الجديدة، التي سايرتها بسلاسة وكبرياء، وتظاهرت أنها تعوّدت عليها وأحبتها وأتقنت ممارستها، أملًا في التأقلم معها تدريجيًّا بطريقة ما... في يوم ما... في عمر ما.

«ما تظنه كنزًا، ربما فقدت من جرّائه الكنز.»

لمعت هذه الجملة في رأسها فجأة، وأدركت الآن لماذا قرأتها عليها سلمى منذ أيام، من كتاب ضخم كانت قد أنفقت الكثير من ساعات أيامها في الآونة الأخيرة بين صفحاته.

# الشمعة الخامسة

كانت تمسك بيدي عندما كنا نصعد الدرج الطويل إلى قلعة حلب، الشمس بدأت تميل نزولًا، تاركة على الجدران والأحجار القديمة الضخمة لونها البرتقالي المثير، لون الغياب، الذي يتوهج لأقصى الحدود قبل أن يختفي، كأنه يستنفد كل ما تبقى عنده من طاقة في الدقائق الأخيرة من عمر هذا النهار.

وصل بنا الدرج الحجري العريض إلى بوابة عالية، مدت سلمى يدها مشيرة بإصبعها إلى ما يعلو قنطرتها من نقوش، وقرأتُ أنا اللوحة الجانبية: «باب الحيّات».

- ليس هناك حيّات يا لوكاس.

قالت سلمى، واستطردت:

- من كتب هذه اللوحة مخطئ... هذا باب التنانين التي تحرس حلب، وليس الحيّات، انظر جيدًا.

تتبعتُ إصبعها الذي كان يشير إلى النقش الذي يحيط بالبوابة الكبيرة، ويمثّل ما يشبه أربعًا من الأفاعي ملتفة على بعضها البعض.

- انظر إليها، لها أسنان كثيرة وآذان كبيرة أشبه بالقرون، الثعابين ليست لها آذان، بل هي التنانين.

خاتمها الفضي، الذي يتحلق حول الإصبع الذي كانت

تشير به، يحمل نفس النقش، نفس التنانين المتعانقة والمتداخلة في بعضها البعض.

أخذتُ الكاميرا والتقطتُ الصور للقنطرة الأثرية القديمة المصبوغة بلون ذوبان الشمس، وكف سلمى المرفوع نحوها ذو الخاتم الذي تناجي تنانينه التنانين الحجرية المنحوتة على الحجر العتيق.

عندما استدارت إليّ، وجّهْتُ العدسة إلى وجهها، فضَحِكَتْ بصوتٍ عالٍ وغمر الضياء البرتقالي المُحْتَضِرُ خدّيها، ارتعش قلبي وانتابتني رغبة جارفة في تقبيلها، لكنها سبقتني إذ اقتربت مني حد الالتصاق وهمست في أذني:

- قبلّني الآن.

أطعتها وأطعتُ رغبتي الجارفة، التقطت شفتيها المنفرجتين بشفتيّ، وأحسست بلسانها ينزلق ويلتف كتنين صغير على لساني، وينفث نيرانه الحارقة في جوفي.

أحاطت بنا النيران فجأة من كل صوب، فأبعدتني عنها خائفة وهي تنظر إلى أعلى، إلى التنانين الأربعة التي دبّت فيها الحياة، فتحركت بانسيابية مخيفة باتجاهي وهي تنفث نيرانها لتحرق الأرض تحت أقدامي.

- ضع هذا في إصبعك.

ألقت سلمى بخاتمها إليّ قبل أن تختفي وتتلاشى في الدخان، لكنني عجزت عن التقاطه، وطارت الكاميرا من يدي عندما كنت أحاول الوصول إليه، فهوت خلفه

ثم تدحرجا متسابقين إلى هبوط الدرجات الواحدة بعد الأخرى حتى استقرا أسفل سفح القلعة. غابت الشمس فجأة ساحبة معها لونها البرتقالي من الفضاء، فحل ضباب رمادي ابتلع السلالم وأحجار القلعة وبواباتها والتنانين، ثم تعالت صيحاتهم من خلف الضباب.

«الله أكبر، الله أكبر...» كنت أعرف هذه العبارة وسمعتها كثيرًا قبلًا، ولكنني لم أشعر يومًا بالرعب الذي شعرت به وأنا أسمعها اليوم.

«الله أكبر، الله أكبر...» اقتربت الصيحات أكثر وأكثر من دون أن أرى أصحابها، حتى أحاطت بي فجأة من كل اتجاه هامات سوداء بلا ملامح، سحبت الهواء من حولي فلم أعد أستطيع التنفس.

«الله أكبر» لمرّة أخيرة وشعرت ببرودة لاذعة تلامس عنقي ثم تنسحب عليه بسرعة خاطفة، ألم حاد، ودفء لذيذ يسيل من اللمسة الباردة ويغمر صدري، خفتت الأصوات شيئًا فشيئًا حتى سكتت تمامًا، وزال الألم وانقشع الضباب الرمادي عن صورة أمي تحمل ابني مانويل طفلًا بين ذراعيها، من خلفها جاءت سلمى، كانت تبتسم بهدوء، ثم بدأت الكلام لكنني لم أصغ إليها، إذ لم أكن أسمع شيئًا، من ثم، لم أعد أرى شيئًا، وغمرني سلام عجيب، والتقطت روحي الصورة الأخيرة، لبياض متوهج لا يشبه أي بياض آخر رأيته في حياتي.

توليدو 31/08/2013

# مصور حربي مستقل

## -1-

جَبُنَ لوكاس هذه المرة أيضًا عن إشعال الشمعة الأخيرة. أعادها إلى علبتها وأحكم إغلاقها بغرض حفظ ما بقي فيها من عبير لأطول مدة ممكنة، العبير الباقي من زمن سلمى، الذي عاد اليوم ليتضوّع في عالمه فجأة معلنًا عن وجوده الذي لم يضمحل يومًا، إنما كان يستريح في قيلولة صغيرة في ظل كومة مشوشة من الذكريات.

أخرج الكتيّب الذي كان قد سجل فيه ما تذكره من تفاصيل أحلامه الخمسة التي عاشها متمددًا على تلك السجادة في فضاء مضاء بنور شمعة واحدة وعابق بشذاها الساحر.

قبل أن يفتحه، قرأ على الغلاف الجملة التي كتبتها سلمى بخط يدها باللغة العربية عندما اشترت له الكتيب ونصحته بتسجيل أحلامه فيه:

«ما دام قلبك قد تعلم إشعال الشموع، فإن الشمس لا تجرؤ على إحراقه». / جلال الدين الرومي /

تريث متأملًا ذلك الخط الجميل وقد بدا له كزخرفة شرقية خلابة، وتذكر اليد التي رسمت هذه الزخارف ممسكة بالقلم بين إصبعين يزيّن أحدهما الخاتم الجميل الذي وجده اليوم في مطار بيروت.

تحت جملة سلمى، كتب لوكاس الترجمة بالإسبانية بخطه، كما كتب اسم الكاتب الذي بحث عنه فيما بعد وعرف أنه شاعر وعالم فقه صوفي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي.

عادت الفتاة الساحرة للتسلل إلى ذاكرته قبل حوالي ست سنوات

عندما بدأت شبكات الأخبار تتحدث عن قيام الثورة في سورية. ومن ثم، عندما اندلعت الحرب وطال سعيرها مدينة حلب، احتلت سلمى ومدينتها الجميلة المنكوبة فضاء اهتماماته وشغلت مركز تفكيره لفترة طويلة من الزمن.

كانا في ذلك الوقت قد توقفا عن التواصل منذ حوالي أربع سنوات، بعد قصة حب لم يعرف كيف يسميها لأنها على بساطة أحداثها وتفاصيلها لم تكن تشبه أي شيء آخر عرفه في الحياة أو سمع عنه.

في أواخر صيف 2012، حاول الاتصال بها عندما وصلته أخبار اقتراب المعارك من حلب، المدينة التي كانت تعنيه كما تعنيه سلمى، لكن محاولاته بقيت طويلًا بلا جدوى، لأن الاتصالات، وكما عرف لاحقًا، كانت مقطوعة عن المدينة بما فيها شبكة الإنترنت.

حالفه الحظ أخيرًا في بداية الشتاء، عندما سمع صوتها الشهي يجيبه متعبًا:

- أنا بخير، إذا كان البقاء على قيد الحياة ما زال يعدّ خيرًا، أما حلب، فهي ليست بخير!

أرسل إليها عدة رسائل بعد ذلك يحثها على المغادرة، ولم يكن الموضوع صعبًا بالنسبة إليها بما أنها تحمل جواز سفر فرنسي، لكنها أجابته أخيرًا بأنها لن تفعل.

- مستحيل... حملي ثقيل جدًا. لا أستطيع أن أحمل سجّادي وبسطي معي إلى أي مكان، هم أرضي التي لا أستطيع أن أغادرها أو أغادر دونها.

لو كان لوكاس شخصًا آخر، لاستغرب موقفها ووصفها بالمجنونة، لكنه إذ كان يعرفها مسبقًا، ويعرفها جيدًا، لم يفاجئه جوابها، ووجده مشابهًا لها وكأن الحرب لم تغير فيها قيد أنملة.

يريد لسلمى أن تغادر حلب، وبالمقابل، بدأت كاميرته تلح عليه أن يأخذها إلى هناك، إلى المدينة التي عشقها عندما اكتشف كنوزها المعتقة، فالتقط لها الصور حتى الثمالة. لم يستطع لوكاس النوم لليالٍ كثيرة، وهو يفكر بتلك التحف التاريخية النادرة وهي تدمّر وتأكلها النيران، حتى اتخذ قراره أخيرًا بعد شهور من البحث والتفكير، وخطط للسفر إلى سورية والدخول إليها تهريبًا عن طريق الحدود التركية التي لم تعد الحكومة تسيطر عليها، بما أنها منعت دخول الصحافيين المستقلين بطريقة شرعية إلى البلاد.

اتفق مع اثنين من الصحافيين، أحدهما مراسل صحيفة «إل موندو- El Mundo» الإسبانية والثاني مصور مستقل، على دخول سورية برًا عبر الحدود التركية. على أن يسافر مع المصور ريكاردو إلى إستانبول ليلتقيا هناك بثالثهما، خافيير، المقيم في بيروت التي اتخذها مقرًا له منذ أن تولى مهمته كمراسل «إل موندو» للشرق الأوسط.

خافيير كان خبيرًا في دخول سورية بطريقة غير شرعية، إذ سبق له أن قام بزيارتها عدة مرات منذ اندلاع النزاع في العام 2011، كما كتب له أن ينجو من الموت في مدينة حمص إثر قصف أودى بحياة الصحافية الأميركية ماري كولفن، والمصور الفرنسي ريمي أوشليك. قرأ لوكاس عن تلك الحادثة في خضم جمعه لمعلومات عن خافيير وعرف أن كولفن وأوشليك قتلا مع 80 شخص مدني في أثناء قصف قوات النظام حي بابا عمرو في حمص بتاريخ 22 شباط/ فبراير 2012، وأصيب خلال هذا القصف عدد من الصحافيين الغربيين من ضمنهم الإسباني خافيير اسبينوسا مراسل صحيفة إل موندو. الذي نجح في الخروج من سورية، ودخل إلى لبنان مختبئًا بين مجموعة من اللاجئين.

أما ريكاردو، فقد كان نموذج المصور الذي طالما حلم لوكاس أن يكونه، إذ قام بتغطية الحروب التي اشتعلت في أفغانستان وليبيا، وتعاون مع عدد من وسائل الإعلام الدولية مثل نيويورك تايمز وواشنطن بوست ونيوزويك ولوموند وإل موندو ووكالة الصحافة الفرنسية.

حددت المجموعة الصغيرة تاريخ الأول من أيلول موعدًا للقاء في مطار إستانبول، من حيث سيطير الثلاثة إلى مدينة غازي عنتاب القريبة من الحدود الجنوبية لتركيا، ليكملوا من هناك الرحلة برًا إلى قلب سورية.

حين تمت الحجوزات واكتملت الترتيبات قبل أيام من الرحلة الموعودة، كان حماس لوكاس قد وصل إلى حدوده القصوى، فلم يستطع منع نفسه من إرسال رسالة إلى سلمى يخبرها فيها عن خطته لزيارة حلب، وقد ندم على فعلته تلك أشد الندم لاحقًا، فردّة فعل سلمى جاءت مُحبطة، إذ بدت كعادتها غامضة ومُربكة، عندما كتبت له في اليوم التالي:

*عزيزي...*

*أسعدني حماسك وأثّرت فيّ مشاعرك النبيلة وإخلاصك للمدينة التي أحببت، لكنك يجب أن تعرف أن حلب لن تلاقيك بذراعيها المفتوحتين وابتسامتها الساحرة نفسها التي ودّعتك بها، إن معشوقتنا اليوم هي لبؤة جريحة طاش حجرها وصارت تفترس كل من تجده من طريقها من دون أن تميز بين عدو وحبيب.*

*لقد حلمت بالأمس بك، ولن أقصّ عليك تفاصيل حلمي*

*بل سأدعوك وأرجوك أن تستشير حلمك الخاص، لعلّه يهديك إلى القرار الصائب فيما يخص هذه الرحلة.*

كن بخير.

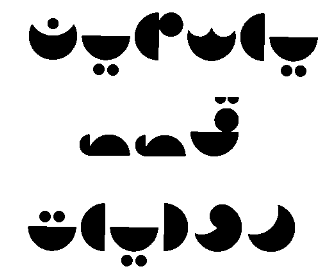
قَبِلَ لوكاس دعوتها واستجاب لرجائها قبل ليلة واحدة من موعد السفر، كان قد بقي في جعبته شمعتان اثنتان، استل واحدة منهما، ثبتها في شمعدان صغير وأشعلها قبل أن يتمدد على سجادته الدافئة الحكيمة.

متجاهلًا النصيحة التي أُوحِيَتْ إليه ضمن تفاصيل الحلم الخامس، طار لوكاس في الصباح التالي إلى إستانبول، لكنه لم يتابع رحلته إلى غازي عنتاب، إذ فقد توازنه على إحدى السلالم الكهربائية الهابطة في المطار عندما حاول مساعدة سيدة مرتبكة على حمل طفلها، وسقط بعنف على كتفه الذي استقبل به الأرض حاميًا بذراعيه الطفل ومضحيًا بجسده وبحقيبته التي تحتوي الكاميرا الثمينة وبعض أكسسواراتها.

الإصابة كانت أخطر من أن يغضّ عنها النظر، كسر خطير في الكتف يحتاج لجراحة عاجلة. ترك خافيير وريكاردو زميلهما المستجد في غرفة العمليات في أحد مستشفيات إستانبول ليلتحقا بالطائرة المغادرة إلى غازي عنتاب، لمتابعة رحلة أصرّا على عدم تأجيلها، وذلك بعد أن تركا له أسماء وأرقام الأشخاص الذين يمكنهم مساعدته على العبور لاحقًا في حال رغب بذلك.

وبالنسبة لهما أيضًا، لم تسر الأمور كما خططا لها، ولم يستطيعا الالتزام بالعودة في الموعد المحدد بعد أسبوعين، إذ لم يعد القرار بيدهما بعد أن تعرضا للخطف في محافظة الرقة قرب الحدود من قِبَل عناصر تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» وهما يستعدان لمغادرة

سورية في 16 أيلول، ولم يطلق سراحهما إلا بعد حوالي الستة أشهر، عاشا كل يوم منها على أنه اليوم الأخير، مترقبَين اللحظة التي سيتم فيها فصل رأسيهما عن جسديهما بضربة سيف ترافقها صيحة: «الله أكبر».



## -2-

بعد أسبوعين من الإقامة الجبرية في إستانبول، قرر لوكاس، من دون أن يعلم بمصير زميليه، المضي قدمًا في مغامرته تلبية لشهوات كاميرته المدلّلة التي لم تأبه بهشاشة وضعه الصحي. طار وحيدًا إلى غازي عنتاب بعد أن رتب إجراءات دخوله إلى سورية عبر الاتصال مع المدعو «أبي طلحة» الذي ترك له خافيير وريكاردو رقم هاتفه.

أثناء الرحلة الجوية كان قلبه يعزف لحنًا كئيبًا جنائزي الإيقاع وهو يستعيد تفاصيل الحلم الذي زاره على سجادة سلمى، لم يعرف كيف يسكته وهو يتخيل شكل المغامرة التي سيخوضها وحيدًا أعزل، إلا من الكاميرا، وشغفه اللجوج الذي لم يمنحه العذر للانسحاب، مكبلًا بجبنه المزمن وخوفه من المجهول.

فكّر بماهية الشخص الذي سيستقبله في المطار ويعبر به الحدود، «أبو طلحة»! أي نوع من الرجال هو؟ لم يعرض له خياله كإجابة لهذا السؤال إلا صورة رجل ملتح في جلباب أبيض لا يكاد يصل إلى الكاحلين.

الشاب الذي وجده في المطار حاملًا لوحة تحمل اسمه كان بعيدًا كل البعد عن أبي طلحةَ الذي صوّره له خياله، بسحنته الغريبة وبنطاله الجينز وحذائه الرياضي الحديث، وقميصه القطني (تي شيرت) الذي طبعت عليه كلمة: GUESS!. لكن لوكاس لم يَجِد التخمين عندما قال له أثناء المصافحة:

– مرحبا... أبا طلحة؟

- مرحبا... اسمي عاصم، وأنا المكلّف من قبل أبي طلحة بإيصالك إلى الحدود السورية.

ركبا سيارة حديثة رباعية الدفع، وباشر عاصم القيادة من دون أن يتفوه بأية كلمة. شعر لوكاس بالضياع، إذ كان فعليًا هذه المرة لا يعرف شيئًا، ولا يفهم شيئًا.

- إلى أين نحن متوجهان حاليًا؟ سأل عاصم

- إلى معبر باب الهوى الحدودي... وهناك سأسلمك إلى شابين آخرَين ليرافقاك في سورية، سيقودانك إلى مناطق النزاع ويقومان بحمايتك، وسيزودانك بشريحة هاتف خلوي لتتمكن من الاتصال بأي مكان في العالم.

- ومن هما هذان الشابان؟

- هما مجاهدان من فصيل الفاروق، سبق لهما أن رافقا وتعاملا مع كثير من الصحفيين الأجانب قبلك.

- وما هو فصيل الفاروق؟

حدجه بنظره باردة من خلال المرآة الأمامية، وأجاب ببرود.

- أحد الفصائل المقاتلة في الجيش السوري الحر.

برود عاصم زاد من شعور لوكاس بالقلق، وأوقف سيل استفساراته، يعرف مسبقًا أن الجيش الحر تشكل في البداية من عناصر منشقة عن الجيش السوري النظامي، ثم التحق به الكثير من الشبان المعارضين بهدف إسقاط النظام عسكريًا، لكن الفضول الصحافي الذي انتابه فجأة، ثم ابتلعه، بدا شرهًا إلى مزيد من التفاصيل.

وتساءل إن كان هؤلاء الأشخاص أهل ثقة فعلًا ليقودوه في بلاد لا يعرف عنها شيئًا!

حسب خرائطه وحساباته، كان يعرف أن الرحلة يجب أن تستغرق حوالي الساعتين والنصف.

- ما هي الطريق التي سنسلكها الآن يا أخ عاصم؟

- أفضل طريق إلى باب الهوى، سنتوجه إلى كلّس ثم الريحانية.

اللكنة الغريبة في انجليزية عاصم، وسحنته التي لا تشي بأنه من سكان حوض المتوسط، أثارا فضول لوكاس، فسأله:

- هل أنت سوري؟

أجابه بنزق.

- أنا مسلم ومجاهد في سبيل الله... وليس لي هوية أخرى.

- حسنًا... جزاك الله خيرًا!

قال له تلك الجملة متذكرًا سلمى التي رددتها كثيرًا بنسختها العربية على مسمع منه في حلب أثناء حوارها مع الناس هناك، وكانت قد ترجمتها له وشرحت له معناها بعدما استرعت انتباهه واستفسر عنها.

وصل معبر باب الهوى أخيرًا، ومن دون تأخير، فتنفسّ الصعداء بعد أن استبعد وجود مؤامرة لخطفه، كما كان يفكر طوال الطريق.

لكن من بادر باستقباله في سورية لم يكن مجاهدا فصيل الفاروق، بل انفجار مباغت أطاح بوعيه وحلق به إلى سماء عالية في فضاء صاخب وأخرس في آن واحد، فاقعٍ وخالٍ من الألوان.

## -3-

*«انفجار سيارة مفخخة عند معبر باب الهوى على الحدود السورية التركية.*

*نشر في 17 أيلول/ سبتمبر 2013 - 12:38 بتوقيت جرينتش.*

*قال نشطاء من المعارضة السورية على الحدود إن سيارة ملغومة انفجرت على الجانب السوري من معبر باب الهوى الرئيسي مع تركيا يوم الثلاثاء وإن نحو عشرة أشخاص على الأقل نقلوا إلى مستشفيات قريبة.*

*وأضافوا أن الانفجار وقع عند نقطة تفتيش تحرسها ألوية إسلامية عند مدخل المعبر الواقع تحت سيطرة مقاتلي المعارضة على بعد مئات الأمتار من الجانب التركي».*

لم يكن مفاجئًا ولا صادمًا الخبر الذي قرأته سلمى بسرعة وضجر في إحدى الصفحات الإلكترونية. وقد كان لها أن تتأثر أكثر، لو عرفت أن أحد هؤلاء الأشخاص العشرة الذين نقلوا إلى مستشفيات قريبة هو لوكاس.

في مستشفى «باب الهوى» الذي استحدث في مبنى كان يستعمل سابقًا كسوق حدودية حرة، استلقى لوكاس على سرير للمعاينة في أحد الممرات. كتفه تؤلمه بشدة، ولم يكن من الممكن تمييز أفراد الطاقم الطبي هنالك عن الجرحى والمصابين، ولم يدر من منهم الطبيب ومن الممرض، طمأنوه أنه بصحة جيدة. وأنه محظوظ فلم ينل منه الانفجار إلا خدوشًا بسيطة.

أول رد فعل له أن اطمأن على الكاميرا، وبعدها تذكّر وسأل:

- ولكن أين عاصم؟

لم يلقَ سؤاله جوابًا في خضم الفوضى، كما لم يبالِ أحد به حين قام وحمل حقيبته الصغيرة وخرج.

لم يجد عاصم، لكنه وجد شابًا يتحدث الإنجليزية بطلاقة، عرض عليه المساعدة بعد أن لفت انتباهه شكله الأجنبي وارتباكه:

- يا سيد... هل أنت صحافي؟ هل تتحدث الإنجليزية؟

- نعم... أنا إسباني... اسمي لوكاس.

- تشرفنا... أنا صفوت، سائق تاكسي... هل تبحث عن أحد؟

- عاصم... مرافقي اسمه عاصم... هل تعرفه؟

- لا والله... ولكن إذا كنت تريد الذهاب إلى مكان ما، أنا أوصلك.

تردّد لوكاس، واستمهل صفوت برهة ليرتب أفكاره ويحسم أمره، فكّر أنه يجب أن يتصل بأبي طلحة، لكنه تذكر أن هاتفه لم يعد يعمل في سورية، وأن البطاقة الخلوية الجديدة المتفق على أن يأتيه بها المرافقون الجدد لم تصل.

- هل معك هاتف؟ أحتاج أن أجري مخابرة إلى تركيا؟ وسأدفع لك.

- تفضل يا سيد لوكاس... أملي عليّ الرقم.

رنّ هاتف أبو طلحة ولم يجب. وبعد عدة محاولات... صار رقمه خارج الخدمة!

- حسنًا سيد صفوت... أريد الذهاب إلى حلب.

قرر لوكاس مجازفًا.

- سيارتي هناك... تفضل اركب.

- وأريد شريحة للهاتف...

- تكرم... خمس دقائق وتحصل عليها.. انتظرني في السيارة.

ركب لوكاس سيارة «الكيا-ريو» السوداء، مسلّمًا أمره لصفوت، آمِلًا الوصول إلى حلب، والاتصال بسلمى.

لكن صفوت أوصله إلى مكان آخر يختلف كل الاختلاف عن ذاك الذي عزم الذهاب إليه.

كعلاء الدين فوق بساط الريح، عبرت به الكيا-ريو السوداء مواقع أشبه بالأساطير، أساطير كئيبة تشبه الكوابيس! قرى محترقة أخليت من سكانها، ومثلها ما زالت مأهولة، ولكن في بيوت فقيرة مهلهلة هدمت القذائف نصف جدرانها بينما طرّز الرصاص نصفها الباقي. وانتشرت شوادر الأمم المتحدة البيضاء والزرقاء في كل مكان مرقّعةً ثقوب الحيطان والأسقف والأبواب، وفتحت بها نوافذ أطلت منها أعينٌ لامعة لأطفالٍ أضجرهم الرعب والانتظار.

- أطفال هنا؟؟ يا إلهي!

اقشعر بدن لوكاس.

قلّة من تلك القرى كانت ترفع علم الثورة بألوانه: الأخضر والأبيض والأسود، ونجومه الحمر الثلاث، أما الأغلبية، فقد كانت الرايات السود ترفرف في سمائها الملبّدة بالغبار والدخان، تُحرّكُ هواءً ثقيلًا مسمومًا جثم على صدر تلك الأراضي المحروقة التي لم يدركها اخضرار الربيع بعد.

استوقف لوكاس صفوت لعدة مرات، إذ نهشته الكاميرا التي تململت في حضنه طويلًا. ترجّل من السيارة والتقط الصور، صورًا للدمار الوقح البليد، للأطفال المذعورين من العدسة، وللأعشاب الصفراء المتفحمة المسحوقة تحت مختلف أنواع فوارغ القذائف والرصاص.

وتوقفا عند كثير من الحواجز، اختلفت أشكال عناصرها وتباينت سحناتهم وألبستهم، بين أطقم عسكرية وعباءات أفغانية وبناطيل جينز وألبسة رياضية، إلى أن أعلن له صفوت:

- بعد هذا الحاجز، نصبح في حلب.

ترجّل صفوت مسرعًا وصافح عناصر الحاجز بود، مشى مع واحد منهم بعيدًا عن السيارة وتحدثا طويلًا، وعندما عاد طلب من لوكاس النزول.

ما أن ترجّل لوكاس حتى شعر بفوهة رشاش تلتصق بظهره.

- ابق هادئًا.

همس أحد العناصر في أذنه من الخلف، وسارع آخر إلى تعصيب عينيه.

- ولكن ماذا يجري هنا؟... يا صفوت... يا صفوت!!

صرخ لوكاس بهلع.

- لا تخف... (أتاه صوت صفوت) أنت لست مختطفًا.

## -4-

« إن لم أكن مختطفًا، فماذا يكون هذا الخراء الذي علقت فيه؟»

سأل لوكاس نفسه يائسًا، بعد أن أحصى سبعة عشر يومًا من الاحتجاز في غرفة ضيقة قذرة ورطبة تنيرها فتحة أصغر من أن تسمى نافذة في أعلى الجدار حيث لا يمكنه التطاول لينظر منها ويرى ماذا يوجد خارج هذا الجحيم الساكن.

لم يسمع طيلة هذه الفترة التي أمضاها مصغيًا إلاّ صوت خطوات بطيئة تارة وراكضة طورًا، وأحيانًا يتهيأ له أنه يسمع صرخات بعيدة، ولم يعد يميز بمرور الأيام واقعه من كوابيسه.

كانوا يفتحون الباب بمقدار شبر مرة في اليوم ليدفعوا إلى داخل الغرفة عبوة مياه وطبقًا من الأرز البارد ورغيف خبز، وأحيانًا يدعمونه بقطعة من البندورة الفاسدة.

كل يوم، كان ينتظر الباب ليفتح، ليصرخ لليد التي تدفع بالطبق:

– من أنتم؟ أين أنا؟ ماذا تريدون مني؟

العنصر الذي لم يرَ ملامح وجهه كان يلعب دور الأصمّ والأخرس، لم يشفِ غليله بأية إجابة، كما لم يتوقف هو بالمقابل عن محاولاته اليائسة بتكرار ذات الأسئلة.

صباح اليوم الثامن عشر، سمع الخطوات الثقيلة تقترب قبل موعد الأكل المعتاد، ورأى الباب يفتح بالكامل كاشفًا خلفه رجلًا ضخمًا، أومأ إليه أن ينهض ويتقدم. قبض الرجل على معصمي لوكاس حالما اقترب منه، وقيدهما بأصفاد حديدية قبل أن يجرّه من قميصه خارجًا.

- من أنتم؟

سأل لوكاس متضرعًا بالإنجليزية.

- ستعرف حالًا.

أجابه الضخم بالعربية... فلم يفهم لوكاس شيئًا، وزاد خوفه وارتباكه.

في غرفة أكثر أناقة نسبيًا، أُجلس لوكاس مكبل اليدين أمام مكتب يواجه كرسيًا فارغًا، وخلفه في الزاوية اليمنى انتصب علم باهت الألوان سرعان ما ميّزه، إذ ترافق بصورة ضخمة توسطت الجدار لرئيس جمهورية سورية، يرنو مبتسمًا إلى الأمام.

هل هذا معقول؟ سأل نفسه خلال الساعتين اللتين قضاهما في الانتظار متأملًا الصورة، قبل أن يدخل رجلان احتل أحدهما ذلك الكرسي خلف المكتب، بينما سحب الآخر كرسيًا من جانب لوكاس وجلس بجانب زميله عن يمين الطاولة.

فتح الأول الملف الذي على الطاولة، وأخرج جواز سفر لوكاس، فتحه وقرأ ببطء.

- لوكاس أورتيز بيريز...

وأتبعها بجملة عربية، ترجمها الثاني.

- مصور إسباني... ماذا جئت تفعل في بلدنا؟

- أريد أولًا أن أعرف من أنتم، وماذا تريدون مني؟

أجابه الأول، وترجم الثاني:

- هذا النقيب جعفر من شعبة الأمن السياسي، أنت معتقل هنا، لأنك دخلت سورية بطريقة غير شرعية.

- معتقل؟

لم يفهم لوكاس ماذا يعني ذلك، ولم يعرف كيف يتصرف، نطق بالسؤال الوحيد الذي لم يفارق شفتيه كل تلك الفترة:

- ماذا تريدون مني؟

- أجب على قدر السؤال. (نهره الثاني)

- ماذا جئت تفعل في سورية؟

- أنا مصور فوتوغرافي... جئت لألتقط الصور.

- صحافي؟ ولحساب أيه جهة تعمل؟

- أنا مستقل.

- ماذا يعني هذا؟ من موَّل رحلتك، ولمن ستبيع الصور؟

- موّلت الرحلة بنفسي، ولم أقرر بعد لمن سأبيع الصور أو أين سأنشرها.

- هل يفترض أن أصدق هذا الكلام؟

- هذه هي الحقيقة.

- الحقيقة... (قال ساخرًا) حسنًا جدًا... سأتركك لتتذكر الحقائق الأخرى بهدوء في غرفتك الفاخرة... لا تستعجل... خذ وقتك... فنحن أيضًا لسنا مستعجلين.

- ولكن...

- خذوه.

صرخ بحزم، ولم يحتج لوكاس للترجمة ليفهم، فصرخ بدوره قبل أن يدخل العنصر الضخم الذي أحضره ليعيده إلى زنزانته.

- أرجوك أن تصدق... ليس هناك حقائق أخرى!!

- سنرى لاحقًا.

حاول لوكاس الصراخ بينما كان العنصر يجره بقوة من قميصه، لكن قبضة الذل التي عصرته وكتمت أنفاسه أخرسته نهائيًا. وعندما

دخل زنزانته السابقة وأُغلق عليه الباب مجددًا طفرت الدموع من عينيه وبكى مستسلمًا كطفل يائس.

بعد خمسة أيام أخرى، أعادوه إلى غرفة الاستجواب، وبادره النقيب جعفر:

- لوكاس أورتيز بيريز... هل توصلت لحقائق أخرى؟

- لم أقل ولن أقول إلا الحقيقة.

- حسنًا إذن... إلى أين كنت متوجهًا في حلب؟ أيّة جهة كانت ستستقبلك؟

- لا أحد... كنت سأبحث عن فندق ما.

- كيف سأصدق أنك جئت هكذا وحدك... ومن دون أي تنسيق مع أحد، ومن دون حتى حجز فندقي؟

- الحقيقة أنني لم أخطط للمجيء بمفردي، كان من المفترض أن أرافق اثنين من الصحافيين الإسبان.

- جميل... ولماذا لم يأتيا معك؟

- لقد... لقد سبقاني في الدخول إلى سورية، وأنا لا أعرف أين هما الآن.

- عظيم جدًا... ها هي حقائق جديدة تظهر... ماهي أسماؤهما؟ وكيف ومتى دخلا؟

حكى لوكاس... فعرف من الضابط قصة اختطاف خافيير وريكاردو... عندها هوى قلبه الذي كان أصلًا معلقًا بشعرة واهية.

- اسمع أيها المصور أورتيز... أنت قد ارتكبت جرمًا بحق سورية بدخولك إليها بطريقة غير شرعية، واحترامًا منا للقوانين الدولية التي لم تحترمها أنت، فإنه يتوّجب علينا إحالتك للمحاكمة التي ستقضي بحبسك ومن ثم ترحيلك فورًا إلى خارج بلادنا.

لكننا... وإثباتًا لحسن نيتنا، ولأننا نؤمن بالصحافة الحرة، ولأننا دولة ديمقراطية تحب إيصال صورتها الحقيقية إلى العالم والرأي العام، سنقوم بمساعدتك لتقوم بالمهمة التي جئت من أجلها.

- كيف ذلك؟

- أنت يا لوكاس قرعتْ الباب الخاطئ، إذ لجأت لأولئك المجرمين والإرهابيين وطلبت منهم حمايتك ومرافقتك، انظر كيف سلّموك إلينا، بينما باعوا زميليك إلى داعش.

- وهل كان عندي باب آخر لأقرعه؟

- الآن سأمنحك فرصة أن تقرع هذا الباب، لا بل وسأبادر بفتحه لك.

- كيف؟

- سنمنحك أولًا تأشيرة دخول نظامية. وبعدها سأرسل معك مرافقين من طرفنا، يحمونك، ويدلونك على الأماكن التي يجب أن تذهب لتصورها، وعلى الناس الذين يجب أن تحاورهم من ضحايا من يسمون أنفسهم بالمعارضة. سترى بعينك زيف الأخبار التي يروج لها الصحافيون الذي يدخلون بطرق غير شرعية تحت حماية الإرهابيين، هم يساهمون معهم في دمار البلد وقتل أطفاله.

احتاج لوكاس إلى دقيقة صمت لينظم أفكاره ويستوعب العرض المقدم إليه، وإذا بذهنه يعود به فجأة إلى السؤال الأول الملح:

- ولكن ماذا تريدون مني؟ أقصد... مقابل هذا العرض.

- لا شيء طبعًا... فقط نريد منك أن تنقل للعالم الصورة الحقيقية للأحداث التي تجري هنا.

- هذا ممتاز... ولكن... كيف ستأمنون لي الذهاب إلى مناطق المعارضة، وتلك الخارجة عن سيطرة الحكومة؟

- مناطق المعارضة... ولماذا تريد أن تذهب إلى مناطق المعارضة؟ أما زلت تثق بهذه الحثالة؟؟ نحن الدولة!

- أنا أثق بكم أنتم طبعًا... ولكن كصحافي... واجبي يحتّم عليّ أن أزور كل الأماكن... وأصور كل الأشياء... أريد المشهد كاملًا بكل أمانة لأُظهر الحقيقة... أليس كذلك؟

- أنت محق... هذا كلام لا غبار عليه، ولكن باعتبارك ستكون تحت حمايتنا، فلن نستطيع أن نغامر بإرسالك إلى تلك المناطق الساخنة، لتحاور أولئك المجرمين آكلي القلوب والأكباد... ستبقى معنا... تريد الحقيقة؟ الحقيقة عندنا نحن... نحن الدولة!

- أنا غير مهتم بمحاورة المحاربين والمسلحين... افهمني... هدفي هو تصوير الناس... المدنيين... البيوت... الشيوخ والأطفال.

- هناك كلهم واحد... لا مدنيين بينهم، شيوخهم شياطين وأطفالهم بذور إرهابيين، كلهم ينتمون إلى نفس الجنس الذي أعماه التخلف والحقد... هؤلاء لا يُسمع كلامهم ولا نفع في محاورتهم.

- ولكنك تحدثت عن الديمقراطية... وحرية الصحافة!

صمت النقيب لدقائق ابتلع فيها غيظه، ومن ثمّ قال بلهجة حادّة وساخرة:

- كفاكم لعبًا على هذه الألفاظ أيها السادة... حرية وديمقراطية وهراء... لن نسمح لكم أن تعلمونا هذه القيم كأنكم أنتم من اخترعها... نحن نعرف كيف نبني بلدنا... وكيف نحكم شعبنا... من دون ترهاتكم تلك.

- أنا لم أقصد...

- اسمع... لوكاس أورتيز بيريز... غدًا سنجتمع في مثل هذه

الساعة... بلغني قرارك... المحاكمة والترحيل أو القبول بعرضي... انتهى الكلام.

كان أجبن من أن يرفض العرض، إذ لم يكن واثقًا من صدق وعدهم بمحاكمة عادلة والاكتفاء بالترحيل على خلفية معاملتهم له واحتجازه خلال الفترة السابقة، كما أن فكرة عودته إلى تلك الزنزانة كانت لوحدها تصيبه بالغثيان... لذلك سارع للقول: لا داع لانتظار الغد... قبلت العرض.

أعدّوا له برنامجًا من خمسة أيام ورافقوه فيه أينما ذهب! اطّلعوا على كل الصور وفحصوا الكاميرات وفتشوه تفتيشًا دقيقًا قبل أن يغادر إلى لبنان، ومنه استقل الطائرة عائدًا إلى إسبانيا مع صور تحكي نصف الحقيقة، أو ربما ربعها. باعها لصحيفة إسبانية مغمورة وتبرع بالمكسب لجمعية تعنى بالأطفال السوريين في مخيمات اللجوء، وغضّ النظر خجلًا عن رغبته بالاتصال بسلمى، كما تمنى أن يفعل كمسك للختام عندما خطط لتلك الرحلة إلى سورية، التي بقيت وحتى بعد تنفيذها، حلمًا لم يتمكن من تحقيقه... مثلها مثل امتهان العمل الصحافي، بعد أن صارت هذه الخبرة القاسية قفلًا أحكم إغلاق الباب الذي كانت لولا قد نصبته مسبقًا بينه وبين وآماله.

إستير ورافايل أورتيز

لم تتحقق آمال لولا إلاّ بشكل نظري فقط، فقد التزم لوكاس بالبقاء معها بعد أن عرف بموضوع حملها، واستبعد فكرة الانفصال التي راودته مؤخرًا، لكنه لم يعرض عليها الزواج كما كانت تأمل، ولم تتحرك مشاعره باتجاهها من جديد، كما في الشهور الأولى من العلاقة.

تجاهلت خيبتها بكبرياء، كما دعتها حكمتها إلى خفض سقف أحلامها لهذه الفترة على الأقل، إذ أقنعت نفسها أن مجرد بقائه معها والتزامه بعلاقتهما هو انتصار، وأن الأمور ستتغير حالما يولد الطفل الذي عرفت أنه سيكون ذكرًا، واختارت له اسم «مانويل».

في أعماقها، بدت لولا في الحقيقة ممتنة للوكاس لتمسكه بالطفل وشعوره بالمسؤولية تجاهه، مقارنة بوالدها المجهول الذي يحرقها الفضول لمعرفة تفاصيل قصته مع والدتها، هل كانا على علاقة وهجرها بعد الحمل؟ أم أن الأم كانت مجرد فتاة طائشة ذات علاقات عابرة، أثمرت واحدة لا على التعيين منها عن حمل لم تستطع التخلص منه في الوقت المناسب؟

لوكاس، الذي استقبل الخبر بذهول وبرود عجيب، لم يشعر بأي شيء للوهلة الأولى، ووجد نفسه يسأل لولا:

- هل ستحتفظين به؟

- طبعًا سأفعل، هذه ثمرة حبنا.

«طبعًا ستحتفظ به»، فكّر، «أكيد أنها لم تدعني إلى هنا، ولم تقم بهذه الحركات الدرامية لتقول إنها حامل بطفل تنوي إجهاضه».

- أولست سعيدًا؟

«سعيد؟ لا لست سعيدًا... لست شيئًا... لا أشعر بشيء» فكّر أيضًا وأجابها:

- ماذا بالنسبة لعملك؟ هذا الموضوع سيعطلك لأكثر من عام.

- وليكن... ثمّة ما هو مهم، وثمّة الأهم.

حماسها المتوقد ولمعة الظفر في عينيها أثارا حنقه، بدأت تعود مشاعره شيئًا فشيئًا واكتشف أنها سلبية محضة، فقد راوده شعور فأر علق في مصيدة. أراد أن يطلب منها التخلص من الجنين، لكنه لم يستطع فقد أشفق أن يفسد فرحتها العارمة.

- هذا الطفل هدية من السماء جاءت في التوقيت المناسب.

قالت بشجن وعذوبة.

- سنصبح عائلة جميلة...

تابعت جملها الدرامية وهي تضغط على كفه بكفها، وتحاصر وجهه بنظرات حنونة من عينيها الباسمتين الدامعتين. أما هو، فكان يفكر أن حملها ومن ثم الطفل قد يصبحان مجالًا جديدًا لعدسته، إذ لم يسبق له التقاط الصور لامرأة حامل أو طفل وليد ورضيع.

- أعرف أنك ستكون أبًا رائعًا.

كانت تصدق هذا وتعني ما تقول، فللوكاس قلب رقيق لم تلتق بمن يحمل مثله من الرجال، لا يؤذي حشرة إشفاقًا عليها، ويحاذر المساس بمشاعر الآخرين كائنًا من كانوا. هذه الرّقة التي ورثها عن والده، كانت في الحقيقة دائمًا سيفًا ذا حدين.

أغرم رافاييل أورتيز أثناء دراسته للطب في مدريد باليهودية الجميلة

إستير عندما التقاها في معرضٍ للفن التشكيلي أقامه أحد أصدقائه الموهوبين. منعته رقة قلبه لفترة طويلة من حسم أمر هذه العلاقة التي عارضها والداه لأسباب عنصرية بحتة، خوفًا على أبيه المريض بالقلب، الذي قال له عندما فاتحه بأمرها:

- لو تزوجت هذه اليهودية ستتسبب بإصابتي بالجلطة حتمًا.

والد إستير هو أحد المغاربة اليهود الذين وصلوا كمهاجرين إلى إسبانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حط رحاله في إشبيلية واستفاد من خبرته في الصياغة التي كان قد اكتسبها من العمل في دكان والده في المغرب ليلتحق بعمل في ورشة صياغة متواضعة هناك، حيث أبهر صاحبها بخبرته المكتسبة وموهبته الفطرية في مجال الذهب، إلى جانب نصائحه الذكية التي ساهمت في تسويق منتجات الورشة إلى خارج حدود إشبيلية، وعملت على تطوير خطة العمل وأدت إلى زيادة هائلة في الأرباح. ابنة صاحب الورشة انبهرت به أيضًا كأبيها، فتزوجها رغم معارضته ورحل بها إلى مدريد حيث افتتح ورشته الخاصة معتمدًا على أسرار السوق التي تعلمها في ورشة حميه، والزبائن الذين تعرف إليهم خلال عمله هناك، ثم أنجب بكره إستير في العام 1950، ونشأت كفتاة خجول رباها حسب الشريعة اليهودية التي لم يتخل عنها رغم وجوده في إسبانيا، التي سبق أن طردت اليهود من مواطنيها ما لم يقبلوا التحول إلى الكاثوليكية، بموجب ما سمي بـ«مرسوم الحمراء» في العام 1492، وقد ادّعى والد إستير أن أجداده، الذين كانوا يقيمون في توليدو قبل رحيلهم إلى المغرب، كانوا ضمن أولئك المطرودين.

تزوج رافاييل وإستير أخيرًا، بعد أن اقتنع والده بها بمجرد أن التقاها، عندما اصطحبها ابنه في إجازة إلى سانتاندير لتتعرف إلى أهله ومدينته.

جمالها البريء البسيط، وخجلها المهذب وتورد وجنتيها، كان لهم وقع جيد في نظر وقلب طبيب الأسنان الشمالي. غيّر رأيه بمجرد أن ابتسمت وافتر ثغرها عن أسنان بيضاء مثالية التناسق، فأعطاها بركته عندما قالت إن والدتها كانت قد عمّدتها سرًا، وإنها ملمّة بكل تعاليم المذهب الكاثوليكي وتمارس الكثير من شعائره عندما يتسنى لها ذلك بعيدًا عن عيني والدها.

بدت تلك خطة جيدة اتفقت عليها مع رافاييل بعد أن أعيتهما الحيلة في الحصول على موافقة الأب الذي هدد بأن تصيبه الجلطة، وهي لم تنل منه إلا بعد ثلاثة عشر عامًا من تاريخ الزواج الذي أهداه حفيدين أدخلا بهجة خاصة إلى سنواته الأخيرة.

لوكاس، الذي كان الحفيد المفضل لجده الشمالي، لم يتسنَ له أن يعرف جيدًا جدّه الآخر الذي أورثه مفتاح بيت العائلة، المغربي اليهودي، الذي توفي وحفيده ما يزال يحبو. وكذلك الأمر بالنسبة لجدته الأندلسية التي عادت إلى إشبيلية بعد وفاة زوجها لتعيش في كنف عائلتها هناك، الأمر الذي فرض عليهم كلما أرادوا لم شمل العائلة، عبور إسبانيا من أقصى شمالها إلى جنوبها، في رحلة تركت في نفوسهم انطباعات بهيجة عن المدينة الباهرة، وذكريات شحيحة عن الجدة البعيدة.

عندما وُلد مانويل، جاءت إستير من سانتاندير لزيارة ابنها في توليدو ولرؤية حفيدها الأول بما أن لوكاس سبق أخيه في الإنجاب، وعندما وقعت في غرام ذلك الطفل الظريف، إلى حد استصعبت معه العودة إلى منزلها، تذكرت أمها واستغربت موقفها عندما رحلت إلى إشبيلية وابتعدت بالمسافة والعاطفة عن أحفادها.

لولا حاولت لفترة أن تكون لطيفة مع إستير، فاعتبرتها حماتها

مجازيًا، خصوصًا أنها تولت أمور الوليد في الأسابيع الأولى في ظل انعدام خبرة الأم وغياب الجدة الأخرى. علمتها إستير كيف تلبسه وكيف تغيّر حفاضه وكيف تحمّمه وتطعمه، وكانت هي من يستيقظ معه ليلًا لإرضاعه حليبه من الزجاجة، لأن لولا لم تحبذ فكرة الإرضاع الطبيعي، ولأنها دخلتْ في اكتئاب ما بعد الولادة الذي لم تخرج منه أبدًا.

بعد حوالي شهر، سئمت لولا من وجود إستير معها في الشقة الصغيرة، واشتاقت إلى لوكاس الذي تعود أن يطل لساعات معدودات يداعب فيها مانويل ويستحم ثم يمضي، حتى صرخت به ذات يوم بعد أن انهارت مقاومتها:

- تترك لي أمك وتمضي؟ أنا أريدك أنت لا هي، أنا أنجبت هذا الطفل لك أنت وليس لها.

- أنت أنجبتِ هذا الطفل لنفسك، ومع ذلك فأنا أرى أن أمي هي من تعتني به وأنت لا تفعلين شيئًا سوى التذمّر... ماذا تريدين، هل أترك عملي لأعتني بطفلك؟

- هو طفلك أيضًا، وليس طفلي وحدي.

- نعم هو طفلي، لكن أنت من قرر إنجابه إلى هذا العالم في هذا التوقيت وليس أنا.

سمعت إستير صراخهما، فرتّبت حقيبتها ومضت في نفس اليوم، تاركه ابنها ليتحمل مسؤولياته التي لم يفرضها عليه أحد، وتاركة قطعة من قلبها في سرير صغير تدور وتتأرجح فوقه مجموعة من العصافير الملونة.

# حلب 1

- تسري في عروقك دماء يهودية إذن؟

قالت له مشدوهة، بعد أن حكى لها قصة الحب التي جمعت والديه، أصابته دهشتها بالعدوى، ففكر بالعداوة التاريخية بين العرب واليهود على خلفية قضية فلسطين، وصمت طويلًا قبل أن يجيب:

- وهل هذا شيء سيئ؟

- لا... بل ربما يكون جيدًا!

كانت تفكر أنها لو أنجبت منه طفلًا، فسيكون مثل توليدو، «طفل الثقافات الثلاث»، لكنها لم تخبره بما كان يجول في ذهنها لأنها لم تقرر حتى الآن في أي موضع من حياتها عليها أن تضع هذا الرجل الذي تعرفت إليه للتو.

هي تعرف أنها لا تحبه ذلك الحب الذي يسمى «حبًّا»، بل تحبه بطريقة أخرى، ربما لأنه أغرم بها، وربما لقَدَر معين سيجمعهما معًا، بدليل التشابه الرهيب في تفاصيل قصة حياته وحياتها.

- هل لاحظت التشابه في قصتينا؟

- طبعًا! ما أدهشني وأسعدني.

- ولكن هناك فرق؟

أنْصَتَ باهتمام لما ستقوله، فقد كان هو أيضًا قد شخّص فرقًا، وفرق كبير، يتلخص في الاختلاف الجذري في شخصيتيهما. قالت:

- أنت هارب من امرأة تحبك، وأنا أحب رجلًا يهرب مني!

- ومن قال لك إنني أنا أيضًا لن أحب امرأة قد تهرب مني؟!
ابتسمت ابتسامتها الصغيرة الغامضة، وقالت بهدوء:
- ستحبها... وستهرب منك!
- ولماذا قد تفعل ذلك؟
- يلوح في الأفق حزن كبير...
- هل هذه رؤيا؟
- هذا نصيبي من الرؤيا، أما أنت... فعليك أن تسعى خلف نصيبك بنفسك.

لم يكن هذا لقاءهما الأول منفردين، حين جلسا في مقهى تقليدي صغير مواجه لقلعة حلب اسمه الخان، حيث دعته سلمى لتناول الطبق الشعبي المسمى بـ«الفتّة»، ويتألف، كما حاولت أن تشرح له، من الحمص والخبز المقلي المغطّس بالطحينة المتبلة بالثوم والليمون مع زيت الزيتون والمخلل. أغرم لوكاس بالفتّة، وأغرم بالخان الذي كان يشبه بُرهةً كسولة من حلم شرقي مسترخ عند سفح القلعة، البسط الممدودة هنا وهناك، الوسائد المقصّبة الجميلة وأغطية الطاولات المطرزة بخيوط الذهب، والثريا النحاسية الكبيرة التي تتدلى من مركز السقف، والفوانيس العتيقة المعلقة على الحيطان.

نوبة الافتتان التي اجتاحته عندما وصل حلب تشبه تلك التي اجتاحته حين جاء إلى توليدو.
- ما أشبه حلب بتوليدو!

ردد بين الفينة والأخرى وهو يتمشى في الحارات الضيقة والأزقة القديمة، حيث كانت سلمى تقوده، بعد أن تبرعت بالقيام بدور الدليل السياحيّ لهذا الإسباني الأشقر الوسيم الذي يبدو فنانًا مرهف الإحساس، بخجله الفطريّ والكاميرا المعلقة في رقبته.

وصل لوكاس إلى حلب تلبية لدعوة تلقاها من شركة جديدة لتجارة صابون الغار المشهور الذي يعرف عالميًا بصابون حلب. الشركة تتألف من صديقة سلمى المقرّبة جيهان نقاش وأخيها جورج وصديق له، وتعمل على تصدير صابون الغار الأصلي وبضعة منتجات تقليدية أخرى كالشموع المعطرة والزجاج اليدوي الصنع الذي يسمى (الزجاج المنفوخ Verre souffle) قياسًا بطريقة صنعه، وذلك بعد تغليفها بشكل فني أنيق يظهر قيمتها الحقيقية ويقدمها كتحفة حلبية أصيلة للسوق الغربي.

عندما قررت جيهان أن تطبع كتيّبًا عن الشركة يعرّف بمنتجاتها لتوزيعه في الأسواق الخارجية، أرادت أن تخرجه بأبهى وأفخر حلة ممكنة، أرادته قطعة فنية جميلة تلامس القلوب قبل العيون، وعليه طال بحثها عن فنان محترف ليقوم بالتقاط الصور، حتى دلّتها صديقة فرنسية على المصور الإسباني الموهوب لوكاس أورتيز.

كانت فكرة لوكاس المسبقة عن حلب أنها مدينة بعيدة موغلة في القدم وعريقة، لكنه بعد أن تلقى ذلك العرض، وقام بجولة بحث عبر الإنترنت عرف أنها أقدم مدينة في التاريخ، تعمّر حوالي اثني عشر ألف عام مرت عليها وهي مأهولة بكثير من الحضارات التي تناوبت على منحها آثارها العمرانية الجميلة وتقاليدها العريقة وثقافتها المميزة من علم وفن، أدب وموسيقا ساحرة.

تحمّس لوكاس للرحلة أكثر عندما قرأ أن حلب القديمة قد أدرجت ضمن قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي في العام 1986، نفس العام الذي أدرجت فيه توليدو في نفس القائمة، وأيقن أنه لن يصوّر الصابون فقط خلال تلك الزيارة، إذ أن وليمة فاخرة من الحارات والقصور القديمة، المساجد والكنائس والتكيّات والخانات، وغيرها

من التفاصيل الأخرى تصطف بانتظاره على مائدة طويلة تمتد على طول التاريخ الذي بدأ منذ اثني عشر ألف عام ولم ينته حتى الآن.

أرسل لوكاس موافقته وهو يشعر بإثارة لم يشعر بها إلا فيما قلّ من رحلاته على مرّ السنوات، ولم يكن يدري يومها أن حبًا كبيرًا يختبئ له بين تلك الأحجار القديمة هناك، ومن خلفه أفق يلوح بحزن كبير.

سلمى كانت قد احتفلت منذ أيام بالذكرى الثالثة لافتتاح معرضها الأنيق في حي الجديّدة المأهول بالسيّاح لتواجده في حلب القديمة وقربه من ساحة الحطب وما يحيط بها من مطاعم وفنادق تراثية، حيث تعرضُ قطعًا نادرة من السجاد والبسط، إلى جانب صابون الغار والشموع المعطرة والتحف التقليدية التي تميز مدينة حلب، مع ركن صغير يفوح بشذا بعض البهارات الشهيرة، وبعض الخلطات العطرية والعقاقير الطبية التي تعلمت فن إعدادها على أيدي أصدقاء جدها وزملائه في المهنة، هناك في قلب سوق العطارين في المْدينة.

جيهان، شريكتها في المعرض وشبيهتها في الشغف، هي سليلة عائلة عريقة حلبية الروح، رغم الدم النمساوي الممزوج بالدم الحلبي في عروقها. أحد أجداد أمها «جوزيف لوكاس» كان من التجار النمساويين الكبار الذين استوطنوا حلب في أوائل القرن التاسع عشر، مقيمًا في دار جميلة تعد من أروع وأهم الخانات الحلبية، إذ عرفت كمقر لقنصلية البندقية في القرن السادس عشر والسابع عشر.

ورثت أم جيهان عن أبيها رودولف، القنصل الفخري لإحدى الدول الأوروبية، والذي كان أحد أهم مؤسسي جمعية العاديات، تلك الدار الأثرية الجميلة التي ستقضي عليها الحرب لاحقًا، بما تحويه من تحف ثمينة وأرشيف نادر ضخم يخص عائلتها وعدد من كبرى العائلات الأجنبية التي استوطنت حلب خلال القرنين الماضيين.

كما ضمت التركة أيضًا ورشة جدها هاوي التصوير الذي كان أول من اقتنى آلة تصوير بحلب، وقد ترك لورثته «النيجاتيف» والألواح الزجاجية السلبية لمجموعة نادرة من الصور الملتقطة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين.

تلك الورشة بأدواتها وآلاتها العتيقة، وصورها التي ظُهِّر الكثير منها مؤخرًا، بدت للوكاس كمغارة علي بابا التي ضمت أندر وأثمن الكنوز، وأهمها آلة التصوير الضخمة ماركة (Voigtlander 1863).

ورغم أن كل تفاصيل الدار التي زارها برفقة سلمى وجيهان خلبت لبّه، إلا أنه شعر أن ورشة التصوير القديمة تلك فيها من السحر ما يخاطبه وحده، بلغة مختلفة لا يمكن أن يفهمها أحد، إلا روحه.

كانت جيهان قد خططت أن يتم تصوير المنتجات من صابون وشموع وأوعية زجاجية ملونة في تلك الدار، مستفيدة منها كخلفية جميلة للصور، الفكرة التي رحب بها لوكاس، رغم أنها كلفته جهدًا مضاعفًا في تصميم وإخراج اللقطات، إذ خشي أن تطغى فخامة الخلفية على موضوع الصورة الأساس.

استمر التصوير ثلاثة أيام، أبدع فيها الفنان الإسباني بالتقاط أروع الصور من أجل كتيّب الشركة، إلى جانب مجموعة أخرى من اللقطات، اغتنمها لأرشيفه السري الخاص.

حجزت له جيهان جناحًا في فندق تراثي جميل اسمه «دار زمريّا»، يقع في حي الجديّدة على بعد أمتار من معرض سلمى، التي لم تكتف بأداء مهمتها كدليل سياحي، بل تجاوزتها لتقديم خدمات أخرى للضيف مثل تسليته ومرافقته للتبضع والإشراف على إقامته في الفندق والخروج معه للعشاء مساءً.

أولى المعلومات التاريخية التي قدمتها سلمى لضيفها، كانت عن

تلك الدور الجميلة التي يضمها الفندق الذي أقام فيه. حدثته كيف استُحدثت في واحدة منها أول مطبعة عربية في الشرق، بداية القرن الثامن عشر على يد الشماس الحلبي عبد الله زاخر، وكيف عكف هذا الفيلسوف واللاهوتي في هذه الدار على صنع الحروف الأولى التي استعملت في طباعة كتاب المزامير ومن ثم الإنجيل وكتاب المعري وغيرها، قبل أن تُنقل المطبعة إلى دير الخنشارة في لبنان.

- وماذا تعني كلمة «زمرّيا»؟

- زمرّيا هو اسم آخر عائلة امتلكت وسكنت الدار الرئيسة قبل أن تتحول إلى فندق.

الضيف الذي افتتن بمضيفته، مدّد إقامته على حسابه الخاص بعد انتهاء العمل، فهو لم يكتفِ بعد من هذه المدينة ولا من ناسها، ولمس في سلمى لغزًا جميلًا، كل ما حوله كان يحثه على حلَه.

هذه الفتاة التي واجهته بابتسامتها الغامضة وأفكارها الجريئة، لم تكن تشبه غيرها من الفتيات، وقد عرف، منذ الأيام الأولى للقائه بها، أنه أمام امرأة سيكون لها شأن مهمًا في حياته، الشعور الذي لم يشعر به قبلًا عند تعرفه إلى أية فتاة أخرى.

لوكاس عرف كثير من الفتيات خلال آخر ثلاث سنوات، أقام العديد من العلاقات العابرة بعد ولادة مانويل ودخول لولا في اكتئابها الطويل الذي رسّخه اكتشافها أن خطتها جاءت بمفعول عكسي، فلم تقرّب ولادة الطفل لوكاس منها، ولم تجعل منهما عائلة مثالية سعيدة، بل على العكس تمامًا، أبعدته أكثر، فصار غائبًا عنها بجسده أيضًا بعد أن كانت تعاني من غيابه بالروح.

مانويل كان طفلًا فاتنًا، أحبه لوكاس ووقع تحت سيطرته فلم يقوَ على الانفصال الرسمي عن أمه في السنة الأولى من حياته، لكن لولا،

هي من بدأت بالانفصال قبل حلول السنة الثانية، الانفصال عن الواقع وناسه وتفاصيله، للعيش في عالمها السوريالي الخاص، إذ عادت وبقوة لتعاطي المخدرات على اختلاف أنواعها.

للعودة إلى العمل الذي انقطعت عنه خلال فترة الحمل وما بعد الولادة، كان عليها بذل جهد إضافي، خصوصًا وقد بلغت السادسة والعشرين وهي سن تعتبر متقدمة نوعًا ما بالنسبة لعارضة أزياء. لكن لولا لم تفعل شيئًا، بل قبعت في المنزل في انتظار أن تأتيها العروض التي لم تأت، وفي انتظار عودة لوكاس الذي لم يعد.

أُهْمِلَ مانويل تحت وطأة ضياع أمه في متاهة المخدرات، فاستعان لوكاس إلى جانب المربية بإستير، التي لبّته فترة من الزمن قررت بعدها بالتشاور مع زوجها طبيب الأطفال رافاييل أورتيز، أن هذه الأم المدمنة لم تعد صالحة لحضانة الطفل.

طلب الزوجان من لولا التخلي عن الطفل لصالحهما ولو لفترة من الزمن، ريثما تتعالج وتتعافى، لكنها رفضت بشراسة مدعية أنها على ما يرام، وطردت إستير ووالمربية من بيتها.

قبل أن يبلغ مانويل عامه الأول بخمسة أيام، تلقى لوكاس مكالمة هاتفية من جيرانه تفيد أنهم يسمعون بكاء الطفل منذ حوالي الساعتين، وأنهم قرعوا باب الشقة للاستفسار من دون أن يفتح لهم أحد علمًا أن سيارة لولا (التي لا ترد على هاتفها أيضًا) موجودة في المرآب أسفل المنزل. لحسن الحظ أن لوكاس كان في هذه الأثناء في سيارته عائدًا إلى بيته من مطار مدريد بعد رحلة عمل استغرقت بضعة أيام، وحين وصل أخيرًا فوجئ بلولا نائمة على أرض الحمام، وبجانبها مانويل بشفاه زرقاء ومرتجفة يبكي بأنين متعب مبحوح، ويحاول الخروج من مياه المغطس وهو يكاد يتجمد من البرد.

في الصباح التالي توجه لوكاس إلى مكتب محاميه، فتقدم عنه بدعوى لنزع حضانة الطفل مانويل من أمه المدعوة ماريا دولوريس لصالح أبيه، ولم يعد للعيش في تلك الشقة التي سكنها لسنوات مع لولا أبدًا.

# الشمعة الثانية

أسمع صوت بكائه يأتي من جهة لا أستطيع تحديدها، العمال منتشرون في كل أنحاء البيت الجديد منهمكون في أعمال الإصلاح والترميم والديكور ولا يبدو عليهم أنهم يسمعون.

- أين هو؟ سألتهم.

لم يجبني أحد، فصعدت إلى الطابق العلوي حيث صار صوت البكاء أعلى. «هو هنا» قلت لنفسي ومضيت أبحث عنه غرفة إثر غرفة، فتحت باب إحدى الغرف فوجدت لوسيا، متربعة على الأرض بتنورة المدرسة، بطريقة طائشة كشفت عن سروالها الداخلي الأبيض، كانت تحمل مقصًا، تقص به الورود الحمراء من سجادة سلمى، نظرت إليّ عندما فتحت الباب وقالت:

- أنت لا تعرف شيئًا يا لوكاس، هذه الورود يجب أن تقصها هكذا.

- أين مانويل؟

- حسنًا... مانويل يلعب مع أمه على السطح.

صعدتُ إلى السطح قفزًا، خَفُتَ صوت البكاء تدريجيًا حتى اختفى، وهناك على الحافة المواجهة لمبنى «ألكازار» كانت لولا تقف مع سلمى.

- سلمى!!!

صرخت بصوت عال، فالتفتت ولوحت لي:

- لوكاس تعال انظر... بسرعة.

عندما وصلت إليها، أشارت إلى الأفق أمامها، اختفى «ألكازار» من المشهد، وانتصبت مكانه قلعة حلب.

- انظر، القلعة تظهر من هنا، أليس هذا رائعًا؟

كانت تبتسم بظرف، وتبدو جميلة جدًا، اقتربت منها، وطوقت خصرها بذراعي، فشعرتُ بلذة دافئة وسلام كبير.

- أنا أحبكِ.

همستُ في أذنها. ثم طبعتُ قبلة صغيرة على صدغها.

فجأة، سمعت لولا تصرخ من خلفي:

- أين أخذت ابني؟

قبل أن ألتفت إليها، كانت قد دفعت سلمى من حافة السطح، فهوت إلى الأسفل وارتطمت بالأرض بعنفٍ كسر جسدها إلى نصفين.

- عليها أن تلقى مصيري نفسه. قالت لولا.

هرولت نازلًا إليها، بدت الطريق طويلة جدًا، ضعت في الممرات وتعثرت على السلالم، وقبل أن أصل لمحت وعاءً زجاجيًا كبيرًا في باحة البيت، تغوص في مياهه المثلجة جثة زرقاء متجمدة لطفل رضيع، أخرجته بسرعة ونظرت إلى وجهه، فإذا به مانويل.

توليدو 10/ 06/ 2007

# حلب 2

- حظك رائع، نحن مدعوان هذه الليلة لسهرة طرب شرقي من الطراز الرفيع.

قالت له سلمى عندما مرت عليه في الفندق صباحًا لتشاركه قهوته قبل أن تذهب إلى معرضها.

- أنا مدعو أيضًا؟ من الذي دعاني؟

ابتسمت بخبث من يبيت نيّة ما، وقالت:

- حسنًا، هو دعاني أنا، وأنا أدعوك.

اصطحبته تلك الليلة إلى دار شمس الدين في باب قنسرين لحضور الحفل الذي دعيت إليه وفقًا لعادةٍ لم تنقطع منذ ثمانِ سنوات.

مشى خلفها كالمسحور في أزقة قديمة غارقة في الليل والسكون، مأخوذًا بالمشهد العابق بأنفاس التاريخ التي شعر بها تداعب وجهه ووجدانه، فحبس أنفاسه، وغطس في بحر مشحون بالغموض والإثارة.

عندما وصلا، عرّفته إلى شمس بعد أن صافحته بوجل متقطعة الأنفاس، فاجأته نعومة الأنثى في همسة صوتها الذي عرفه قويًا واثقًا، ولمح الألق الغريب الذي ومض في عينيها، والتورد السريع الذي اجتاح وجنتيها، وتردد خطواتها وانكسار نظراتها، حتى بدت كلبؤة تستكين في حضرة أسدها.

من خلال ما رآه، خامره شك بأن سيلڤيو شمس الدين كارلوني، هو ذلك الرجل الذي تحبه ويهرب منها.

في تلك الليلة العجيبة التي بدت للوكاس كصفحة هاربة من كتاب ألف ليلة وليلة، قبع هادئًا بجوار سلمى عالقًا بين السطور ومذهولًا بالصور، يحاول حل أحاجي هذه المدينة الغريبة التي تمثلت في غرابة تنوع أبنائها.

فمنهم من كان شيخًا يعتمر العمامة ويتدثر بعباءة تقليدية مُقصّبة الحواشي، ومنهم من يتحدث الفرنسية بلهجة أبنائها ويتباهى بأناقته الأوروبية التي تنافس نجوم الغرب.

ومنهم من يطقطق سبحة العنبر بين أصابعٍ زُيّن خنصرها بخاتم ذي حجر نفيس، بينما يكرع بين حين وآخر الويسكي أو العرق من فنجان شاي!

- يفعلون هذا للتمويه... واحترامًا لمشاعر المتدينين الذين لا يقربون الكحول.

شرحت له سلمى وزادت من تعجبه، إذ بدا جليًا أن الكل يعرف ما يشرب الكل، واستحسن فكرة أن يحترم شارب الكحول مشاعر المتدين، بينما يغض المتدين البصر (والشم) عما في كأس جاره.

الكل كان منتشيًا بالنغم الجميل، مشدودًا بوجد إلى المطرب العجوز بطربوشه الأحمر وغنائه العذب، الذي يجعل الرجال يتمايلون طربًا، مع النساء المحجبات بوشاح رقيق يغطي الشعر ويبرز سحر الأعين المكحلة بعناية وذوق، جنبًا إلى جنب مع السافرات الساطعات الجمال بفساتينهن القصيرة الأنيقة وشعورهن المصبوغة المنسدلة على الظهور، كنجمات هوليوديات يتألقن على السجادة الحمراء.

- نعم إنه هو.

قالت له في طريق العودة، بعد أن خرجا برأسين مثقلين بنشوة

مُسْكِرة، ووجدانين هائمين في سماوات بعيدة، يتقافزان على الغيوم التي تتناثر حولهما أنغامًا جميلة وغناءً ساحرًا، لم يقلل من تأثيره اللغة المبهمة التي لم يفهم منها لوكاس إلا ما تفضّلت سلمى وترجمته له من جملة أو اثنتين.

«زدني بفرطِ الحُبِّ فيكَ تحيُّرًا... وارحمْ حشىً بلظى هواكَ تسعَّرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة... فاسمح، ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلب أنت وعدتني في حبهم... صبرًا، فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرامَ هو الحياةَ فَمُتْ به... صبًا، فحقك أن تموت وتُعذَرا»[1].

- نظريًا... هو الذي أحبه ويهرب مني... ولكن فعليًا... لا أدري إن كنت أحبه، ولا أدري لمَ يهرب مني!

(1) قصيدة من نظم ابن الفارض - شاعر صوفي (1181 - 1334)

# نصف الحقيقة

عندما صارحتُ شمس الدين بحبي في تلك الجلسة القديمة، كنت واثقة من نفسي وأعرف تمامًا ما أريد. أما عندما عدتُ حسب الاتفاق للقائه بعد سنتين، فقد شعرت أنني مشوشة كليًا، لا أفقه حقيقة مشاعري ولا أملك أي يقين أستند إليه.

خلال تلك السنتين، وبتحريض من كلمات جلال الدين الرومي التي أضاءت كثيرًا من الزوايا المعتمة في وجداني، تعمّقت في غياهب كثير من المفاهيم التي تعودت أن أعيشها قبلًا كما هي كأساليب جاهزة وقوالب مسبقة الصنع للحياة.

الحب كان من أهم تلك المفاهيم، حيث حلّلتُ مشاعري تجاه شمس في مخبر الأفكار التي استقيتها من قراءاتي المتنوعة، من كتب فلسفة وعلم نفس وروايات تحولت إليها عندما أنهيت قراءة المثنوي.

حلّلتُ أيضًا علاقة والديّ في ذلك المختبر، وكل علاقات الحب التي عاصرتها وسمعت بها، في سعي حثيث مني لمعرفة ما هو الحب.

أول حقيقة توصلتُ إليها أنه لا وجود لحقيقة كاملة، وأنه من شبه المستحيل إدراك اليقين، وعلى ضوء ذلك، اختبرتُ نشوة إدراك نصف الحقيقة، وعذاب التوق إلى إدراك نصفها الآخر، عذاب يبيح التحسر على نعمة ظلام الجهل، التي تهرول هاربة عند أول بصيص نور يتسلل إلى الوجدان عند فتح الكتاب، الكتاب الذي هو أشبه بنافذة تفتح في الدماغ.

«كل من يكون أكثر يقظة يكون أكثر ألمًا، وكل من هو أكثر وعيًا يكون أكثر شحوبًا»

/ مثنوي - الرومي/

أدركتُ أن المعرفة هي طريق باتجاه واحد، لا مجال فيه للتراجع أو الانسحاب، فمجرد أن تدرك الروح حقيقة ما، تلازمها تلك الحقيقة طوال الحياة، ما لم تصب بالألزهايمر.

وصلتُ إلى نصف حقيقة مفادها أنني لا أحب شمس الدين، لأن الحب ما هو إلا خرافة من اختراع العقل البشري. ويعذبني توقي لمعرفة النصف الآخر من الحقيقة: لماذا يسكن هذا الرجل كياني وأريده أكثر من أي شيء آخر في الحياة؟!

أدرك أنني أخدع نفسي إذ ألاحق خيالًا غير حقيقي، لكنني لم أكن أستطيع التوقف عن ذلك.

«الطائر محلق في الأعالي، وظله منعكس على الأرض، يسرع طائرًا وكأنه الطائر الحقيقي، ويصبح أحد البلهاء صيادًا لذلك الظل، ويسعى كثيرًا من أجل ألا يظفر بنتيجة».

تلك كانت الجملة التي اقتبستها سلمى من المثنوي، وكتبتها على ورقة وألصقتها على مرآتها، لتتذكر كل صباح، أنها ذلك الصياد الأبله الذي يسعى من أجل ألا يظفر بنتيجة.

ناقشت شمس بكل ذلك عندما التقته بعد سنتين من جلستهما الأولى، أنصت إليها باهتمام وحنان، وقال معقبًا:

- أن تدركي نصف الحقيقة قبل أن تدركي نصف عمرك لأمر جيد جدًا، لا تستعجلي، العمر سيمضي رويدًا رويدًا، والمعرفة بحر كبير، لن تستطيعي شربه كله ولو عشت مئات الأعوام.

لم يتحدث أكثر، إنما أعطاها موعدًا جديدًا، بعد عامين آخرين.

عامان بعد عامين بعد عامين، حتى انصرمت تسع سنوات منذ أن أحبته وحتى التقت بلوكاس، تسع سنوات وهي تدور في نفس الحلقة، لا تعرف إن كانت تحبه، لكنها تعرف أنها تريده.

لم تترهبن سلمى في دير غرامها المبهم الملامح ذاك، بل تحدّته وتحدّت عجزها عن الانعتاق منه ودخلت في كثير من العلاقات خلال تلك السنوات. شعرت بالانجذاب تجاه عدد من الشبان، خرجت مع بعضهم لبضعة أشهر، واختبرت شيئًا من الجنس مع بعضهم الآخر، وهي تتمنى في قرارة نفسها أن تحصل معجزة في لحظة ما، لتجد أن من ينتظرها في السيارة تحت المنزل هو شمس، ولا أحد غيره من الرجال. لكن المعجزة لم تحدث، ولم تجد شمسًا في أي من تلك السيارات الكثيرة التي وقفت في انتظارها تحت منزلها، والتي ركبتها صاغرة بالرغم من ذلك.

تعددت العلاقات، ولكن ما إن كانت أية واحدة منها تبدأ بالتبلور، حتى تصاب بنكسة تدمرها، من دون سبب واضح وصريح.

العلاقة الأطول عاشتها مع زياد، فاستمرت ستة أشهر، وانتهت على غير المعتاد، بقرار منه هو.

أنفق زياد سنتين من عمره ملاحقًا سلمى في شوارع المدينة، كانت تجده في كل مقهى تجلس فيه، وفي كل مطعم تسهر فيه، وفي كل شارع تتسوق من دكاكينه، حتى أنه انتسب إلى جمعية العاديات مثلها، وصار يداوم على المشاركة في كل النشاطات والجولات داخل وخارج حلب.

لم يخفَ اهتمامه عن سلمى التي وجدت الأمر مسليًا، لكنه عندما طلب رؤيتها على انفراد، شعرت بثقل في قلبها ككل مرة يصارحها شاب فيها بإعجابه، وعندما فعل زياد ذلك، لم تصدّه مباشرة، بل

أجّلت الموضوع لفترة أسبوع، خرجت معه خلاله عدة مرات، كل لحظة فيها كانت تزيد من وطأة الثقل في قلبها، حتى صارحته أخيرًا بأنها غير مستعدة للمضي معه في هذه العلاقة.

الشاب، المعتد بنفسه حتى الغرور، شعر بجرح بليغ، واعتبر الموضوع إهانة شخصية لم يسامحها عليها حتى بعد أن عادت واتصلت به بنفسها بعد ثلاثة أشهر.

قررت سلمى أن تتجاهل أثقال قلبها بحزم، وأن تتوقف عن الحلم بذلك الطائر في السماء عبر مطاردة ظله على الأرض، شعرت لوهلة خاطفة من الزمن، أنها تريد الظفر بنتيجة، أية نتيجة.

التقاها زياد بحذر، لكنه لم يقاوم الوميض الدافئ لعينيها الواسعتين عندما قالت له:

- إذا كنت ما زلت راغبًا في المحاولة، فأنا أشعر الآن أنني مستعدة للتجربة.

- تجربة؟

- ماذا تريد أن تسميها؟

- حسنًا... لن نختلف على الاسم، لكنني أريد جوابًا!

- عن؟

- ما الذي اختلف خلال هذه الأشهر الثلاثة حتى صرت مستعدة؟

- لن أستطيع أن أشفي غليلك للأسف... كل ما أعرفه أنني كنت متوترة وغير مستعدة للخوض في علاقة... الآن أشعر أنني أكثر استرخاء... وأشعر أنني أريد الدخول في هذه العلاقة بالذات، معك أنت بالذات.

وكانت تكذب نوعًا ما، إذ كانت في الحقيقة راغبة بالدخول في أية علاقة، ومع أي كان.

ودّعها يومها من دون أن يبوح بما في ذهنه، لم يعلّق على طرحها لا بالرفض ولا بالإيجاب، فقط وعدها أن يتصل بها قريبًا، وتركها تغادر وحدها، ثم تركها تنتظر مدة أسبوع ردًا منه لاعتباره، قبل أن يتصل معربًا عن رغبته في رؤيتها.

في تلك الليلة، أهداها سوارًا مرصعًا بالألماس، ودعاها إلى عشاء عرّفها فيه إلى أصدقائه، عادت بعده سلمى إلى بيتها مع شعور طفيف بالرضى، وتجاهل كامل لقلب بدا وكأنه قد كف عن الخفقان.

ستة أشهر، أبلت فيها سلمى بلاء حسنًا حتى خيّل إليها أنها ربما قد أحبت هذا الرجل الذي يغدق عليها الهدايا ويصطحبها إلى سهرات ممتعة ورحلات مسلية، رغم أنها لم تنقطع عن الذهاب إلى حفلات شمس، ولم تتوقف عن النحيب إثر كل حفلة.

رغبت سلمى بأن تتمادى في تلك العلاقة بغير رجوع، عرّفها زياد إلى أهله، وزار والديها بشكل شبه رسمي وذاع الخبر في المدينة أنهما على خطوة وشيكة من إعلان الخطوبة الرسمية والزواج. استسلمت لما سمّته القدر، وتقربتْ من زياد لدرجة أن سلمته مصيرها وخطط مستقبلها وجسدها.

لكن القدر لم يكن بالوضوح الذي تخيّلته سلمى عندما استسلمت له، إذ بدأت تصرفات الشاب تتغير منذ تلك المرحلة بالذات، كأن استرخاءها أجج قلقه وتوتره، وأضرم في روحه نارًا مبهمة لم يعرف كيف يطفئها.

عرف من دون الكثير من البحث أن غيرته الشرقية صحت فجأة منذ أن أعلنت له سلمى حبها وممارسته معه. خاف أن يعترف لها أو حتى لنفسه، كي لا يدمر صورة الرجل المثقف العصري التي اعتمدها

عنوانًا له. عاش أيامًا صعبة، إذ كان يعرف أنه يعشقها لكنه لم يسامح تحررها الذي طالما سمع الناس يتهامسون عنه، لم يتحمل فظاظة حضوره عندما التقاه وجهًا لوجه. أراد أن يناقشها في علاقاتها السابقة ويسمع منها تفاصيلها، لكنه جبن، رغب بأن يطلب منها أن تحتشم في انتقاء ملابسها، ولم يجرؤ، كل ما فيه لم يعد مرتاحًا ولا سعيدًا. حتى صارت له هيئة شخص مريض. وعندما حيّرتها تصرفاته، طلبت منه تفسيرًا لم يقو على إعطائه، طلبت منه حلًا ففاجأها وطلب الانفصال.

عرف زياد بعد انفصاله عن سلمى تحولًا جذريًا في شخصيته، وغرق في كآبة غريبة صارت تدفعه للمداومة على كباريهات شارع «بارون» و«بستان كل آب»، فأدمن السهر والشراب وصحبة المومسات لفترة غير قصيرة من الزمن، قضتها سلمى في ذهول أليم متسائلة عن الغلطة التي اقترفتها وتسببت في تدمير سعادة ذلك الإنسان الذي طالما عشقها وطارد ظلها، ثم ما لبثت أن نفضت ذلك عنها لتعود لمتابعة ذلك الطائر الذي اشتاقت بدورها إلى مطاردة ظله.

ذات لقاء من لقاءات كل سنتين، قال لها شمس:

- أنت تتعمدين لا شعوريًا ألا تظفري بنتيجة، وإذا كانت النتيجة هنا هي الحصول على علاقة حقيقية مع رجل، فمن الواضح أنك تتجنبين الحصول على هذه العلاقة. أنت في الحقيقة تهربين من الحب أكثر مما تسعين إليه.

- ربما لأنني أدركت أن الحب هو مجرد سراب؟!

- أو لأنك تفضلين التحليق في حرية السراب على الوقوع في أسر الحب.

- أوليس رهن الذات للسراب أسرًا بحدّ ذاته؟

- نعم، لكنه أسرٌ بقيود من هواء، أما قيود العلاقة الحقيقية، فهي من حديد.

- فالحقيقة إذن إنني ذلك الصياد «الذي يسعى كثيرًا من أجل ألا يظفر بنتيجة»، لأن النتيجة تقيّده!

- لا تنسي أن هذه هي نصف الحقيقة، النصف الآخر ما زال في علم الغيب.

# العَطّارة

## -1-

عندما التقت لوكاس ذلك الصباح الربيعي في دكانها في «الجديّدة»، كانت تبدو بأعوامها السبعة والعشرين امرأة مكتملة الشخصية صارخة الجمال والأنوثة. تجارتها الصغيرة التي استحدثتها منذ سنوات ومارستها في هذا الدكان العتيق، صارت عاملًا مهمًا في استقرار جزء من كيانها، إذ كانت تستمتع بكل دقيقة تقضيها في المعرض محاطة بالطنافس والسجاد والشموع الملونة، منتعشة باستنشاق شذى الغار والتوابل الذي يتضوع من الركن الصغير المخصص لها في خاصرة الدكان، ومنتشية بالموسيقا الشرقية التي تسبح في فضائه وتملؤه بتقاسيم قانون شمس الدين.

لذتها الكبرى تجلّت في تعاملها مع زبائنها، وهم عمومًا من الأجانب مع بعض المواطنين الهواة للتحف النادرة التي كانت تحرص سلمى على اقتنائها وعرضها في دكانها.

كانت تجود في شرحها لهم عن تاريخ وقصة كل قطعة مهما صغر شأنها، شمعة كانت أم بساطًا أو صابونة غار، وتستلذ برؤيتهم ينصتون بدهشة فاغري الأفواه لامعي العيون، مأخوذين بالحديث وبالمتحدثة، التي بدت لهم ككاهنة عصرية تخدم في معبد التاريخ الحلبي المثير، في جو مهيب أشبه بهيكل تزينه الشموع ويعبق بالمسك والبخور.

ركن العِطارة التقليدية الذي اجتذب سكان المدينة، صار أشبه بصيدلية أو مركز تجميل، وقد استهلكت الكثير من الساعات لإعداد قواريره الأنيقة التي كانت تصنع مستحضراتها وعقاقيرها في البيت.

لطالما سهرت حتى طلوع الفجر تمارس طقوسها السرية بخشوع، وتتلذذ بها بهدوءٍ ارتشافِ كأس نبيذ. تنقع أوراق الزيتون وأعواد الكرز، تقطّر الياسمين والختمّية وأوراق الورد، تطحن حبة البركة وحبوب حشيشة القريص، تستخلص أعشاب «الشق-شقيق» والصعتر البري، تسحق أزهار البرتقال والليمون وتجفف القشور، وتمزج القرنقل بالقرفه، وتستحلب اليانسون وقشر الرمان، وتنقط زيت اللوز والصبار على رحيق البابونج، لتحصل على محاليل ملونة تصبها في قواريرها الزجاجية الجميلة، قبل أن تغلقها بإحكام بقطع من الفلين تحفظ عبقها وسرها، ثم تربطها بخيط من القنب يحمل بطاقة من الكرتون البني، كتبت عليها بخط عربي جميل: للسكري، للصداع، للسعال، للسمنة، لتساقط الشعر، لجفاف البشرة، للأرق...وللصبر!

«لم أكن أهوى خداع الناس، ولكنني أؤمن أن الناس هي من تخترع شفاءها».

عندما دخل لوكاس المعرض، واستمتع بالإصغاء إلى كلمات صاحبته وعينيها، واتته الرغبة بأن يشتري كل شيء، لكنه اختار مبدئيًا بضعة قطع نحاسية قديمة، وبضعة أوانٍ من الزجاج، وسجادتين صغيرتين.

- أنا أؤسس بيتًا جديدًا في توليدو سأنتقل إليه قريبًا حالما تنتهي أعمال التجديد والديكور، وأظن أن هذه التحف ستبدو رائعة عندما سأعرضها في مكان مميز فيه.

قال للبائعة الجميلة التي تعرّف إليها لتوه، عندما اصطحبته جيهان في أول صباح له في حلب إلى معرضها المجاور للفندق الذي حجزت له فيه.

- أحب أن أعرّفك إلى صديقتي وشريكتي، لـقد وعَدَتْ أن تساعدنا

في موضوع التصوير وإعداد الكتالوغ، وقد تتفرغ لك إن أسعدك الحظ لتأخذك في جولات سياحية في المدينة، فهي تملك خبرة رائعة.

قالت له جيهان قبل أن يدخلا معًا إلى دكان سلمى.

عندما التقى لوكاس جيهان، وجد فيها نموذجًا عصريًا مفاجئًا للمرأة الحلبية، وأسعدته المفاجأة، لكنه عندما التقى سلمى، وجد فيها نموذجًا ساحرًا، وأسكره ذلك السحر من الجرعة الأولى.

- سأتركك تتفرج على تحف سلمى، وسأعود بعد نصف ساعة لأصطحبكما للغداء... اتفقنا... باي.

وقف صامتًا مندهشًا أمام صديقتها الساحرة، فبادرته بثقة:

- إذا أعطيتني فكرة عن الألوان الأساسية الغالبة على ديكور بيتك الجديد، أستطيع أن أساعدك باختيار قطع مناسبة إن أحببت.

قالت له عارضة المساعدة، بلغة إنجليزية سليمة تفوّقت بمراحل على لغته الركيكة، فأجاب على الفور:

- بالتأكيد... أحب هذا طبعًا.

أخرج بحماس آلة تصوير أخرى من حقيبته، فتح شاشة العرض وأجرى عدة لمسات، ثم قربها إليها قائلًا:

- هذه كاميرا حديثة ديجيتال، ليست بدقة الأخرى لكنها جيدة للاحتفاظ بالصور... انظري إذا سمحت، هذا هو البيت حاليًا، تنقصه بعض أعمال التشطيب ليصبح جاهزًا للسكن خلال أقل من شهر.

أخذت سلمى الكاميرا منه، قلّبت الصور وتفرّجت عليها مبهورة بالبيت البديع، واحتارت أية نصيحة ستقدم له بعد ذلك. حتى طالعتها فجأة صورة طفل جميل يبتسم بظرف، كاشفًا عن أسنان صغيرة، ومادًا يدًا غضةً باتجاه العدسة.

عندما رقّت نظرتها المنبهرة فجأة واسترخى حاجباها وابتسمت بدورها، ألقى لوكاس نظرة على الشاشة الصغيرة، ثم قال:

- هذا مانويل، ابني.

- يا للطفل الجميل.

- شكرًا.

رفعت نظرها لتتفرس في وجهه قبل أن تقول:

- يشبهك كثيرًا.

ابتسم لوكاس بخجل، وقال متلعثمًا:

- نعم، لكنه يشبه أمه أكثر.

استمرت تلك النظرات القوية متمركزة في وجهه، بمرافقة ابتسامة صغيرة من طرف الشفتين الجميلتين اللتين قالتا أخيرًا.

- جميلة إذن هي زوجتك، صحيح؟

أخذ لوكاس نفسًا طويلًا كطفل يعد نفسه للغناء في حفلة المدرسة، ثم أجاب:

- هي جميلة نعم، لكنها ليست زوجتي.

ارتفع حاجباها قليلًا وازداد لمعان عينيها:

- آه... فهمت.

لم يعرف ماذا فهمت بالتحديد، فتابع شرحه ليوضح لها أكثر:

- كانت حبيبتي، لكننا منفصلان منذ مدة.

- أنا آسفة... من أجل مانويل على الأقل.

- شكرًا لرقتك.

- أنا آسفة لفضولي ولكن هل سيعيش مانويل معك في البيت الجديد؟

- مانويل سيعيش مع أمي في سانتاندير، شمال إسبانيا.

- وأمه؟

ارتبك لوكاس وتلعثم ثانية، لم يستحسن أن يقول لها إنه رفع قضية نزع الحضانة من الأم المدمنة، وإن الحكم فيها قد يصدر في أية لحظة لصالح أمه طبعًا، حسبما أكد له المحامي.

- أعذرني أنا آسفة لقلة ذوقي، لقد تماديت في الفضول، أليس كذلك؟

قالت بحرج ظهر واضحًا على سحنتها، فاكتست لونًا ورديًا خلابًا. ابتسم لها مشجعًا وقال:

- لا عليك، لا بأس، هي قصة معقّدة، سأقصها عليك كاملة إذا سنحت الفرصة.

- أتمنى ذلك، إذا كنت ترغب طبعًا.

اتسعت ابتسامته وشعر بالتورّد نفسه يجتاح وجنتيه، حتى قال بصوت خافت:

- أرغب بالتأكيد.

- حسنًا... لنعد إلى موضوع البيت.

- ماذا تقترحين؟

- بما أنه يومك الأول هنا، أقترح أن تدعني أفكر قليلًا، لأختار لك من مجموعتي الأخرى قطعًا أجمل.

- هل هناك مجموعة أخرى؟

ظهرت الابتسامة الصغيرة ثانية:

- هناك عدة مجموعات، تختلف باختلاف الزبائن.

- وأي نوع من الزبائن أبدو لك إذن؟

- سنرى... ما زلت في اليوم الأول!

- وكم من الوقت يلزمك لتقرري؟

- الوقت المناسب.

في انتظار حلول ذلك الوقت المناسب، كان على لوكاس أن يمدّد إقامته في حلب لمدة أسبوعين، بحجة أنه لم يكتف بعد من التقاط الصور لهذه المدينة الخلابة، والحقيقة أنه لم يكتف بعد من تلك الابتسامة الصغيرة التي بقي ينتظرها بفارغ الصبر لكي تكبر.

بعد أن انتهى من تصوير منتجات شركة جيهان في ذلك الخان النفيس، دعت جيهان وشركاؤها لوكاس وسلمى إلى عشاء في نادي حلب احتفالًا بالمناسبة، حيث صادفوا سيلفيو شمس الدين كارلوني يتعشى مع مجموعة من خمسة أشخاص، أحدهم «حسنا» الجزائرية وكانت تجلس إلى جواره.

لوكاس لم يكن قد التقى شمس بعد، فشعر بتغيّر سحنة سلمى ومزاجها، وعرف أن مصدر الذبذبات السلبية التي شوشتها هو تلك الطاولة التي أدارت رقبتها إليها تلك الليلة أكثر مما أكلت أو شربت أو تحدثت.

كان قد مضى على لقائهما عشرة أيام، وكانا قد خرجا منفردين لعدة مرات، تحدثا فيها عن أشياء كثيرة تخص حياة كل منهما.

حدّثها لوكاس عن قصته مع لولا كما وعدها، وهي حدثته كيف تركت كلّيتها وتفرّغت لتشكيل مجموعتها المميّزة من القطع الأثرية التقليدية التي بحثت عنها في أماكن شتى والتقطتها بعناية قطعة بعد أخرى، حتى خطر لها استعمالها لاستحداث مهنة تشغل بها وقتها وتضعها في احتكاك مع أناس لهم نفس اهتماماتها، لتحكي لهم وتقصّ عليهم وتبيعهم في النهاية قصصًا قديمة جميلة تخطف الأنفاس مع كل قطعة يشترونها.

عندما أراد أن يعرف إن كانت مرتبطة، احتارت كيف تجيبه، فهي

نظريًا ورسميًا لم تكن كذلك، أما فعليًا فقد كانت أكثر من ذلك، كانت مكبّلة.

- حب من طرف واحد؟

- يجرح كبريائي أن أجيب بنعم، أفضل أن أسميه حبًا أخطأ الزمان والمكان.

- أو أخطأ الهدف!

- الهدف يكون صحيحًا إذا وجد في الزمان والمكان المناسبين.

لم تشأ أن تناقشه أكثر، واحتار هو أية خطوة يتخذ باتجاهها، كان يشعر بتجاوبها معه كما لو أنها لا تمانع الدخول في علاقة، في الوقت ذاته، تحدّثه عن حب يكبّلها ولا تستطيع منه فكاكًا، «هذه المرأة الساحرة... ماذا تريد؟».

أما أنا، فقد شعرتُ نحوه بشعور عجيب، شعور يشبه الألفة والتعوّد، أو التوق إلى التعوّد، على هذا الغريب الذي أطل عليّ بعينيه العسليتين المحملتين بحنان كبير.

أحب أن أراه، أن أخرج معه، وأن أتحدث إليه، لكنني أشعر أنه ليس هو حبيب قلبي ولن يكون، فإن كان هو حبيبي، فمن يكون إذن شمس الدين؟

عندما حاول لمسي، لم أنفر من الأمر، واسترخيت بعمق حين تركت أصابعه تنساب بحنان كبير وبطء شديد على بشرتي، أحسست بلذة عبثية، أغمضت عيني ففكّرت بشمسي، وتوقعت أن تجعلني ذكراه أنتفض مبتعدة عن لوكاس، لكنني لم أفعل، بل استسلمت له بشجن حتى بعد أن طفرت الدموع بهدوء من عيني. شعرت بالخيانة، فأراحني الشعور وغصت فيه بعمق، وتأملتُ أن تكون الخيانة حلًا مناسبًا... للنسيان... وللثأر.

لوكاس كان يعرف حين يرى دموعها، «أنها تفكر به»، يقول لنفسه زاجرًا ذاته عن التمادي معها، لكن زجره ذاك لم يكن يجدي نفعًا، إذ كان يشعر بنشوتها واسترخائها ورغبتها بالمزيد. كانت دموعها تطفئه، ثم لا تلبث تنهداتها أن تشعله من جديد، فيعاود التسلل بهدوء وحذر إلى الواحات الأكثر دفئًا، المخبأة في ثنايا ذلك الجسد البديع، وغياهب تلك الروح المتبّلة.

## -2-

بنهاية الأسبوعين اللذين قضاهما لوكاس هائمًا مع كاميرته في أزقة حلب القديمة صباحًا، ومداومًا في معرض سلمى حتى موعد الإغلاق مساءً، كان قد اشترى كمية من التحف أكثر مما يستطيع حمله في حقائبه، ما دفعه لترتيبها ضمن صندوق خاص وشحنها بالبريد إلى توليدو.

اشترى كل ما افتتن به في ذلك المعرض وحصل على بعض الهدايا من سلمى، ما عدا خاتمًا جميلًا من الفضة المعتقة وجده ملقى على مكتبها. لفت نظره النقش الجميل الذي يزيّنه، ويمثل تنّينًا ملتفًا على ذاته وجسده الأسود مزخرف برسوم فيروزية.

– أريد هذا الخاتم!

– ماذا ستفعل به، قياسه صغير ولن تستطيع أن تضعه في إصبعك.

– سأعرضه في واجهة التحف خاصتي!

– آسفة جدًا يا لوكاس، ليس للبيع، هذا خاتمي الشخصي وأنا أحبه كثيرًا.

أخذته منه ووضعته في سبابة يمناها بلؤم، ومضت تتأمله في كفها بتلذذ.

– جميل جدًا... أليس كذلك؟

– ألا تملكين قطعة أخرى لتبيعيني إياها؟

– للأسف لا...

– من أين حصلت عليه؟

رمته بنظرة غامضة أرفقتها بابتسامة أكثر غموضًا، وقالت:

- تريد أن تعرف كل شيء يا لوكاس!

أجابها برقّة وقد ذوبته نظرتها:

- فقط أريد هذا الخاتم.

- فقط؟

- وربما شيئًا آخر.

- بالنسبة للخاتم قد أقصّ عليك قصته يومًا ما، أما بالنسبة للشيء الآخر... فسيكون لنا حديث آخر.

- متى؟

- في الوقت المناسب يا لوكاس... في الوقت المناسب.

آخر قطعة اشتراها قبل أيام من سفره، كانت تلك السجادة التي تحتفظ سلمى بها ضمن أندر مجموعاتها وأثمنها، اختارتها له بنفسها وأفشت إليه بسرها، الذي يكمن في الورود الحمراء المرسومة عليها. ذلك السر الذي همس به في أذنها ذات يوم بعيد «الحاج محمد» صديق جدها، عندما أهداها البساط الصغير الذي يحمل نفس الورود الحمراء مرسومة عليه.

تقول الحكاية القديمة أنّه منذ زمن بعيد، كان يعيش في حلب تاجر غني يملك أكبر دكان للسجاد في سوق المدينة هناك، وكان حائكو السجاد يأتون إليه من كل حدب وصوب عارضين أمامه مصنوعاتهم على أمل أن يشتريها. وقع ذلك التاجر في غرام زوجة أحد هؤلاء الصناع عندما لمحها يومًا مع زوجها في السوق، فصرعته نظرة عينيها الفاتنتين، وأشعل عودها المتناسق اللدن النار في أحشائه. عذّبته رغبته بها ليالٍ كثيرة، حتى قرر الاستحواذ عليها بأية وسيلة، فأرسل رجاله واختطفوها في ليلة حالكة، وحبسوها في دار بعيدة حيث صار التاجر

يزورها كل يوم طالبًا وصالها، في حين كانت تتمنّع عنه بإباء، مهددة إياه بالانتحار إن حاول اغتصابها.

بعد أيام كثيرة على هذا المنوال، اهتدت الحسناء المختطفة إلى خطة تمكنها من إرسال رسائل إلى زوجها تدله على مكانها، فقالت للتاجر إنها مستعدة أن تسلمه نفسها ولكن بعد أن تنتهي من صنع اثنتي عشرة سجادة يبيعها في دكانه. وافق التاجر على الفور وأمر بأن يؤمّن لها رجاله الخيوط المطلوبة والنول الخشبي اللازم لحياكة السجاد. بدأت الفتاة بصنع قطع مرصعة بورود حمراء رسمتها حسب طريقتها الخاصة التي يعرفها زوجها جيدًا، لأنه وقتما كان يعلّمها الحياكة تعودت تكرار ارتكاب خطأ صغير عند قاعدة الوردة. لم يخفَ هذا العيب عن عين زوجها الخبيرة به، إذ كان يوبخها من أجله دائمًا، حتى يئس منها، واعتبر تلك الهفوة طريقة جديدة لرسم الوردة تميز سجاد زوجته عن غيره من السجاد.

عندما بدأ التاجر يعرض ما تحيكه الفتاة من بسط وسجاد في دكانه الكبير الذي كان يتردد زوجها عليه، لفتت الورود الحمراء المعيبة نظره على الفور عندما لمحها ذات يوم، وسأل التاجر ملهوفًا عن مصدر تلك السجادة، فأجابه أنه اشتراها من تاجر عجوز متجول غريب عن حلب.

اشترى الزوج السجادة، فشعر بأنفاس زوجته وروحها تسكن فيها. نام ليلته فوقها، وحلم حلمًا غريبًا، إذ تراءت له زوجته جالسة تحيك السجاد في دار بعيدة مجهولة العنوان.

صار الزوج يتردد يوميًا على دكان خاطف زوجته طالبًا السجاد ذي الورود الحمراء. قام بشراء كل قطعة رآها، حتى جمع عشرة منها، كل واحدة كانت تهديه حلمًا أطول من سابقتها، تظهر فيه زوجته تحيك

السجاد في ذلك البيت الذي بدأت الطريق إليه تتضح خطوة، حلمًا بعد آخر.

شك التاجر بالأمر، وأحسّ أن شراء الرجل سجادات زوجته واحدة تلو الأخرى ليس من قبيل الصدفة فخاف أن يفتضح سره وأن يعرف الزوج أن زوجته مختطفة لديه وهي من تحوك هذا السجاد، فأمر رجاله بعدم إرسال خيوط حمراء إلى الفتاة بعد الآن، كي لا تستطيع ثانية أن ترسم تلك الورود التي يتلمّسها زوجها في كل مرة بافتتان وحنين.

احتارت الزوجة في أمرها، وبقي عليها أن تصنع سجادتين، فأحدثت جرحًا في فخذها، واستعملت دمها لصباغة الخيوط التي سترسم بها الورود الحمراء في السجادتين الأخيرتين.

لم ينتبه التاجر، وقام رجاله كالعادة باستلام السجادة من المرأة وعرضوها في الدكان، حيث التقطها الزوج الحائر وطار بها إلى بيته.

دمها الذي صبغ تلك الورود، أهداه حلمًا واضح التفاصيل جليّ الملامح، عرف منه أن التاجر هو غريمه، وأن الدار التي يحتجز زوجته فيها هي دار قديمة يملكها في شارع ناءٍ في أقصى المدينة، ولكنه عندما وصل إلى هناك، كان الأوان قد فات، إذ وجد زوجته جثة هامدة بعد أن نزفت الكثير من دمائها عبر فخذها الجريح وهي تصنع السجادة الأخيرة، فاستُعملت كفنًا لها.

انتشرت القصة في السوق انتشار النار في الهشيم، وما إن مات الزوج قهرًا وكمدًا بعد فترة وجيزة من موت زوجته، حتى تهافت التجار على شراء السجاد ذي الورود الحمراء عارضين مقابله أثمانًا خيالية، وقد قيل إن السجادة الأصلية المصبوغة بالدم قد اختلطت بالعشر الأخريات ولم يميزها أحد، مما جعل كل مالك يعتقد أن خاصته هي الأصلية. وقيل إن كل واحدة من تلك السجادات الإحدى

عشرة، كانت تملك نفس القوة السحرية التي تهدي النائم فوقها رؤيا مميزة على هيئة حلم غريب، وأصبحت وردة الحسناء الشهيدة علامة فارقة في عالم نقوش السجاد، وصار صانعو السجاد يقلدونها في صناعاتهم لازدياد الطلب عليها.

- هل هذه أسطورة؟

- ربما هي أسطورة، وقد تكون حكاية من اختلاق الحاج محمد، فقد سمعتها مرة من ذلك الشيخ عندما كنت طفلة، ثم لم أسمعها من أي مصدر آخر بعد ذلك، لكنني على أي حال وبغض النظر عن مقدار مصداقيتها، أنا أحب هذه القصة وأؤمن بها.

- لا يمكن أن تكون قصة حقيقية!

- تكون حقيقية إن أردت أن تعتبرها كذلك، وتكون سجادتك هي القطعة الأصلية إن آمنت بذلك! فحافظ عليها على الدوام، واحترم الدماء التي أهرقت في صنعها، وتعلّم أن تصغي إليها.

# الشمعة الأولى

أركض خلف ميكيل أنخيل في حقل كبير، وقلبي يخفق بعنف حتى تخيلت أنه سيقفز من صدري، وأني سأتقيأه في أية لحظة. أريد أن أسأل ميكيل إلى أين؟ لكن أنفاسي المتقطعة هي أضعف من أن تمكنني من الركض والصراخ في آن واحد.

لن أسأله، قلت لنفسي، لأنني أعرف أنه سيجيبني نفس الإجابة التي لا أحبها: «أنت لا تعرف شيئًا يا لوكاس»، لا أحب هذه الإجابة رغم إنني أعرف أنها حقيقية، فأنا صغير ولا أعرف شيئًا بعد، أما هو، فهو أخي الكبير، الذكي والحكيم، هو يعرف كل شيء، أما أنا، وكما يقول هو، ولوسيا من بعده، لا أعرف شيئًا.

تعبت، وشعرت بالمسافة تتسع بيني وبين ميكيل أنخيل، هو سريع، وقوي وكبير، أما أنا فلا، لن أستطيع اللحاق به، سأضيع هنا وحدي، أنا خائف، لأنني صغير، ولا أعرف شيئًا، وأخي الكبير الذكي والقوي قد تركني وحدي.

- ميكيل آنخيييييل.

صرختُ بأعلى صوت استطعته، مستنفدًا آخر أنفاسي، ثم رميت بنفسي على العشب وقد هدّني التعب واللهاث

حتى أوجعني صدري.

ساد صمت مخيف لبرهة قصيرة، ما لبث أن بدده صوت بعيد لامرأة تغني، أصخيت السمع، فسرت قشعريرة في بدني:

«إنها روح معذبة، مكبلة بالسلال، هي صرخة حب... هي صرخة ما زال يسمعها الأهالي حتى اليوم: الموت القاسي من أجل الحب»[1].

أنا أكره هذه الأغنية، إذ تتراءى لي، كلما سمعتها، روح تلك المرأة التي ماتت منذ أربعة قرون بسبب الحب، وتؤرق نومي، من التي تغني هذه الأغنية اليوم؟ هل هي الروح الهائمة ذاتها أم أن صاحبتها قد عادت للحياة؟

تلفتُّ حولي بجزع، فلمحت كوخًا بعيدًا تخبئه أجمّة من الأشجار، هل تكون هنا؟ سألت نفسي وأنا أتقدم بشجاعة لم أعهدها، وعاد خفقان نبضي يقرع صدري بعنف، فأغلقت فمي بحزم كي لا ألفظ قلبي، وواصلت التقدّم باتجاه الكوخ الذي جاء منه الغناء.

بدا عتيقًا جدًا، له باب من الخشب المنخور تُرِكَ مواربًا، لتتسرب منه الأغنية:

«هي روح طيبة عاشقة وحالمة، في الليل تأتي، تحكي، تضحك، ترقص، تغني، تبكي وتصرخ، تبحث عما ضيعته في سبيل الحب... في سبيل الحب»

دفعتُ الباب بيد مرتجفة، ودخلت. كان الظلام يغمر

---

(1) أغنية إسبانية للمغنية المكسيكية لوسيا مانديز، اشتهرت في أواخر الثمانينيات *Un alma en pena*

الكوخ، يبدده نور شمعة خافتة، يتراقص بلون ذهبي شاحب على جبين امرأة جلست على الأرض في زاوية بعيدة، تغني وتعمل بنشاط على كومة كبيرة من الخيوط. تجدلها بمهارة فتتحول على يديها إلى بساط جميل مزين بورود حمراء.

- سلمى!

ناديتها مندهشًا، فرفعت رأسها ونظرت إليّ، ثم مسحت العرق عن جبينها بظهر كفها، فلمحت قطرات من الدماء تقطر من أصابعها:

- ماذا تفعلين؟ هل جرحت نفسك؟

ابتسمت بهدوء وقالت بصوت هامس:

- أنت تعرف يا لوكاس!

ازدادت دهشتي، منذ متى كنت أعرف شيئًا... فأنا... أنا الذي لا أعرف شيء.

- أنا لا أعرف شيئًا يا سلمى!

- بل تعرف جيدًا يا لوكاس، وستقرأ كل الرسائل التي أرسلتها إليك، وسترد عليها يومًا... في الوقت المناسب.

- أنت أرسلت لي رسائل؟

أشارت إلى كومة من السجاجيد الملفوفة والمصطفة بعناية بجانب بعضها البعض في الزاوية الأخرى من الغرفة وقالت:

- كل هذه الرسائل، عليك أن تقرأها لتحررني.

- أحررك؟

أشارت إلى رسغها، فلمحتُ سلسلة حديدية تحيط به،

اقتربت منها لأنتزعها فصرخت:

- لا... لا تقترب! ليس الآن.

أجفلت من صرختها، ونظرت إلى وجهها، وجدتها تحدق بي بعينين واسعتين تحوّل لونهما الداكن فجأة إلى أزرق فاتح شفاف، فتجمد الدم في عروقي وسألتها:

- سلمى... ماذا دهاك؟

صرخت صرخة أخرى، أقوى من الأولى، اشتعلت النار إثرها في الكوخ، فتصاعد من حولي الدخان وابتلع بسرعة رهيبة سلمى وسجادها، ثم وصل إليّ وابتلعني أيضًا، فغابت الرؤية عني وداهمني سعال شديد، وشعرت بالاختناق... وأغرقتني الدموع.

حلب 02/06/2007

# ماذا عن سلمى؟!

## -1-

استيقظ لوكاس مذعورًا في ليلته الأخيرة في حلب، حدّق في سقف غرفته مذهولًا لدقائق عديدة قبل أن يعي أين هو، تذكر أنه نائم فوق سجادته العجيبة التي اشتراها منذ أيام، استرجع تفاصيل حلمه، ثم نظر إلى الشمعة التي أشعلها قبل أن يستلقي، فلم يجد منها إلا هضبة صغيرة من بقايا الشمع في الشمعدان.

عاد للنوم، وعندما استيقظ ثانية، كانت الساعة تشير إلى السابعة وسبع دقائق، «هناك متسع من الوقت قبل أن تأتي سلمى،» قال لنفسه متذكرًا موعد طائرته في الثانية بعد الظهر، وسلمى التي ستقله بسيارتها إلى المطار. نهض وانتزع السجادة من على الفراش حيث كان نائمًا، لفها بعناية ووضعها جانبًا ثم عاد للاستلقاء على السرير من دونها.

كان يتمنى لو مدّد إقامته لفترة أخرى، لكنه اضطر إلى حجز مقعده في الطائرة عندما تلقى خبرًا من محاميه في إسبانيا يعلمه بأن الحكم صدر لصالحه في قضية نزع حضانة مانويل عن لولا، وعليه أن يكون هناك من أجل إجراءات التنفيذ.

– ألستِ متشوقة لزيارة إسبانيا؟

قال لسلمى مغريًا إياها بالمجيء إليه، إذ بدأ يشتاقها قبل أن يغادر ولم يتخيّل كيف سيعود لحياته السابقة الخالية من وجودها.

– متشوقة طبعًا، لكن ليس في القريب العاجل.

– متى إذن؟

– لا أستطيع الإجابة الآن يا لوكاس... ما زال الوقت مبكرًا.

- إذن... سأعود أنا قريبًا... ربما في آخر الصيف.
- سيسرني ذلك... سأشتاق إليك حتى وقتها.
- أما أنا... فأشتاق إليك منذ الآن.

في هذه الجلسة في المطار، أهدته الدفتر الصغير ونصحته حينها أن يدوّن أحلامه. لم يتأخر في تنفيذ النصيحة وعكف أثناء الرحلة على تدوين ما تذكّره من تفاصيل حلم ليلة الأمس، وهو يدمدم بأغنية لوسيا مانديز التي كانت تخيفه في طفولته، والتي لم يسمعها منذ زمن بعيد.

عندما أعاد قراءة ما كتب، توقف قليلًا ورسم خطًا تحت اسم ميكيل أنخيل، أخيه الذي كان يجري خلفه لاهثًا في الحلم، والذي لم يلتقه في الواقع منذ زمن طويل.

ميكيل أنخل البكر، والابن اللامع في العائلة منذ طفولته وحتى اللحظة، هو الآن مهندس معماري ناجح في مدريد، مشغول جدًا ويتراكض دائمًا كأي رجل مهم، ذو شأن كبير ومسؤوليات.

فكر لوكاس أنه يجدر به أن يلتقي ميكيل أنخل قريبًا، فقد اشتاق إليه، هو الذي كان له في طفولته المعلم الأول، القائد والملهم والمثل الأعلى. يحبه كثيرًا، وإن كان يجد نفسه ظلًا شاحبًا بجانب توهجه، فقد برز أخوه الأكبر كصبي موهوب في شتى المجالات، متقد الذكاء ومفعم بالحيوية، سريع البديهة ومحبوب من الجميع.

ورث ميكيل أنخل عن أبيه طوله الفارع وعن أمه ملامحها الغريبة الفاتنة، التي تشكلت من انتقاء الطبيعة لأفضل المورّثات المغربية الممزوجة بأفضل تلك الإسبانية، وورث عن جده اليهودي جرأته ودهاءه، ما ميزه عن أخيه الصغير الأشقر الخجول، الذي ورث القامة المربوعة وهدوء الطبع ورقة المشاعر.

كان لوكاس إلى جانب افتتانه بأخيه، يشعر بغيرة مواربة منه،

ويغيظه انبهار الناس بمواهبه، وقدرته على التعبير عن نفسه بحرية وسلاسة لم يمتلكها هو يومًا، فنشأ في ظله مستكينًا لسلطته، ومقتنعًا بأنه الأخ الأصغر الذي لا يعرف، ولا يستطيع، ولا يقوى، ولازمته هذه القناعة حتى بلوغه، واصمة إياه بطبع خجول وقلب رهيف لا يعرف كيف يتخذ الخطوة الأولى التي اعتاد أخوه على اتخاذها عنه دائمًا، قبل أن يقوم هو باللحاق به، سيرًا على خطاه.

عرف لوكاس عندما نضج أنه لن يشعر بكيانه المستقل إلا إذا انفصل عن ميكيل أنخل، وقد كانت هذه القناعة هي السبب الرئيسي لاختياره الدراسة في جامعة بعيدة عن سانتاندير، ومن ثم الاستقرار في توليدو.

«ما هي الرسالة التي يحملها لي أخي في هذا الحلم الغريب، يا سجادتي السحرية؟» سأل لوكاس نفسه، وهو يغلق الدفتر.

المرة الثانية التي عاد فيها إلى التدوين فيه كانت بعد حوالي أسبوع من عودته إلى توليدو، عقب استيقاظه من حلم تراءى له في ليلة تلت يومًا عاصفًا قضاه مع لولا، التي انهارت عندما نفّذ حكم نزع حضانة مانويل منها.

عاد في ذلك المساء إلى الغرفة التي انتقل إليها بعد أن هجر الشقة التي كانت تجمعه مع لولا منذ أن رفع قضية نزع الحضانة، والتي حجزها في فندق قريب من بيته الجديد الذي ما زال يتلقى اللمسات الأخيرة قبل أن يصبح جاهزًا للسكن.

محطمًا تمامًا، يشعر بالألم من أجل لولا، ويشعر بالذنب تجاهها، ولا يدري إن كان قد اتخذ القرار السليم. وانتابه فجأة شوق كبير إلى سلمى، خالطه حزن مبهم، إذ أحس أنه بصراعه مع لولا قد ابتعد عنها لمسافات سحيقة، وأخافه هذا الإحساس. فأرسل لها رسالة قصيرة

تقول: «اشتقت إليك... وأحتاجك». لم ينتظر جوابًا بل قام بمدّ تلك السجادة على سريره، وأشعل شمعة، وملأ صدره بشذاها، قبل أن يلقي رأسه الثقيل وجسده المتعب وروحه القلقة في حضن ذلك الحقل السحري الدافئ، فابتلعه في عالم أحلامه العجيب، وصوَّر له لولا تلقي بسلمى من على سطح بيته الجديد، ومانويل جنين أزرق محنط في قارورة.

«حلب اشتاقت إليك...!» كان ذاك محتوى الرسالة النصية التي أرسلتها سلمى إلى لوكاس في الصباح التالي. فأجابها للتو:» لن أتأخر عليها»، بينما كان يتساءل بحيرة: «شكرًا حلب... لكن... ماذا عن سلمى؟»

## -2-

في أواخر أيلول، استلمت سلمى من لوكاس رسالة تقول: «بَشّري حلب أن صديقها الذي اشتاقت إليه سيصل إليها في الأسبوع القادم، وبلغيها أنه اشتاق إليها كثيرًا ولكن، أقل بقليل من شوقه إلى ساحرة حلبية تدعى سلمى!»

ضحكت وهي تكتب له الإجابة: «حلب في انتظارك، والساحرة ومكنستها أيضًا!!!»

في تلك الشهور القليلة التي فصلت بينهما، شعرت سلمى بشوقها إليه يتنامى يومًا بعد يوم، لكن من دون أن يُنْسيها في أي يوم، شوقها إلى شمس ورغبتها المجنونة به.

من خلال مراسلاتهما الكثيرة، وملاحقتها لأخبار لولا ومانويل، شعرت بأن هذا الرجل الحنون والمحب ليس لها ولن يكون، إلا إذا حدثت معجزة ما. وكان هذا الشعور يريحها من الالتزام معه، واحتمال حدوث المعجزة يقلقها، إذ قد يجبرها على التخلي عن حلم حياتها المستحيل.

فرغم كل شيء، كان من الوارد أن تقوم سلمى بتكريس لوكاس كرجل حياتها إذا قام بالخطوة المطلوبة تجاهها. هي تعرف في قرارة نفسها أنها لن ترفضه لو اعترف بعشقه لها وعرض عليها الارتباط، لكنه لم يفعل، لأنه هو أيضًا كان بانتظار إشارة منها ليقوم بالخطوة الأولى، الخطوة التي استصعبها ولم يقم بها في حياته كلها إلا فيما يتعلق بامتهانه التصوير، وإن انجرف لاحقًا مع التيار الذي دفعته لولا

إليه، ولم يعرف كيف يتحرر منه ليحقق حلمه بأن يكون المصور الذي يريد أن يكونه.

كان لوكاس مقتنعًا، عبر خبرته مع النساء اللاتي لعبن أدوارًا مهمة في حياته، أن المرأة حين تحب، تبادر إلى حصار الرجل الذي تريده حتى تحصل عليه، الأمر الذي لم تفعله سلمى، التي بدت له صنفًا مختلفًا من النساء، أكثر غموضًا وأشد تعقيدًا.

الإشارة التي انتظرها لوكاس كانت تتلخص بأمر واحد: «أن تتخلى سلمى عن عشقها لشمس».

لم يتخيّل أن يرتبط بامرأة تحلم برجل آخر، وتجاهر بهذا الحلم. كان يتمنى حتى أن تكذب عليه يومًا، وأن تقول إن ذلك الرجل، الذي يتلاعب بقلبها ومصيرها عبر خيوط غير مرئية، لم يعد له وجود في حياتها، وإنها قطعت كل تلك الخيوط وتحررت، لكنها لم تفعل، لم تعطه الإشارة التي أرادها، وهو بالمقابل، لم يقم بالخطوة التي انتظرتها، ولم يقرأ الرسائل التي أرسلتها إليه، ليحررها، ويطلق روحها المعذبة.

زيارته الثانية إلى حلب دامت ثلاثة أسابيع، مرّت كزمن حلو ومر، زاد من تعلقهما ببعضهما البعض، ومن انفتاح أحدهما على الآخر بشكل كشف الاختلافات التي جعلت الارتباط يبدو أكثر تعقيدًا.

كانت كثيرًا ما تحدِّثه عن شمس، وهو لم يطالبها بالتوقف بل العكس، يشجعها على الاسترسال، إذ عرف أن الحديث يريحها، بمقدار ما يؤلمه. وهي بالمقابل، كانت تغار حين يتحدث عن مانويل، وعن شعوره بالذنب تجاه لولا، وتحب أن تسمع المزيد والمزيد، من دون أن تعرف ما إذا نبع ذلك من رغبة مازوشية لتعذيب الذات، أم لتؤكد لنفسها أن هذا الرجل القريب جدًا منها، لديه من القيود ما سيمنعه من انتشالها من الوهم الذي نذرت له عمرها.

كانت تشعر في سرها أنها تستغله، تأخذ منه من دون أن تعطيه، وكان هذا الشعور يعرف كيف يصل إليه.

صادف يوم وصوله إلى حلب بداية الأسبوع الأخير من رمضان، وقد أسعده ذلك الحظ، إذ وجدها فرصة حلوة ليتعرّف ويشارك في طقوس هذا الشهر الجميل لأسبوع من الزمان، استهلّها بدعوة على الإفطار في بيت سلمى وجهتها له مع جيهان وزوجها.

الدعوة عنت بالنسبة إليه أكثر من مجرد وليمة، إذ تهيّب بخجله الفطري فكرة دخول بيتها والتعرف إلى والديها وأخيها. فكّر كثيرًا قبل أن يذهب إذا كان مناسبًا أن يصطحب معه الكاميرا، فمن دونها لا يشعر أنه متوازن، لكنه قرر أخيرًا أنه من غير المستحسن فعل ذلك، وأن عليه أن يواجه لحظته تلك بوجهه المجرّد، من دون حاجز الحماية الذي اعتاد أن يحتمي خلفه منذ طفولته.

اشترى من مطعم الفندق زجاجة نبيذ فاخر ليأخذها معه، ثم فطن أنه من الجنون إهداء النبيذ على الإفطار في رمضان. احتار، ولم يكن يملك الوقت لمزيد من الحيرة، فاستعان بجيهان التي ضحكت وقالت له:

- أهدني النبيذ، وسوف أتكفل بشراء هدية مناسبة لتأخذها معك إلى الإفطار مساءً.

قبل أن يعلن أذان المغرب انتهاء صيام اليوم بحوالي ساعة، كانت جيهان تنتظره مع زوجها في سيارتهما أمام الفندق، مع علبة شديدة الأناقة تحتوي وعاء من الكريستال مملوءًا بحبات شوكولا ممهورة بخاتم ماركة فاخرة.

في طريقهم إلى فيلا الدكتور سامح العطار في حي الشهباء، أصيب لوكاس، المتوتر أصلًا، بالذعر من حالة الجنون التي سيطرت على

حركة المرور في المدينة، أصوات نفير السيارات وصياح السائقين الذي بدا له كأنه شتائم، السرعة الجنونية التي عمّت الشوارع الهائلة الازدحام، الفرامل المفاجئة التي كان زوج جيهان يلجأ إليها بين دقيقة وأخرى، أمور أصابته بالغثيان وأفقدته الشهية لتذوق ما أُعدّ له من أطباق، كان قد استعد لها بجوع يوم طويل لم يتذوق فيه إلا بضعة قطع من البسكويت مع القهوة.

عندما استقبلتهم سلمى بثوبها الليلكي الجميل وابتسامتها الصغيرة، تمنى لو أنه أحضر لها باقة من الورود ليقوم بتصوير انعكاسها في عينيها الداكنتين، لكن الكاميرا لم تكن معه، والورود امتنع عن إحضارها كي لا يثير أية شبهة رومانسية في ذهن والديها.

البناء الجميل للفيلا أثار إعجابه منذ أن ترجل من السيارة، وعندما دخلها، أدهشته فخامة الأثاث والديكور، وأناقة اللمسات التي تعبر عن ذوق رفيع مدعوم بثراء واضح.

- هذا لوكاس أورتيز، هذه والدتي جانيت، ووالدي الدكتور سامح، أخي سامر وخطيبته رشا.

- تشرفت بمعرفتكم.

رد لوكاس متلعثمًا وهو يصافح أفراد الأسرة واحدًا تلو الآخر.

- كيف حالك، وكيف هي الأندلس أرض أجدادنا؟

سأله الدكتور سامح ممازحًا إياه بابتسامة كبيرة، فضحك لوكاس وأجاب بخجل:

- كل شيء على خير ما يرام، يجب أن تقوموا بزيارة أرض أجدادكم في أقرب فرصة.

- طبعًا... فهناك مرابط خيلنا... قبل أن يطردنا أجدادكم طردًا.

تذكر لوكاس جده اليهودي، وفتح فاه ليقول لسامح: «جدي كان

يردد ذلك أيضًا»، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة عندما تذكّر حاجبي سلمى المستنفرين وهي تقول: «تجري في عروقك دماء يهودية إذن؟».

يعرف سامح قليلًا من الإنجليزية، أما سامر ورشا، فهما متمكنين منها ويتحدثانها بطلاقة، بينما كانت جانيت تتحدث الفرنسية فقط، التي لم يكن لوكاس يعرفها، فاكتفى بهز الرأس والابتسام كلغة للتواصل معها طيلة فترة الزيارة.

بعد تبادل بعض المجاملات المعتادة، دعتهم جانيت إلى المائدة قبل دقائق قليلة من موعد الأذان، فتجددت دهشة لوكاس لمنظر السفرة الباهرة التي رصت عليها أطباق المقبلات الباردة والساخنة والسلطات مع أصناف مختلفة وغريبة من المشاريب، مع طبق صغير إلى يمين كل ضيف يحتوي على ثلاث تمرات.

جلست سلمى إلى يمينه وشرحت له:

- هذه كبّة نيّة، وهذا فتوش، هاك أبو غنوج، برك باللحمة وبرك بالجبنة، تبولة، يلنجي ورق عنب وباذنجان، طرطور دجاج ومُحمّرة بالجوز...

كان لوكاس قد تعرّف على معظم تلك الأصناف خلال زيارته السابقة إلى حلب، لكنه أصيب بالذهول عندما وجدها كلها مصطفة على مائدة واحدة.

صمت الجميع فجأة عندما علا صوت الأذان من المساجد القريبة، «بسم الله الرحمن الرحيم» ميّز لوكاس هذه الجملة التي تلتها سلمى بصوت خافت على مسمع منه، ثم تمتم أهل البيت كلٍ بينه وبين نفسه ما يشبه صلاة صغيرة، ثم شربوا الماء وتناولوا حبة تمرٍ، ومثلهم فعل لوكاس، وهو يفكر بجده الكانتابري، الذي قال يومًا لوالده: «إن تزوجت هذه اليهودية فسوف تتسبب بإصابتي بالجلطة حتمًا».

- التمر ينصح به كأول طعام يؤكل بعد الصيام على المعدة الفارغة، وقد أخذ المسلمون هذه العادة من النبي الذي كان يفطر على ثلاث تمرات ثم يقوم إلى الصلاة.

شرحت له سلمى وسألته:

- ماذا تحب أن تشرب؟ سوس، تمر هندي، قمر الدين؟

تلك المشروبات التقليدية لشهر رمضان كانت اكتشافًا جديدًا بالنسبة إليه، وأمام حيرته اقترحت عليه أن يبدأ بقمر الدين شارحة أنه منقوع المشمش المجفف.

بعد صحن شوربة الدجاج الصغير الذي استُهِلّ به الإفطار نسي لوكاس غثيانه، وقبل أن يكتفي من التلذذ بالأصناف المتنوعة التي لم تتوقف سلمى عن إلقائها في صحنه، جاءت الأطباق الرئيسية مسبوقة بروائح شهية كان استنشاقها وحده كافيًا لإثارة نشوة غريبة.

- هذا يبرق ورق العنب مع الشرحات والثوم، وهذه فريكة مع لحم الخروف والمكسرات، وتلك كبة دراويش مقلية، وذاك كباب بالكرز، بماذا تحب أن تبدأ؟

قبل أن تنتظر الإجابة التي عرفت أنه لا يملكها، سكبت له مقادير صغيرة من كل الأصناف.

- تذوق أولًا، ثم أجبني.

كان شكل الطعام في الأطباق غاية في الجمال، ما دفع لوكاس للندم ثانية على عدم إحضاره الكاميرا، فقد واتته رغبة جارفة للتصوير، وأحس أنه لن يشبع من هذه الأصناف إن لم يقم بتصويرها.

بعد الطعام دارت عليهم أكواب الشاي، ودارت بينهم بعض الأحاديث حول وجوه التشابه والاختلاف بين المطبخ الحلبي والإسباني، قبل أن يستلم الدكتور سامح الحديث، قاصًا على الجميع،

بإنجليزية تعيسة مدعومة بجمل عربية قامت سلمى بترجمتها، بعضًا من ذكرياته عندما زار إسبانيا في شبابه، في الفترة التي كان فيها طالبًا في فرنسا.

عندما علم الدكتور سامح بأن لوكاس خريج كلية الحقوق، أبدى تقديره وإعجابه، وعبّر عن ألمه الشديد لتخلّي سلمى عن كليّتها، الأمر الذي كان بالنسبة له جرحًا لم يندمل.

- وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قال جملته الشهيرة بالعربية، بينما صمتت سلمى التي تعودت هذا الحديث واكتفت بابتسامتها الصغيرة.

بعد يومين وردًا للدعوة، دعتهم جيهان إلى «السحور» في مطعم شرقي الطراز في حلب القديمة، زُيِّن بالبسط والسجاد وعشرات الفوانيس النحاسية ذات الزجاج الملون.

«السحور هو الوجبة الأخيرة التي يأكلها المسلمون قبل أن يعودوا إلى الصيام من جديد مع أذان الفجر، وقد كانوا سابقًا يستيقظون خصيصًا قبل ساعة من الفجر ليتسحروا قبل صيام اليوم الجديد، ومن هنا نشأت مهنة «المسحّر» وهو شخص تتلخص مهمته بالتجوال في الحارات والأزقة لإيقاظ النيام في هذه الساعة باستعمال طبلة صغيرة يقرعها مع أداء عدة عبارات خاصة» شرحت له سلمى واستطردت: «اليوم صار أغلب الناس يسهرون حتى موعد السحور، إذ صار الموضوع فرصة للترفيه ولقاء الأصدقاء.»

سفرة السحور التي يفترض أن تحتوي أصنافًا خفيفة، كانت مختلفة عن سفرة الإفطار: «فلافل، فول، حمص، لبنة، جبنة مشوية، فتوش، شاورما ومخللات...» عددت له سلمى أسماء الأطباق الموجودة برفقة نفس المشروبات التقليدية التي تعرّف عليها لوكاس

مجددًا وأعجبه منها التمر هندي، وتلتها أصناف الحلويات التقليدية الرمضانية: «مشبّك، لقمة القاضي، غزل البنات، كعك معروك...»

لاحظ أن الساهرون على الطاولات المنتشرة حولهم يأكلون ويلعبون الورق أو طاولة الزهر، ويدخنون النرجيلة.

- هل تريد أن تجرب الأركيلة؟ (سألته جيهان)

- آه نعم... أحب ذلك.

في تلك الليلة كانت الكاميرا معه، وقد أكلت عدسته من الأطباق أكثر مما أكل هو، كما استمتع بالتقاط الصور لنرجيلته الممشوقة ذات الجسم الفضي النحيل المعلق على قاعدة زجاجية مملوءة بماء يقرقر كلما سَحَبَ نفسًا من الخرطوم المغروس بخاصرتها والمنتهي بمبسم فضي.

بعد أيام قليلة أطلَّ عيد الفطر بأيامه الثلاثة، احتجبت عنه سلمى في أولها لانشغالها مع العائلة، فقضى وقته هائمًا في الشوارع يلتقط الصور للأطفال المبتهجين بثيابهم الجديدة والمعلقين بالأراجيح المنصوبة في الأزقة القديمة الشعبية المحيطة بحي الجديّدة حيث يقع فندق دار زمريا الذي نزل فيه هذه المرة أيضًا.

في ليلته الأخيرة قبل السفر، تعشيا معًا في المطعم الجميل المطل على قلعة حلب من على سطح الفندق. أكلا وشربا كثيرًا وضحكا كثيرًا، سألها مجددًا عن قصة خاتم التنين الذي لم يفارق إصبعها، فوعدته أن تفكر بروايتها له عندما ستقوم بزيارة إسبانيا في وقت قريب.

بعد العشاء، أحست برغبة عارمة في احتضانه، فلم ترفض دعوته المترددة للدخول معه إلى غرفته في الفندق. استكانت كالعادة عندما قبّلها، واسترخت عندما بدأت أصابعه تتحرك على بشرتها برفق، وتتحسّس عنقها وكتفيها، تمر على نهديها وتتمهل في مداعبة

الحلمتين، ولما بدأت تنزلق إلى أسفل ظهرها، وتنساب نحو ما بين ساقيها، ذابت ثلوجها وتحولت إلى جداول من إحساس وأنوثة، وأرادت أن تسمع منه اعترافًا بحبها، فأفلت من شفتيها سؤال لم تكن راغبة بأن تسأله إياه أبدًا، خرج كهمسة تتنهد في أذنه المحمومة:

- لوكاس... ماذا تريد مني؟

دسّ إصبعه في كهفها الرطب المشتعل، وهمس مجيبًا:

- أنت ماذا تريدين؟

ماذا تريد؟ تريده ألا يتوقف، تريده ألا يبتعد، تريد أن يصل بها إلى أعلى فضاء يمكن لامرأة أن تبلغه، وتريده أيضًا... ألا يحرمها من شمس.

أجابته بقبلة شبقة، وتخلت عن سؤالها، فتخلى هو أيضًا، وضاجعها برغبة متقدة، وحبّ كبير حلّق بهما معًا إلى عالم آخر، تحاورا فيه طويلًا بلغة أخرى، لا أبجدية فيها، لا حروف ولا كلمات.

# الشمعة الثالثة

قالت لي:» لنصعد، أريد أن أريك مشهدًا رائعًا».

سحبتني من يدي وصعدنا السلالم الضيقة المظلمة للبيت العتيق حتى وصلنا إلى باب خشبي صغير، دفعته فانفتح وأبهرنا نور ذهبي لشمس ساطعة كانت أشعتها تملأ الفضاء. عبرنا الباب إلى السطح المطل على حلب القديمة المزدحمة بدور عتيقة ومساجد تعلو مآذنها إلى السماء.

- انظر هناك!

في الجهة الأخرى حيث أشارت، كانت قلعة حلب المهيبة تنتصب بكبرياء وشموخ، مولية إيانا ظهرها كحسناء تتجاهل معجبيها وهي تسترخي بدلال تحت أشعة الشمس.

- ما أروعها. قلت وقد أبهرني المشهد، فابتسمت لي سلمى ابتسامة كبيرة، واقتربت مني حتى التصق جسدها بجسدي.

- أنا أحبكِ.

قلت لها وقد اشتعلت روحي بعاطفة جارفة، وشعرت بلذّة هائلة عندما طوقت خصري بذراعيها وألقت برأسها على كتفي. فهمست في أذنها:

- أريدك الآن، أريد أن أضاجعك هنا.

لم تنبس ببنت شفة، إنما سحبتني وجلسنا على الأرض قرب سور السطح، محتمين في ظله القصير.

- خذني لوكاس، أنا لك.

نزعت عنها ثيابها، وضاجعتها بشهوة عظيمة تحت الشمس المتقدة ومن خلف ظهر القلعة التي بدت وكأنها تغض النظر. كانت تتنهد بإيقاع مثير، يزيد من رغبتي وحماسي، فانغرست فيها بنشاط كشجرة تنضح حبًا ولذة، حتى رأيته، متربعًا على الأرض على مسافة خطوة قربنا، مسندًا ظهره إلى السور مندمجًا بالعزف على القانون القابع في حضنه، وهو ينظر إلينا بين الحين والآخر بالتناوب مع قانونه.

توقفت مشدوهًا، وشعرت بالحرج، وأردت أن أسأل سلمى من هذا الرجل، وماذا يفعل هنا قربنا.

- لا تهتم، هو هنا دائمًا.

أجابتني من دون أن أسأل، وقامت وهي عارية تمامًا وتمشّت أمامي على مهل. ابتعدت بهدوء وبدت كجبل من جليد يذوب بسرعة في حرارة الضياء الساطع، حتى ابتلعتها الشمس التي أغشت أشعتها نظري فلم أعد أرى شيئًا.

توليدو 27/09/2007

# مانويل

نام لوكاس وهو مُمسك بالكتيب الصغير الذي كان يقرأ ما دَوّنَ فيه من أحلام خمسة، أولها في حلب منذ عشرة أعوام وآخرها في توليدو منذ حوالي الأربع سنوات قبل رحلته المشؤومة إلى سورية إبان اشتعال الحرب هناك.

أعادته تلك الأحلام الخمسة إلى برهة من حياته ازدحمت فيها الأحداث وتفجّرت المشاعر كما لم يحدث له في أية فترة أخرى. ضغط على ذهنه المنهك ليحلل كل حلم منها على ضوء الأحداث التي تلتها، فأدهشته النتيجة بعد ربط الخيوط، واتضحت له أخيرًا بعض الملامح المبهمة لتلك الرسائل التي يفترض أنها جاءت محمّلة بها.

غفا قبل أن يكمل التحليل، إذ لم يتحمل بدنه المهدود بذْلَ جهدٍ آخر بعدْ عشية يوم طويل بدأه في بيروت وطار فيه إلى مدريد، وقاد سيارته من المطار إلى بيته في توليدو، حيث ختمه مع ذكرياته وكتيب أحلامه، بقلب مشتاق، وروح أشعل فيها النار ذلك الخاتم الذي طالما حلم به، وصار بحوزته الآن بعدما طلع له فجأة في مطار بيروت.

أيقظه رنين الهاتف، فالتقطه ونظر إلى شاشته، إنها التاسعة صباحًا، والمتصل كان مانويل.

– مانوليتووو.

– باباااا... صباح الخير... كيف كانت رحلتك؟

- جيدة... أنت كيف حالك؟

- بخير... اتصلت لأذكّرك... غداً عيد ميلاد جدتي إستير.

- آه... صحيح... شكرًا لك... أنت صبي رائع.

- شيء آخر!

- أخبرني.

- قررت أن أهديها هذا العام... آيباد.

فتح لوكاس عينيه اللتين كانتا ما تزالان نائمتين، فتحهما للحد الأقصى لعله يستيقظ ويسمع جيدًا ما يقوله هذا الولد الغريب.

- آيباد؟؟ لجدتك إستير؟

- آه باباااا... أنت لا تعرف شيئًا... ستصبح ماهرة في استخدامه!

- آه صحيح... أنا لا أعرف شيئًا!

«لم يبق إلا أنت يا فهيم عصرك ليقول لي أنني لا أعرف شيئًا»، ضحك في داخله، بينما استرسل مانويل:

- أنت تعرف أنني فتحت لها حسابًا على الفيسبوك في السنة الفائتة، هي تبلي حسنًا عبر هاتفها المحمول، لكن المسكينة تجد صعوبة في الكتابة نظرًا لصغر الحروف في لوحة المفاتيح، لذلك قررت أن أهديها آيباد، سترتاح في استعماله أكثر.

- قررت إذن... حسنًا... أهنئك... قرار جيد!

- شكرًا.

- أنت تدلل هذه الجدة كثيرًا... وأخشى أن تفسدها... إلى اللقاء غدًا.

- ولكن انتظر!

- ماذا أيضًا؟

- أنت الذي سيشتري الآيباد ويحضره لي غدًا كي أهديها إياه...

- آه طبعًا... طبعًا... أنت قررت... وأنا من سيشتري!

- من فضلك!

- شكرًا لأنك قلت من فضلك!

- إذَن؟ متى ستصل غدًا؟

- بعد الظهر تقريبًا... لا تقلق، سأحضر معي الآيباد.

- شكرًا لوكي... أنت أب مثالي... لقد اشتقت إليك!

- وأنا اشتقت إليك أيضًا أيها الشاب... قبلة كبيرة.

- ولك مثلها... إلى اللقاء غدًا.

جلس لوكاس في فراشه وكل ما فيه يبتسم، كانت بداية موفقة لليوم، محادثته مع مانويل الذي يكاد يبلغ الثلاثة عشر عامًا. مد يده ليضع الموبايل جانبًا، فحانت منه التفاتة لمح فيها كتيب الأحلام غافيًا قربه في الفراش، التقطه واسترجع أحداث اليوم الماضي، وتوقف عند الخاتم الذي وجده في المطار، وإذ لم يجده بجانبه، احتار في كونه حقيقة، أم حلمًا آخر يجب أن يضيفه إلى زملائه الخمسة المدونين في هذا الكتيب. لكنه عندما رفع وسادته، ولمح التنين تحتها يرمقه شزرًا لإيقاظه من غفوته، تأكد أنها عادت للتسلل إلى حياته، بانسيابية هذا التنين الذي انسل ليلًا بهدوء إلى ما تحت الوسادة الدافئة لينام.

عندما خرج من الحمام بعد الدوش الصباحي، وجد رسالة واتساب في موبايله من مونيكا:

«ألن اراك هذه الليلة؟»

تردد كثيرًا في الإجابة، وكتب إليها أخيرًا:

«سأتصل بك بعد الظهر... وسنرى.»

مونيكا الشقراء الجميلة التي تعمل سكرتيرة في إحدى دور الأزياء في مدريد، هي الفتاة التي يخرج معها لوكاس منذ حوالي سنة. يجدها

لطيفة ومسلية، ومثالية الأداء في الفراش، لكنه لم يتعلق بها كثيرًا كشأنه مع جميع النساء اللاتي خرج معهن مؤخرًا. كان يعرف أن هذه العلاقة ستنتهي سريعًا، ويترقب تلك النهاية بضجر، باحثًا عن حجة مناسبة.

منذ حوالي ثمان سنوات، وبعد أن قطع الأمل من التي استحوذت عليه كليًا كما لم تفعل أية امرأة أخرى، عرف لوكاس الكثير من النساء، أحب منهن واحدة، كانت متزوجة لسوء حظه، خانت زوجها معه لعدة مرات قبل أن يستيقظ ضميرها وترحل، اسمها ريبيكا، وكانت سمراء، وكانت... إلى حد كبير... تشبه سلمى.

خلّف رحيل ريبيكا ألمًا طفيفًا في قلب لوكاس، سرعان ما تلاشى مع انغماسه في عمله وتعرفه إلى نساء جديدات، يصلحن لقضاء أوقات مسلية، وللحصول على بعض المتعة الجنسية، وليس لأشياء أخرى.

أشياء أخرى عزف لوكاس عن التفكير بها ولم يعد بحاجة إليها، إذ كان في الحقيقة مرتاحًا هكذا، من دون ارتباط، ومن دون عواطف، ومن دون أحزان جديدة تلوح في الآفاق.

لم يكن راغبًا في الخروج مع مونيكا هذه الليلة، خصوصًا بعد أن عاوده شبح سلمى واستحوذ على روحه من جديد، كأنها كانت هنا بالأمس فقط. منذ الأمس، تلح عليه فكرة الاتصال بها، ليسألها عن سر خاتمها الذي ظهر له فجأة، وليستطلع أخبارها بعد تلك السنوات الكثيرة، لكنه لم يفعل، إذ خاف أن يبدو سخيفًا، وفضّل أن يؤجل الموضوع قليلًا ليتهيأ له جيدًا.

قرر أن يشتري الآيباد ويسافر بعد الظهر إلى سانتاندير، ليقضي ليلة إضافية مع ابنه مانويل، عسى أن تكون مفاجأة حلوة له، وقد كانت مفاجأة فعلًا لكليهما، لكن من نوع آخر.

لطالما اعتقد لوكاس أن مانويل طفل لا يشبه غيره من الأطفال، رغم إدراكه لحقيقة أن كل الأهالي لديهم نفس الاعتقاد فيما يتعلق بأولادهم. يتذكر كلام سلمى: «إذا أردت أن تعتقد أن سجادتك هي القطعة الأصلية، تكون هي القطعة الأصلية» ويكمل، إذا أردت أن أعتقد أن ابني هو الأفضل، يكون هو الأفضل.

مانويل كان في سنوات طفولته الأولى طفلًا لطيفًا سهل الانقياد، لكن ذكاءه المتقد حوّله شيئًا فشيئًا إلى صبي ذي شخصية مستقلة ومتفردة بذاتها، تجمع النضج المبكر مع البراءة التي تخطف القلوب. باختصار هو صبي مذهل لكل من عرفه، وكانت تغيظ لوكاس تعليقات الأقارب الذين أصروا على تشبيهه بعمه ميكيل أنخيل عندما كان في سنه.

رغم أن جدته إستير هي أهم شخص في حياته، فإن علاقته بأبيه كانت ممتازة. كان الاثنان منسجمين ومتناغمين إلى درجة كبيرة، مانويل الرجل الصغير ولوكاس الطفل الكبير. منذ بلوغه الثامنة، بدأ مانويل يفرض نفسه كصديق للوكاس، يناقشه في قضايا عامة تفوق اهتمامات مَنْ في سنه، ويسأله عن حياته الشخصية ويبدي تفهمًا لظروفه وقرارته.

ذات يوم وأثناء عطلة كان يقضيها في بيت أبيه في توليدو، تسلّل الطفل ذو التسعة أعوام إلى الغرفة التي يحتفظ فيها لوكاس بأرشيفه الخاص الذي لم يُعرض على أحد. غرق الصبي لساعات طويلة في اكتشاف مئاتٍ من الصور، تعود لحقبات مختلفة من حياة أبيه، بدأت منذ أن كان مراهقًا. وقعت يداه على صورٍ كثيرة لأمه لولا في عصرها الذهبي، كما وقعت على صور أكثر لحلبٍ، وأكثر بكثير لسلمى.

عندما رجع لوكاس إلى البيت، ضبطه متلبسًا، وتوجّب عليه بدل أن

يعاتبه أن يقدم له شرحًا عن عشرات الصور التي كانت قد لفتت انتباهه وتركها جانبًا.

- مَنْ هذه؟

سأله وهو يعرض عليه إحدى صور سلمى، فتمعّن لوكاس بالصورة كأنه يراها للمرة الأولى، أحس بنشوة صغيرة وهو يتأمل وجهها ذا الابتسامة الصغيرة، وشعرها المتناثر حوله إثر هبوب نسمات من هواء معطر بشذى الغار والصعتر.

- هذه سلمى... (أجاب باقتضاب.)

- ومن تكون سلمى؟

- هي امرأة فاتنة تسكن في مدينة فاتنة... عرفتها أثناء رحلة عمل.

بحث عن صورة لحلب ضمن الكومة التي اصطفاها مانويل فوجدها، وعرضها عليها قائلًا:

- هذه حلب، المدينة التي تأكلها نيران الحرب اليوم.

- حلب؟

- ألم تسمع عن الحرب في سورية؟ حلب هي واحدة من أجمل مدن العالم، لقد زرتها قبل الحرب بأربع سنوات.

سحب صورًا مختلفة للمدينة التي أسرت قلبه، واستمتع بتأملها من جديد برفقة ابنه الذي قال مشدوهًا:

- كم كانت جميلة!!

- نعم... جميلة جدًا.

- وسلمى؟

- ماذا عن سلمى؟

- هل أحببتها؟

نظر لوكاس إلى عينيّ مانويل المليئتين فضولًا والمشعتين ذكاءً،

وابتسم قائلًا لنفسه: كيف يمكن أن أكذب أمام هاتين العينين؟ واعترف:

- نعم... أحببتها!

- وهي؟

- لست أدري! هي امرأة غريبة الأطوار لم أستطع ان أفهم منها شيئًا.

- كل تلك الصور!! ولم تفهم شيئًا؟

- لنقل إنني فهمت القليل، ولم يسعفني الوقت لأفهم أكثر.

- لماذا... ماذا حدث؟

- لولا...

- آه... هل كنت مع أمي عندما أحببتها؟

- لا يا عزيزي... الأمر ليس كذلك...

- وإذن؟!

تلعثم لوكاس ولم يعرف كيف يتنصّل من هذا الحوار الصعب الذي نزل عليه فجأة كالقضاء والقدر، لكنه قرر أن عليه أن يفعل ذلك بأية طريقة، فقال أخيرًا:

- هي قصة معقّدة، ولم تعد ذات أهمية اليوم... يمكن أن أقصها عليك يومًا ما، ولكن ليس الآن.

حدجه الطفل بنظرة ذكية وقال:

- حسنًا... يبدو أنها معقّدة فعلًا، لكنني لا أعتقد أنها لم تعد ذات أهمية اليوم! لا؟

# صقيع... سعير... حسيس

## -1-

في لقائها الدوري مع شمس الدين، حكت له سلمى عن لوكاس، عن امتنانها لوجوده، وتمسّكها به، وتمنّعها عن الاعتراف بحبّه.

- عليكِ أن تمضي إلى حيث ترتاح روحك، ومتى وجدتِ ذلك المكان لا تبرحيه أبدًا... في العلاقات لا تستشيري عقلك فيَظلمَ قلبك، ولا قلبك فيُضلل عقلك، استشيري روحك... وحين ترتاح روحك... يرتاح كل ما فيك.

- نعم... ترتاح روحي مع لوكاس... لكنها راحة طفلة تائهة وجدت من يأخذ بيدها ويطبطب عليها، من دون أن يُنسيها حاجتها للعودة إلى حضن أمها.

- حيث تجدين الدفء يكون هناك حضن أمك، فهل يعقل أن تكوني في الدفء وتشتهي صقيع حضن آخر؟

لم تجب سلمى فاستطرد:

- عليك أن تميّزي إذا كان هدف بحثك هو الحضن نفسه أم صقيعه؟ هل تتوقين إلى الصقيع خوفًا من أن يحرقك الدفء بناره؟!

واختارت أن تتحدى توقها إلى صقيعه، وأن تجرب الاحتراق بدفء نيران لوكاس، فأرسلت إليه تقول:

«يقولون إن مدريد تكون رائعة في رأس السنة، وقد قررت أن أختبر الوضع بنفسي، فهل تشاركني خبرتي؟»

بالنسبة للوكاس كانت تلك الرسالة أجمل ما استلم من رسائل منذ كثير من السنوات، ارتفع الأدرينالين في دمه مذ قرأها ولم ينخفض إلا

عندما همس له شيطانه الحكيم: «لعلّها تجيء وحدها ولا تحمل معها أطيافًا أخرى تشاركها الخبرة أيضًا».

تجاهله وبدأ بإعداد خطط للزيارة التي قالت إنها ستقتصر على عشرة أيام، بحث عن فنادق لإقامتها في توليدو وفي مدريد، لأنها بعقليتها الشرقية أو «ازدواجيتها الشرقية» كما تراءت له، رفضت أن تحل ضيفة في منزله.

بدأ يمشط شوارع توليدو العتيقة مستعيدًا ومُؤرشفًا المطاعم الأكثر رومانسية، والبارات الأكثر إثارة، وتخيّلها جالسة هناك تقرع كأسها بكأسه، وتهمس بإذنه بسر جديد من أسرارها التي لا تنتهي.

تخيّل نفسه يلتقط لها الصور أمام بوابة الشمس، وفي ظل الكاتدرائية الكبيرة، وتخيّلها تفتخر بالمباني الإسلامية الفخمة، وسمعها تقول له بانبهار:

- أنت على حق يا لوكاس... ما أشبه توليدو بحلب!

في مدريد، تخيّلها ترقص منتشية في مربع ليلي يضج بالموسيقا والإثارة، قبل أن تسترخي على صدره بهدوء ليحضنها بذراعيه، تخيّل نفسه يقبلها بنهم في الفندق المدريدي المطل على القصر الملكي المهيب، فتذوب رغبة وتطالبه تنهداتها بالمزيد، فينعجن بها ويغوص في أعماقها حتى الفجر.

عاش شهرين من الخيال الجميل، كحلم ليلة طويلة تلاشى عندما طلع الصباح.

قبل ثلاثة أيام من موعد قدومها حصلت الكارثة التي حطّمته كليًا، فأرسل إليها ثلاث كلمات لم يعرف أن يزيد عليها أية كلمة أخرى: «لقد انتحرت لولا».

بعد أن صحت من صدمة انتزاع حضانة ابنها، قررت لولا أن

تطعن في الحكم وتستأنف القضية مدجّجة بفريق من أشهر المحامين الذين قبلوا الترافع عنها طمعًا بالمبالغ الكبيرة التي لم ترفض دفعها كأتعاب لهم، على الرغم من يقينهم بأن القضية محسومة وخاسرة، فقد عاد الجيران والأصدقاء وأكدوا شهاداتهم السابقة عن الإهمال الذي كان يتعرض له الطفل، كما أن تقارير الأطباء ظهرت واضحة بما يتعلق بإدمان لولا، بالإضافة إلى تقرير جهاز الطوارئ الذي استعان به لوكاس لإسعاف الطفل وأمه، في تلك الليلة الشتوية التي كادت أن تودي بحياتهما معًا، عندما استسلمت لجرعة زائدة من المخدرات ونسيته في المغطس، ما أدى لإصابته بنزلة صدرية حادة.

بعد أن صدر الحكم النهائي مطابقًا للأول، فقدت لولا عقلها، أو ما تبقى لها منه. هجمت مخمورة على دار لوكاس الجديدة ليلًا وقد اشتعلت نيرانها وسيطر اليأس على روحها، طرقت الباب ضربًا بكلتا يديها وهي تصرخ:

- لوكاااااس... افتح هذا الباب اللعين... أريد ابني.

أصيب لوكاس بالذعر عندما شاهد وجهها المكفهر، حاول إسكاتها وتهدئتها بأن قال لها:

- اهدئي لولا، لن يمنعك أحد عن ابنك، عليك أن تدخلي المصحة لتتعالجي، وعند تعافيكِ سيعود مانويل إليك طبعا فأنت أمه!

- نعم أنا أمه، أنا أمه، لكنني لن أدخل تلك المصحة اللعينة،أنا لا أستطيع أن أعيش من دون مانويل... أفضل الموت... أفضل الموت... أفضل الموت...

أمسكها من كتفيها وهزّها لتستيقظ من جنونها وهو يقول:

- اهدئي لولا... أرجوك!

تخلصت منه بعنف وصرخت من جديد:

- توقف عن قول هذا، كيف أهدأ وابني بعيد عني؟ هل تظنني مثلك؟ تخلصت مني ومن مانويل لتسترخي في بيتك الجديد، وتستمتع بتأمل ألكازار مع عاهراتك...

- أرجوك يا لولا...

- حسنًا يا لوكاس...

أخفضت من صوتها، وبدت مستكينة ومستسلمة فجأة وهي تقول:

- لن أزعجك بعد اليوم، ولن أؤذي مانويل... سيرتاح الجميع.

قالت بهدوء غريب قبل أن تنتفض وتتجه إلى السلالم لتصعد راكضة إلى الأعلى، لم يدرك لوكاس إلى أين هي متجهة، لكنه صعد خلفها متثاقلًا وهو يفكر بالاتصال بالطوارئ، لعل حقنة مهدئة تفيدها في هذه الليلة.

لم تتوقف عند غرف النوم لتفتش عن العاهرات كما توقّع، بل تابعت صعودها إلى الأعلى، وعندما سمع صوت باب السطح يُفتح، تراءى له فجأة مشهدًا من أحد أحلامه، وأدرك الكارثة التي تنتظره، فقفز السلّمات قفزًا لاحقًا بها وهو يصيح:

- لا يا لولا... لا... لا...

لم تسمعه، ولم يلحق بها، إذ قذفت بنفسها من دون تردد من الحافة التي تطل على «ألكازار» الذي كان وحده من شهد جسدها يهوي من العلو الشاهق ليتحطم على أحجار توليدو.

كانت شبه ميتة عندما وصل طاقم الطوارئ، نقلت إلى المستشفى في محاولة يائسة لإسعافها، ورافقها لوكاس.

كانت سلمى ستصل بعد ثلاثة أيام، ولم ينسَ لوكاس رغم انهياره أن يفكر فيها بألم، وأن يكتب وهو منتظر في المستشفى تلك الكلمات الثلاث ويرسلها إليها.

«لقد انتحرت لولا».

خلعت الجملة قلبها، وأصابها الذهول لفترة غير قصيرة وهي تعيد قراءة تلك الكلمات مرة بعد أخرى... وسألت نفسها ماذا يعني هذا، واستعصى عليها الجواب. أرسلت للوكاس تسأله عما حصل، لكنه لم يردّ، وعندما تواصل صمته حتى صباح اليوم التالي، ألغت سلمى حجزها في الطائرة التي كان من المفترض أن تحملها إلى مدريد بعد يومين.

بعد يومين، وفي نفس موعد إقلاع الطائرة، استلمت أخيرًا رسالة من لوكاس:

«لولا لم تمت، لكنها في غيبوبة ووضعها خطر وسيئ جدًا، أنا آسف جدًا سلمى، لنؤجل رحلتك إلى أن يستقر وضعها... هل أنت بخير؟!»

لنؤجل؟؟؟ رددت بينها وبين نفسها بمرارة «من الذي سيؤجل؟! سنلغي... وسننتهي!»

لم تُجبه، وفسّرت ما حصل على أنه إشارة من القدر تدلّ على شيء ما، وعلى ضوء هذه الدلالة، قررت سلمى أن تتوقف نهائيًا عن الاتصال بلوكاس، وعن التفكير به. نفّذت البند الأول بنجاح وإتقان، بينما أخفقت في الثاني، تعذّبت كثيرًا حين كانت تستلم رسائله وتمحيها، وحين تتلقى اتصالاته ولا ترد عليها، وتعذّبت أكثر حين يئس وكفّ عن إرسال الرسائل والاتصال.

المرة الأولى التي عاد فيها للتواصل معها بعد ذلك، كانت بعد أكثر من أربع سنوات، لمّا وصل سعير الحرب إلى حلب.

## -2-

عندما اندلعت الثورة في سورية في ربيع 2011 بعد أن أشعلت فتيلها حادثة أطفال درعا، بدت سلمى غير مستوعبة تمامًا لما يجري. إذ سمعت عن قيام الحكومة باعتقال وتعذيب مجموعة من الأطفال في مدينة درعا جنوب سورية، لكتابتهم عبارات على جدران المدرسة تناهض النظام الحاكم، وتطالب بإسقاطه، تشبهًا بما حدث في تونس ومصر ومن ثم ليبيا، وقد عمد المسؤولون وممثلو النظام في المدينة إلى إهانة الأهالي والسخرية منهم عندما جاؤوا للمطالبة بالإفراج عن أطفالهم. كان الكل في المنطقة مشحونًا بعد متابعة أحداث ما سمي بالربيع العربي. وفي محيط سلمى، وبعد فترة من الإنكار والاستهزاء وعدم التصديق، تحمّس بعضهم للتغيير بينما دب الذعر في قلوب بعضهم الآخر، وسادت حالة توتر غريبة في الأجواء حين بدأ الناس يتناقشون علنًا في السياسة ويفصحون عن آرائهم المكبوتة، الأمر النادر الحدوث والذي لم يتعود عليه السوريون الذين قبعوا تحت حكم نفس النظام لمدة تقارب الأربعين عامًا، حتى اعتبروه قضاء وقدرًا، ومن يناقش القضاء والقدر؟!

مفاجآت كثيرة تكشّفت في تلك الفترة، إذ تبين أن كثيرًا ممن كانوا طوال السنوات السابقة يتذمّرون علنًا من النظام وطريقة حكمه للبلاد، هم من أشد الموالين له في لحظاته الحرجة، تناغمًا مع مصالحهم التي قد تدمرها فوضى التغيير إن حصلت، وبالمقابل تبيّن أن كثيرًا من الصامتين الخانعين أو المواطنين الصالحين خلال عشرات السنوات

السابقة، هم من أشد المعارضين والراغبين بخلع النظام عن كرسي الحكم.

كان لكل طرف أسبابه، ولم تكن كل الأسباب نزيهة، إذ كان الكثيرون يعارضون أو يوالون النظام انطلاقًا من أسباب طائفية بحتة، أو مصالح اقتصادية.

سيطر الذهول على سلمى، وعلى الرغم من أن الأمل راودها بتغيير جذري ينعش الأجواء في البلد ويضعها في المسار الصحيح اللائق بتاريخها، إلا أنها في قرارتها لم تصدق أن هذا الحراك الذي بدأ سلميًا ثم توحّش اقتداء بالطريقة التي حاولوا قمعه بها، سيكون قادرًا على المجابهة والصمود ومن ثم الانتصار والاعتدال والقيام بالبلد إلى حيث تحلم وتتمنى.

مع أنها لم تتعاط بالسياسة قبلًا، إلا أنها أيضًا لم تستطع أن تغض النظر دائمًا عن المآسي التي كانت تمشي إلى جانبها في المدينة.

هي تدرك جيدًا أن حلب الراهنة لا تماثل تمامًا المدينة التي كانت تحكي عنها للسياح الذين يزورون معرضها، وليست فقط تلك الجنة الشرقية التي سحرت لوكاس. وأنّ الشعب الحلبي ليس كله مثلها ومثل جيهان ومثل رواد نادي حلب العريق وحفلات شمس الدين المترفة.

كانت تعرف جيدًا أن لحلب وجهًا آخر، وللشعب الحلبي أيضًا وجهًا آخر. تدرك أن هناك أحياء مكتظة في المدينة لا تعرف منها إلا أسماءها، وأن هناك من القرى الفقيرة التي تحيط بها ما لا تعرف عنها ولا حتى أسماءها، لكنها لم تدري أن الفقر والبؤس والجهل المعشش هناك، هم قنابل موقوتة اقتربت ساعة انفجارها.

الهوة الاجتماعية والمادية التي استمرت تتسع بين أبناء الوطن الواحد كانت تروّعها، أما قصص الفساد وقمع الحريات ووجوب

تقديم فروض الولاء، فهي أشياء اعتادتها وتعايشت معها، إذ عاصرتها منذ ولادتها، واستنشقتها مع الهواء في الحدائق والمدارس والملاعب التي تحمل كلها تقريبًا... اسمًا موحّدًا!

عندما بدأت الدماء السورية تسيل، بدأ قلبها يرتجف. هي تعلم أن ثمن الدم باهظ، وعندما يبدأ النزيف يصبح من الصعب إيقافه. وعندما فُتِحَت الحدود وتحولت سورية إلى مركز لتجمع المجاهدين وساحة لحرب الكبار وحلبة لصراعاتهم السياسية والطائفية والاقتصادية، رأت سلمى حلمها يتلاشى، ويستشهد كطفل بريء سفكت دماءه لعبة العروش، مثله مثل الآلاف من أطفال سورية.

الموسم السياحي السوري اعتاد أن يبلغ أوجه في الربيع والخريف، وقد كانت السياحة (الأثرية منها على وجه الخصوص) قد ازدهرت في سورية بشكل ملحوظ خلال الأعوام القليلة السابقة.

عندما اندلعت الثورة في أواسط آذار كان الموسم السياحي على الأبواب، والحجوزات الدسمة لم تُبقِ في الفنادق أية غرفة شاغرة لمدة ثلاثة أشهر، لكن كل ذلك ألغي مع دخول شهر نيسان، وأقفرت منطقة الجدَيّدة حيث يوجد معرض سلمى، وخلت من روادها الأجانب الذين اعتادوا أن ينتشروا في ساحتها ويقيموا في فنادقها الجميلة ويأكلوا في مطاعمها أطيب أصناف المطبخ الحلبي الشهير.

صارت سلمى تقضي أيامها وحيدة في المعرض، الذي تابعت دوامها فيه بنفس النظام المعتاد، من دون أن يدخل إليه ولو زبون واحد. تجلس خلف مكتبها تحتسي فناجين القهوة الواحد تلو الآخر، وعيناها مسمّرتان على شاشة التلفزيون الصغيرة التي وضعتها هناك مؤخرًا لتتابع قنوات الأخبار التي خصّصت معظم برامجها للحديث عن سورية ولكن بروايات مختلفة.

عندما يصيبها الضجر، كانت تخرج لتتمشى في ساحة الحطب القريبة، حيث تلتقي بأهالي المنطقة ذوي الوجوه المكفهرة والنفوس القلقة جراء الأحداث الراهنة، من سكان الحارة إلى أصحاب الدكاكين وعمال الفنادق والمطاعم القريبة، الذين بدأ عددهم يتناقص ويضمحل يومًا بعد يوم، حتى تلاشى وجودهم وانعدم.

في الأشهر الأولى كانت المظاهرات الكبيرة تخرج من كل مكان في سورية ما عدا مدينتي حلب ودمشق، حيث فرضت السلطة سيطرتها بيد من حديد. كانت سلمى تلمح أيام الجمع عناصر الأمن المدججة بالسلاح الثقيل تحيط بمساجد المدينة في أثناء تأدية الصلاة، إذ درجت العادة أن تخرج المظاهرات يوم الجمعة من المساجد بعد انتهاء صلاة الظهر، لكونها المكان الوحيد المسموح للناس بالتجمع فيه من دون إذن مسبق ومن دون إثارة للريبة. ولكن شيئًا فشيئًا، صار المتظاهرون أكثر جرأة، وبدأوا الخروج في أحياء متفرقة من حلب أشهرها حي صلاح الدين الذي كان أول حي يدخله الجيش الحر، وأكثر حي تضرر في المدينة إذ قُصفت مبانيه بعنف شديد وسُوّي بعضها بالأرض.

ومن حي صلاح الدين، تسللت الكتائب المسلحة للجيش الحر ملتفة حول المدينة ودخلت إلى حلب القديمة من الجهة الشرقية من دون أن تواجه أية مقاومة تذكر. كانت تلك الكتائب، التي بدأت تتخذ مسميات مختلفة مستقاة من مصادر دينية، ما تزال قليلة التعداد بداية، فاستقرت ساكنة لفترة تقارب الشهر ناصبة حواجزها ورافعة أعلامها في عدد من أحياء حلب الشرقية وحلب القديمة، كانت من بينها «ساحة التنانير» التي تبعد حوالي مائة متر عن معرض سلمى. أطفال الحي الذين بدوا متحمسين للأجواء ظنًا منهم أنها لعبة جديدة، أكثر إثارة من كل ما عرفوه من ألعاب في حياتهم، قالوا لسلمى:

– يا آنسة... الجيش الحر هون في ساحة التنانير... تعي تفرجي عليهن.

– ما بدي أتفرج على حدا.

أجابت بحدة، وهي تستغرب وجود كتائب مسلحة معادية لبعضها ضمن مسافة لا تزيد عن زوج من الكيلومترات كانت ساحة الجديّدة مركزها، حيث نصب الجيش النظامي بدوره حاجزًا مسلحًا على مدخل الحي من الجهة الغربية. بدا المشهد لها سورياليًا، كأنه مقتبس من مدينة أخرى أو زمن آخر، أو من لوحة جدارية ضخمة قاتمة الألوان لسلفادور دالي.

رفضت سلمى بعناد ستندم عليه حتى آخر يوم من عمرها، إفراغ المحل من محتوياته.

«ما دمت أنا هنا، أشيائي ستبقى هنا معي». كانت تقول.

إذ لم تصدق أن الجيش الحر سيدخل إلى الحي الذي تحرسه كتيبة من الجيش النظامي، ولم تكن تتخيل ماذا يمكن أن يحصل إن دخلوا.

وقد فعلوا، وكان ذلك في أواسط آب من العام 2012، وبالتحديد اليوم التاسع عشر. كعادتها كانت تحتسي القهوة وتتفرج على أخبار سورية التي احتارت ماذا تصدق منها، عندما فُتح الباب ودخل جارها العجوز أبو مصطفى ووقف أمامها صامتًا، لامع العينين محملهما بخبر لم تدر إن كان مبتهجًا به أم خائفًا منه:

– صباح الخير أبو مصطفى! بادرته.

– ما الهيئة إنّو في خير اليوم يا بنتي!

– خير انشا لله؟!

– أغلقي دكانك وعودي لبيتك... حالًا.

قال وهو يستدير ويسرع خارجًا كأنه أدى مهمته وانتهى، فاستوقفته متسائلة:

- ولكن لماذا... ماذا يحصل؟
- ثمّة حركة غريبة في الحارة!
- ماذا يعني هذا؟
- إنهم يتقدمون!!

للحظة سوريالية أحست سلمى أنها تتحرك ضمن فيلم سينمائي سيئ الإخراج. قامت بعد خروج أبو مصطفى بقلب سريع النبضات، والتقطت من دون تعيين بعض السجاجيد والبسط وبعض القطع الفضية العتيقة ونقلتها إلى سيارتها، أرادت أن تعود مرة أخرى لتجلب كمية إضافية، عندما سمعت صوت رشقة رصاص تلعلع قربها، بقوة خرقت أذنيها واقتلعت قلبها.

«إنهم يقتربون!!!»، فكّرت بهلع ودخلت بسرعة وهي تتعثر بركبتيها المنحلتين، اكتفت بسحب حقيبة يدها، وأغلقت الباب خلفها كيفما اتفق وألقت بنفسها في سيارتها. وقبل أن تتحرك عاد الرصاص يلعلع في فضاءٍ تخيلته قريبًا جدًا فوق رأسها، «إنهم هنا، لقد وصلوا!!!» رددت بهستيريا وطفرت الدموع من عينيها من دون أن تشعر وانطلقت هاربة بسرعة كبيرة وهي تقرأ آية الكرسي.

كان ذلك هو اليوم الأخير في حياتها المهنية ككاهنة في معبد التاريخ الحلبي. هُدِمَ هيكلها، وتحطمت قوارير عطورها وعقاقيرها، حاصر البارود بخورها، وأكلت النار تحفها وبسطها وسجاجيدها بنقوشها المجدولة بالأحلام والأرواح والدماء.

وكان ذلك أيضًا هو اليوم الأخير في عمر مدينة حلب كما عرفتها سلمى، إذ خلعت فجأة كل ملامحها المزركشة والقشيبة ولبست حلّة الحرب.

استولت كتائب الجيش الحر على حلب القديمة، بعد فترة وجيزة

تخللتها معارك كرٍّ وفر ألحقت الأضرار بالمنطقة الأثرية العريقة ما يدمي القلب والروح، كما فرضت سيطرتها أيضًا على ما تبقى من أحياء في القسم الشرقي من المدينة، فانشطرت إلى قسمين عرفا بحلب الغربية وحلب الشرقية، الأول تحت سيطرة الجيش النظامي والثاني تحت سيطرة معارضيه.

ونشطت فجأة حركة الهروب من العنف الدائر في حلب. غادر الكثير من معارف وأصدقاء سلمى إلى لبنان ومن ضمنهم جيهان وأسرتها، واصطحب أخاها سامر زوجته وطفلهما الرضيع وطار بهما إلى فرنسا، والداها طرحا عليها فكرة المغادرة معه لكنها رفضت، فبقيا معها للفترة الأولى ظنًّا منهما كما الجميع أن الموضوع لن يطول، وأن الجيش النظامي سيستعيد السيطرة قريبًا، كما فعل في ثمانينيّات القرن الماضي عندما انتفضت ضده جماعة الإخوان المسلمين.

السفارة الفرنسية كانت قد وجهت إيعازًا إلى كافة رعاياها الفرنسيين المقيمين في سورية ومن ضمنهم أسرة الدكتور سامح العطار لمغادرة البلد، منذ أن بدأت الأحداث تلتهب في العام 2011، لكن الأسرة السورية تجاهلت الأمر الفرنسي لقناعة سيطرت حينها على الكل، بأن حلب محصنة ولن تتأثر بشكل مباشر بما يجري في سورية، لكنها أعادت النظر على ضوء الأحداث الجديدة عندما تحولت المدينة إلى ساحة حرب تعبق برائحة البارود وتسهر مع لعلعة الرصاص وأصوات الانفجارات والقذائف، وتستقبل الصباح مع هدير المروحيات والطائرات الحربية.

في تلك الأثناء، كان لوكاس، الذي أدمن متابعة أحداث سورية وحلب بهوس منذ الخبر الأول الذي ظهر في نشرة الأخبار، يحاول

الاتصال بسلمى من دون جدوى، إذ قطعت الاتصالات الخلوية وأوقفت شبكة الإنترنت في المدينة لفترة طويلة لأسباب أمنية!

ازدادت الأحوال سوءًا شهرًا بعد آخر، خرج المطار عن الخدمة، وقُطعت الطريق الدولية الرئيسة التي هي الشريان الوحيد الذي يصل حلب ببقية المحافظات من الناحية الغربية والجنوبية، وحوصرت المدينة، بحيث صار المنفذ الوحيد لها يقع في الجهة الشرقية الواقعة تحت سيطرة الجيش الحر.

بسبب الحصار عانت سلمى وأسرتها مع أهالي القسم الغربي من شحّ كبير في البضائع عامة والخبز خاصة، وجاء انقطاع الكهرباء والمياه ليكمل أسباب الكارثة التي نزلت كاللعنة على الشعب المسكين الذي لم يستوعب تتالي المصائب على رأسه ولم يفهم بأي ذنب يعاقب.

ناهيك عن رصاص القناصة وقذائف الموت العشوائية من هاون وقنابل يدوية الصنع كانت تطال كل أحياء المدينة، وتحصد أرواح البشر، كـ«رؤوسٍ قد أينعت وحان قطافها». حسب المقولة الشهيرة للحجاج الملقبً بالسفاح.

مدنيو حلب الشرقية، حسبما سمعت سلمى من جيرانها في حي الجديّدة نقلًا عن أقربائهم، لم يكونوا أحسن حالًا من جيرانهم الغربيين، بل أسوأ بكثير، إذ اعْتُبروا بيئة حاضنة للإرهاب وعوقبوا بغارات جوية كثيفة ألقت قذائف متفجرة عشوائية على حاراتهم وأسواقهم المكتظة، وبصواريخ ثقيلة هدمت أبنيتهم فوق رؤوسهم وهم نيام.

نجح لوكاس أخيرًا في الاتصال بسلمى، فانتعشت روحها عندما قرأت اسمه على شاشة الموبايل، وبعد انقطاع دام حوالي أربع سنوات ردت عليه بصوت متعب، واستقبلت لهفته وجزعه بشوق وشجن، لكنها أجابته بنفي قاطع عندما حثّها على مغادرة حلب.

كُسرت نفسها ما إن سمعت أن الحريق يلتهم معرضها، واستطاعت بصعوبة أن تتدبر أمر الدخول إلى المنطقة تحت وابل الرصاص لمعاينة الأضرار، حين كان الدخول ما يزال ممكنًا. كل شيء هناك طالعها بلون أسود، فاسودّ قلبها بالمعيّة، واحترق وجدانها بصمت عند سماع الحسيس الخافت للنيران التي كانت ما تزال تمزمز الأخشاب التي تحولت إلى جمر. هذا الصوت ورائحة الدخان والبارود لم يفارقاها لشهور بعد ذلك اليوم، وعاوداها لاحقًا لسنوات طويلة، في لحظات خاطفة كانت تكوي قلبها وتخنق روحها.

روحها المتعبة بقيت تحوم حول شمس الدين، الذي رفض هو أيضًا مغادرة حلب وانتقل للسكن في شقة أحد أصدقائه المغادرين إلى لبنان، بعد أن دُمّر بيته الجميل أيضًا واحترق بما فيه من تحف وآلات موسيقية وفن وذكريات، وتراث قديم كان يوغل عميقًا في غياهب التاريخ.

في الصيف التالي قرر والداها أخيرًا اللحاق بابنهما إلى فرنسا، لكن سلمى رفضت بحزم. فهي ببساطة لا تستطيع. لا تستطيع أن تغادر وتترك سجادها (أو ما تبقى لها منه) هنا، لا تستطيع أن تغادر وتترك هويتها هنا، وبتحديد أكثر... لا تستطيع أن تغادر إذا بقي شمس الدين هنا، لا تستطيع أن تتخلف عن موعدهما كل سنتين، تخشى أن تضيّعه إن فعلت ذلك فتضيّع نفسها.

سافر والداها من دونها، وبقيت وحدها مع ما تبقى لها من بسط وسجاجيد، تحلم بلحظات لقاء عابرة قد تجمعها بشمس حياتها، وتحرس كناطورة المفاتيح[1]، مفاتيح بيوت المهاجرين وآثار بصماتهم على الأشياء والأماكن. المهاجرون الذين ظنت أن حلب لن تتحمل

---

(1) مسرحية للرحابنة وفيروز

غيابهم، وأنها لن تبقى حلب من دونهم، لكن المدينة الجبارة خيبت ظنونها وبقيت.

جيهان كانت تتصل بها كل فترة من بيروت، لتطمئن منها على أخبار أمها التي رفضت المغادرة بدورها، وانتكست حين سمعت بحريق سوق المدينة القديم الذي كان متاخمًا لبيت جدها الأثري «الخان». ثم ما لبث أن قتلها القهر حين سمعت أن الدار العريقة احترقت أيضًا بعد أن نُهبت كل محتوياتها وتحفها النفيسة التي صمدت لقرون من الزمان قبل أن تختفي في هذه الحرب التي استحقت بجدارة لقب حرب القرن.

# امرأة مجنونة

لأسابيع طويلة بقي لوكاس مرابضًا أمام سرير لولا، متأملًا وجهها الشاحب وسائلًا إياها كل خمس دقائق السؤال عينه: «لماذا تفعلين هذا بي؟».

لم تجبه أبدًا، حتى بعد أن استيقظت أخيرًا من غيبوبتها بشلل في نصفها الأسفل أقعدها فوق الكرسي المدولب لما تبقى من سنين عمرها، وحرمها نهائيًا من حق العناية بابنها، إذ صار عليها أن تتلقى هي نفسها عناية خاصة لتسيير أمور حياتها اليومية، أودعت لأجلها في مركز مختص برعاية ذوي الاحتياجات الخاصة في مدريد.

استقبلت لولا حياتها الجديدة بنفسية أسوأ من التي عاشت بها حياتها الأولى، التي أنهتها يوم ألقت بنفسها من سطح بيت لوكاس. كان كل العاملين في المركز الذي أودعت فيه، حتى المخضرمين منهم وباردي الأعصاب، يتذمرون منها ويضيقون ذرعًا بأخلاقها السيئة وسلاطة لسانها ومزاجيتها الحادة. أُخضعت خلال السنة الأولى لمعالجة نفسية وجلسات مكثفة، استخلص الأطباء منها أن عقدها الداخلية تعمقت أكثر بعد نجاتها من حادث الانتحار، فأصبحت حالة خاصة صعبة ومزمنة وتحتاج لعلاج طويل وبطيء.

أرسل مدير المركز رسالة إلى لوكاس يطلب فيها لقاءه لمناقشة حالة المريضة، وحين ذهب، قرأ عليه المدير تقريرًا فحواه أن النزيلة

المدعوة ماريا دولوريس فاسكيس مونيوس، فضلًا عن حاجتها للرعاية الجسدية بسبب إعاقتها، الأمر الذي يُقدّمه لها المركز، هي بحاجة أيضًا إلى معالجة نفسية مركّزة في مصح مختص. وعليه، وجب نقلها من هذا المركز إلى إحدى تلك المصحات المختصة بحالتها بأسرع وقت ممكن منعًا لتدهور صحتها النفسية.

- هل تنصحني وفق خبرتك بمصحّات معينة يا سيدي؟

- نعم أستطيع أن أرشح لك عدة مصحات متوفرة في إسبانيا، وقد قمت مسبقًا بإعداد قائمة بأسمائها وعناوينها إذا أردت البحث عنها والاتصال بها للاستفسار، رتبتها لك حسب الأفضلية (من وجهة نظري طبعًا) وتلك المؤشرة بنجمة على يسارها، هي مراكز تديرها شركات خاصة وتتقاضى رسومًا عالية للأسف لقاء خدماتها، لكنها محترمة وجيدة جدًا وتعتمد أمهر الأطباء، المراكز التالية هي مراكز حكومية مجانية، ليست سيئة أبدًا لكنها ليست بجودة الخاصة.

- شكرًا جزيلًا لك، الرسوم والأجور وكل تلك الأمور المادية غير ذات أهمية، أفضل طبعًا أن أودعها في أفضل المراكز عسى أن تلقى عناية جيدة وتتحسن.

قال لوكاس وهو يستلم القائمة من مدير المركز، وأضاف:

- امنحني عدة أيام من فضلك لأراسل هذه المراكز، وأظن أنني سأكون بحاجة إليكم لتتواصلوا أنتم أيضًا مع المصح الذي سوف أختاره لشرح حالتها وإرسال التقارير وإتمام إجراءات النقل، أليس كذلك؟

- طبعًا بالتأكيد، أنت عليك فقط أن تختار المركز الذي يناسبك، وسنتكفل نحن بكل إجراءات الانتقال.

- اتفقنا إذن، وشكرًا مرة أخرى... هل يمكن أن أراها؟

في صالة الزيارات، جلست لولا بانتظاره في كرسيها المدولب، شعرها كان مسترسلًا بإهمال وبدت عيناها مطفأتين ومستكينتين.

عندما دخل وجلس أمامها، حدجته صامتة بنظرة قاسية جمّدت الدم في عروقه، فعاوده الشعور الذي صار ينتابه كلما رآها بعد الحادث، شعور الجاني الذي يواجه ضحيته.

- كيف حالك يا لولا؟

- Mierda... سيئة، سيئة جدًا!

- أنا آسف!

صمتت لفترة انتزعت خلالها نظراتها الحادة من وجه لوكاس، وأطرقت، كأنها ترتاح من جولة مجهدة وتريحه، ثم رفعت عينيها إلى وجهه من جديد واستأنفت الجولة الثانية:

- لماذا جئت؟ ماذا تريد؟

تسأله نفس السؤال كلما قام بزيارتها في موعده الشهري الذي لم يتخلف عنه خلال عام منذ وقع الحادث، لكن جوابه هذه المرة جاء مختلفًا:

- سيقومون بنقلك قريبًا إلى مركز آخر، أفضل من هذا، أنا أعرف أنك لست مرتاحة هنا.

- تعرف أني لست مرتاحة هنا؟! وهل تعرف إن كنت سأرتاح هناك؟!

أجابته بسخريةٍ. تَجاهَلَها مُستطردًا:

- هو مركز مختص بحالتك، وستنالين عناية أكبر.

- إلى أين ستلقي بي مجددًا يا لوكاس؟

- اطمئني لولا، أنا أريد الأفضل لك دائمًا، أريدك أن تتعافي.

- أتعافى من ماذا؟ ذلك الجزء الأسفل من جسدي مات ولن يعود إلى الحياة من جديد، لماذا تعذبونني إذن؟ ماذا تريدون مني؟ ماذا تنتظرون؟

- أريدك أن ترتاحي لولا.

- كان الأجدر بك أن تتركني أموت إذن، لماذا أسعفتني؟

- كفّي عن ذلك لولا، أرجوك.

صمتت ثانية، لتعود لسؤاله بعد هنيهة، ولكن بصوت منخفض ورقيق:

- كيف حال مانويل؟

- إنه بخير.

- هل قلت له ما أوصيتك به؟

- أنا أنتظرك لتتحسني، وعندها سيسمحون لك برؤيته، سآتي به إليك لتقولي له بنفسك كل ما تشائين.

- أنا لا أصدقك.

كانت قد أوصته بمجرد أن استعادت وعيها في المستشفى أن يقول لمانويل: «إن أمه تحبه، وفعلت ذلك من أجله، ولم تقصد أبدًا أن تتخلى عنه، وأنها تفضل الموت على العيش بعيدًا عنه».

- أنا لست مثل أمي، لا أريد لابني أن يكبر ويظن أن أمه تخلت عنه!

قالت لولا مكررة على مسمع لوكاس تلك الجملة التي لم تفارق شفتيها منذ أن نجت من الانتحار، وسالت دموعها وهي ترددها من دون توقف، وسالت معها دموع لوكاس الذي كرر وعده لها:

- سأقول له ذلك، أعدك.

مانويل في عامه الثالث لم يكن يأبه لأحزان أمه، ولم يفتقدها، فهو لم يتمتع برعايتها يومًا، ولم يتذوق حنانها إلا فيما ندر. كان يكبر بأمان في سانتاندير في كنف إستير و، غير مدرك لتلك التفاصيل المؤلمة التي يعانيها أبواه هناك في مدريد.

في المصح الجديد، سمح الأطباء للولا بعد عدة أشهر أن تلتقي مانويل بحضور أبيه مرة في الشهر، فداوم لوكاس على إحضار الطفل إليها بانتظام، مكفّرًا عن ذنب يعرف أنه لم يرتكبه لكنه التصق بوجدانه للأبد.

آلام لوكاس جراء محاولة انتحار لولا تعمقت أكثر عندما أعرضت سلمى عنه بسبب رسالته الأخيرة التي أرسلها إليها من جانب غرفة المنتحرة التي كانت ترقد فيها شبه ميتة. عاقبته سلمى بدورها عن ذنبه الغامض الذي ارتكبه عندما كان شابًا يافعًا، حين فتح باب بيته للطائشة الفاتنة التي جاءته حاملة حقائبها، بعد أن قررت أن تعيش عنده وتربط مصيرها بمصيره.

لم يفهم لوكاس موقف سلمى منه، لم يصدق أنها لم تتفهم وضعه الحرج ولم تعذره عندما طلب تأجيل رحلتها إلى إسبانيا، لم يتوقع أن تخبئ خلف عذوبتها الآسرة ورقة مشاعرها قلبًا قاسيًا لا يحنّ ولا يلين، قلبًا كان يعتقد أنه ورغم كونه مسكونًا بغيره، يحمل له من الود الشيء الكثير.

بعد أن استيقظت لولا من الغيبوبة فكّر أن يتجاهل مسؤولياته وظروفه الضاغطة لعدة أيام، وأن يسافر إليها مصالحًا إياها ومعتذرًا عن إلغائه الرحلة التي كانت قد تحمست لها. أرسل إليها رسالة ليجس نبضها كتب فيها:

«هل تستقبل حلب صديقها المتعب، إذا جاءها هاربًا من همومه لعدة أيام؟»

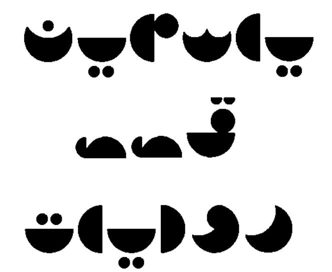
لم يجد هناك نبضًا على الإطلاق، كأن رسالته تاهت في الفضاء ولم تلق من يقرأها. شعر بالإهانة والإحباط، دار في دوامات من الحيرة، وتاه في متاهات من مئات الأسئلة التي كانت توصله إلى جواب واحد يجيب به نفسه: «أنت لا تعرف شيئًا يا لوكاس!»

ولم يكن يعرف شيئًا بالفعل، فبالنسبة إلى سلمى، الشرقية التي قدمت له جسدها وروحها باستكانة وصمت، كانت القراءة مختلفة، فقد أهانتها رسالته الحذرة التي خاطب فيها حلب واستعمل كلمة صديق. استهجنت ما فهمته من الرسالة أنه إصرار منه على تسخيف ما حدث بينهما، مع أن ما حدث لم يكن بنظرها أمرًا بسيطًا. فبالرغم من أنها ما زالت ترفض التورط بالالتزام بعلاقة رسمية معه، إلا أنها لم تغفر له عدم إقراره صراحة بعشقه لها ورغبته في الارتباط بها بعد كل ما كان. أرادت منه أن يعرف وأن يعترف أنها مارست الحب مع رجل يعبدها وليس مع عابر سبيل، حفاظًا على كرامتها وإسباغًا لشيءٍ من الاحترام على تلك العلاقة التي قاما بها. ذرّت تلك الرسالة الملح على جرحها، وعززت موقفها، فتابعت صمتها وحبست أحزانها داخل وجدانها المتعب، وحاولت أن تعود إلى روتين حياتها الأول، الذي كانت تعيشه قبل ظهور ذلك الإسباني فيها.

«هي امرأة مجنونة... وقدري أن أتورّط دائمًا مع المجنونات من النساء!» كانت تلك هي النتيجة التي خلص إليها لوكاس بعد عذاب طويل وتفكير عميق كاد أن يودي بعقله، تفكير حلل فيه شخصية سلمى وعلاقاتها الغريبة بكل الأشخاص الذين أحاطت نفسها بهم

وكل التفاصيل التي اعتمدتها كهوية لها، ابتداء من علاقتها المرَضية بشمس الدين حتى علاقتها بخاتمها، مرورًا بعلاقتها به وبنفسها وبكل تحفة أو قطعة سجاد موجودة في معرضها.

قرّر أخيرًا أن يغلق ملف سلمى الساحر والمؤلم عند هذا الحد، ولكنه سمح لنفسه بليلة أخيرة يقضيها في حضن تلك السجادة الحنونة، كما لم تكن صاحبتها التي باعته إياها في حلب.



# الشمعة الرابعة

تتأبط ذراعي ملتصقة بي وملقية بثقلها عليّ، بينما كنا نسير في شارع ضيق عتيق ومظلم. بكعبها العالي كانت تتعثر بين الخطوة والأخرى على ذلك الطريق المرصوف بالأحجار القديمة، فتتشبث بي وتضغط بكفيها على ذراعي وتقترب أكثر فيدغدغ شعرها وجهي ويحاصرني عطره الخفيف الذي كنت أستنشقه بملء رئتيّ فأنتعش لبرهة ثم أسكر برهة أخرى.

- من هنا.

قالت وأشارت إلى باب موارب لبيت عتيق مضاء بفانوس نحاسي صغير. دفعتُ الباب فداهمتنا موسيقا شرقية ساحرة انبعثت من الداخل ودعتنا للدخول. دلفنا إلى ممر ضيق قادنا إلى باحة فسيحة ذات بلاط جميل ملون، تتوسطها بركة صغيرة مع نافورة ماء، وتتصدرها مصطبة تعلوها بدرجتين مفروشة بالسجاد والوسائد. على تلك المصطبة، جلس متربعًا رجل نحيف أبيض الشعر، يعزف تلك الأنغام الخلابة على قانون في حضنه، وأمامه في الباحة كان بعض الشبان بأثواب بيضاء طويلة وواسعة، وقبعات غريبة الشكل تشبه طرابيش طويلة، يدورون حول أنفسهم رافعي

الأذرع بحركة موحدة ومتناغمة على إيقاع الموسيقا، فتنفتح تنوراتهم البيضاء وتدور معهم وحولهم، حتى لتبدو كبحيرات صغيرة يغرقون فيها رويدًا رويدًا.

ابتسمت سلمى وأشرقت عيناها وقالت وهي تنظر إلى العازف:

- هذا شمس الدين.

- ومن هؤلاء؟

- الدراويش يرقصون المولوية... هم جماعة من الصوفيين، يمضون حياتهم هائمين في عشق الله.

أجابتني ثم أردفت:

- لقد بدأوا من دوني، عليّ أن أسرع.

- إلى أين؟

- اجلس هناك يا لوكاس، تفرّج عليّ، وانتظرني.

جلستُ حيث أشارت، ونظرت إليها وقد انضمت إلى الدراويش، وشاركتهم رقصتهم الصوفية على إيقاع عزف شمس الدين، لاحظت أنها ترتدي الثوب الأبيض ذاته، الذي انفتحت تنورته الواسعة وابتلعتها في بحيرة بيضاء لا قرار لها. خلعت حذاءها عالي الكعب الذي كان يعوقها عندما كنا نسير سويًا، ومضت ترقص حافية بخفة وانسجام، مطيعة أوامر الموسيقا التي كانت تصنعها أصابع ذلك الرجل الغريب أثناء مداعبته للأوتار.

وجهها كان يشع نورًا، وقد أسبلت عيناها بخشوع راهبة تصلي وبنشوة عاشقة تمارس الحب. رقصة

ذات حركة واحدة، تدور وتدور حول نفسها كأنها في دوامة لا بداية لها ولا نهاية، ذراعاها اللتان ضمتهما إلى صدرها بشكل متقاطع في بداية الرقصة، فتحتهما وبدأت ترفعهما إلى أعلى شيئًا فشيئًا كلما زادت من سرعة دورانها تناغمًا مع سرعة الإيقاع الذي يحركها.

انتشيتُ بالموسيقا المُسكرة وبمراقبة سلمى، التي اشتهيتُ أن أقطف قبلة من شفتيها المنفرجتين كأنهما تطلقان آهةً أبدية بعيدة الأفق، وطالت الرقصة، اختفى الدراويش وبقيت سلمى تدور وحيدة حول ذاتها، وشمس الدين يعزف. ازداد شوقي ورغبتي، فقمت إليها وطوقت خصرها بذراعي وهمست في أذنها:

- ألم تكتفِ من الدوران بعد؟

دفعتني برفق وقالت:

- لا أستطيع أن أتوقف قبل أن يتوقف العزف، انتظرني يا لوكاس، سأجيئ إليك وسأعطيك هذا.

أشارت إلى خاتمها، وقبلتني في شفتي قبلة عذبة، ثم عادت لانخطافها وتابعت دورانها وقد سالت دمعة على خدها. ابتعدتُ بضع خطوات لأفسح المجال لتنورتها الواسعة وذراعيها الممدودتين، عندما شعرت بذراعين صغيرتين تطوقان ساقي، نظرت إلى الأسفل، فوجدت مانويل عاريًا ومبللًا، يقطر الماء من شعره وترتجف شفتاه، حملته وضممته إلى صدري، قبلت رأسه الصغير وأنا أتمتم:

- ستكون بخير يا صغيري، ستكون بخير.

تذكرت سلمى، نظرت إليها فوجدتها تدور في مكانها على نفس المنوال، لكن النار كانت قد اشتعلت في أطراف ثوبها، فبدت كأنها تغرق في بحيرة من لهب.

- توقفي يا سلمى.

صرخت بها وقد أصابني الهلع فلم تردّ، تابعت الرقص مستلبة بالموسيقا التي لم تكن تسمع غيرها، فتوجهتُ إلى شمس الدين الذي كان بدوره يتابع العزف هادئًا وقد بدأت النار تلتهم الوسائد من حوله:

- توقف عن العزف، دعها تتوقف عن الرقص.

صرخت به، فنظر إليّ بعينين باردتين واستمر في عزفه من دون اكتراث. بدأ مانويل بالبكاء، ثم تحول بكاؤه إلى صراخ حين ارتفعت ألسنة اللهب حولنا، فخرجت به هاربًا إلى اللامكان، ركضت وركضت وهو يبكي بين ذراعيّ، وموسيقا شمس الدين تلاحقني، وأتخيل سلمى تدور وتدور حول نفسها هناك، تبتلعها الموسيقا... تبتلعها النيران... ويبتلعها شمس الدين.

بعد حين من الجري ابتعد صوت الموسيقا حتى اختفى تمامًا... وتوقف مانويل عن البكاء، وأرخى ذراعيه الصغيرتين اللتين كانتا تطوقان عنقي... وأشار بسبابته اليمنى إلى الأمام... وقال لي: سنجدها هناك... لم أسأله عمنَّ يتحدث... لأنني كنت أراقب مشدوهًا الخاتم الذي كان يضعه في سبابته... كان هو... خاتم سلمى.

توليدو 03/03/2008

# في الحرب

## -1-

اكتشفتُ أن التأقلم مع الحرب هو أمر غير مستحيل، لكنه يفرض تغييراتٍ كبيرة في شخصية المرء وأسلوب حياته، وعلى الرغم من أن أسلوب حياتي الجديد لم يعجبني كثيرًا، إلا أنني اعتدته بعد فترة من المعاناة والألم.

في الأشهر الأولى من الحرب، كان الخوف والتوتر هما المسيطران الأساسيان على مشاعري المضطربة، مع إفساح المجال لقهر مرير يغوص في عمق قلبي كلما سمعتُ بالكوارث التي تتوالى وراقبت تطور مجرى الأحداث.

أما في الشهور اللاحقة، عندما لم يعد الموت مهيبًا ولا الدمار صادمًا، فقد توارى الخوف وساد الفراغ، مع ما يصاحبه من ملل قاتل ويأس، وفقدان الأشياء لقيمتها، حتى صار كل شيء في الحياة سخيفًا، ابتداءً من الحياة نفسها وانتهاء بالموت الذي عبّقت رائحته العفنة هواء المدينة.

المتنفس الوحيد لي في تلك الفترة الخانقة، كان شمس الدين، التفكير بشمس الدين، الحلم بشمس الدين، انتظار موعدي الشهي مع شمس الدين.

عندما التقيته للمرة الأولى في زمن الحرب، كان قد فقد مسبقًا بيته النفيس بكل ما يحتويه، وجمّد نشاطه الفني بعد أن تفرّق أعضاء فرقته ما بين مهاجر ومعتقل وشهيد، وجندي في الجيش النظامي وجندي في الجيش الحر، لم يبقَ له إلا القانون الذي حمله معه حين غادر

منزله للمرة الأخيرة، وبعض الأصدقاء الطاعنين في السن ممن لم تقوَ عليهم رياح الحرب أو لم تأبه لانتزاعهم من جذورهم.

بدا لي مختلفًا، وكأنه قد هرم فجأة وظهر أكبر من عمره الحقيقي الذي بلغ الستين.

- هل أنت بخير؟

- حسنًا... أعتقد أنني بخير... رغم كل شيء... ما زلت أفضل من كثيرين غيري.

نظراتي المتفحصة لم تصدق كلماته، فعاودت السؤال بصيغة أكثر وضوحًا:

- هل صحتك بخير؟ لا تبدو لي بصحة جيدة.

رسم ابتسامة حلوة على وجهه المتعب وقال:

- لا تقلقي يا صغيرتي... بعض المتاعب الصحية، ليست بذات أهمية.

أقلقني التعب البادي في ابتسامته، وسألته:

- لماذا لم تعد إلى وطنك؟

توقعت أن يجيبني «هنا وطني» لكنه لم يفعل، بل أغلق عينيه بألم، وأجاب باقتضاب:

- لا أدري!

فاجأتني إجابته، إذ كان يبدو لي دائمًا الرجل الذي يعرف كل شيء.

- وأنت يا سلمى، لماذا لم تغادري مع عائلتك؟

أنا كنت أدري، لكنني لم أقوَ على التصريح، اكتفيت بنظرة عميقة حمّلتها الإجابة التي سمعها شمس الدين بوضوح، وفاجأني مرة أخرى حين لم يعترض ولم يحتج ولم يتلو عليّ نصائحه المعتادة، بل

على العكس تمامًا، أشرق وجهه الذي كان مظلمًا، وابتسم بصفاء وهو يقول لي:

- أنت فتاة فريدة يا سلمى!

- لقد صرتُ امرأة الآن!

- وأنا صرتُ شيخًا!

- ألا تلغي الحرب الزمن؟

- لا تنتظري مكاسب من الحرب يا صغيرتي!

لكنني في الحقيقة كنت أنتظر، وظللت أنتظر. توقعت أن تطيح عبثية الحرب، في جملة ما أطاحت به، بمقاومة شمس الدين لحبي، توقعت أن يعترف مثلي أنه لم يعد لأي شيء الآن قيمة، إلا هذا الحب الذي يسكن قلبي، لكن الفنان العنيد بقي متمسكًا بمقاومته حتى النفس الأخير، أو... ما قبل الأخير.

## -2-

تحت وطأة الفراغ والعبثية اللذين جثما على صدرها في الفترة الأخيرة، قررت سلمى أن الوقت قد حان لأن تفتح دفاترها القديمة، لتراجع كل ما كانت قد دونته فيها من ملاحظات، كرغبات مكبوتة وخطوات مؤجلة ومشاريع صغيرة مع وقف التنفيذ. البند الذي تكرر كثيرًا فيها كان: «جدتي ماري»، فقررت أن تبدأ به.

لطالما شعرت سلمى بمشاعر متناقضة تجاه عائلة أمها التي تنكرت لها بمجرد ارتباطها بأبيها المسلم، حسب مبدأ: «كل من ليس مثلنا، هو أدنى منا». هذا التنكر كان يشعرها بكم هائل من الاحتقار، بادلته هي بالتجاهل والكبرياء، وقمعت داخلها الرغبة الكبيرة في التعرف على جديها وأخوالها، وتعمدت معاملتهم بازدراء ملحوظ كلما صادفتهم في المدينة.

جانيت كانت تتحدث بالهاتف من وقت إلى آخر مع والدتها، التي تعودت أن تطلبها خلسة لتطمئن عليها في غفلة من الأب المتشدد الذي أصدر «فرمانه» القاطع منذ وقعت الواقعة، ولم يتراجع عنه على الرغم من مرور السنين، إذ كان يعتقد جازمًا أنه يجب أن يدوس على قلبه ليحافظ على إيمانه وينصر دينه.

قبل انتشار الهواتف المحمولة، واظبت الجدة على الاتصال بالهاتف الثابت لبيت الدكتور سامح، وكانت تضع السماعة بارتباك إذا سمعت صوتًا آخر غير ابنتها جانيت يجيب على المخابرة، كل فرد من

عائلة الدكتور سامح صار يعرف ذلك، ويقول لجانو بمجرد أن يقطع المتصل الخط عند سماع كلمة آلو: «إنها هي... أمك تطلبك!»

- أمي امرأة طيبة، ووالدي كذلك، لكنه صارم وقاسي القلب.

تقول جانيت لأولادها، فتجيبها سلمى:

- والدك رجل متعصب ومتخلف، وبسبب أمثاله، تحدث كل تلك الكوارث في الكرة الأرضية.

كانت في العشرين عندما سمعت خبر وفاة جدها، لم تحزن من أجله، بل من أجل أمها التي لم تجرؤ على المشاركة في جنازته، وأغفلت العائلة اسمها في ورقة النعي.

لم تنسَ سلمى، أن أمها، حتى بعد وفاة والدها، جبنت عن زيارة والدتها في بيتهم في حي السليمانية، خوفًا من مصادفة أحد أخوتها أو حتى أحد الجيران. لم تكن جانيت تحب الذهاب إلى هناك، إذ كان مجرد اقترابها من ذلك الحي وتلك المنطقة كلها، يلقي عليها بثقل ذنب كبير عاشت عمرها تهرب منه وتتجاهل إحساسها به.

عند اندلاع الحرب، عرفت جانيت من أمها أن أختها فيفيان هاجرت مع عائلتها إلى السويد، وبعدها بعدة أشهر حذا أخوها الأصغر حذوها، وعندما سافرت إلى فرنسا بدورها، كان الأخ الأكبر، الذي أصيب بيته في حي الجلاء بقذيفة مدمّرة، قد انتقل لتوه مع عائلته للسكن مع أمه ماري في بيتها الواقع في حي السليمانية الذي يعد من الأحياء الآمنة نسبيًا.

بعد مرور عام تقريبًا على هجرة والديها، خطر لسلمى أن تسأل أمها ذات يوم في أثناء مكالمة هاتفية عن جدتها، فأجابتها مختنقة بدموعها أنها نقلت إلى دار «مار منصور» لرعاية المسنين لأن زوجة أخيها لم تقوَ على العناية بها إثر إصابتها بالألزهايمر!

ألزهايمر... فكرت سلمى، عسى أن الطريق صار آمنًا الآن، وقد صار بإمكانها أن تتعرف إلى جدتها ماري أخيرًا من دون أن تخشى نظرات الاحتقار التي تخيلت دائمًا أنها لن تتحمل أن تراها في عينيها. عسى أن يمحي الألزهايمر من دماغها ذلك الاحتقار في جملة ما يمحيه.

ذهبت لزيارتها، وقالت للقائمين على الدار:

- أنا سلمى العطار، وأريد زيارة جدتي ماري خوري.

- هل أنت ابنة الدكتور سامح العطار؟

كل سكان المدينة يعرفون أو يسمعون بالدكتور سامح العطار، وكان الكثير منهم يعرف من هي زوجته ومن هم أهلها، حلب لا تنسَى، ويتعمّد الناس تكرار هذه القصص كوصمة دائمة. لذلك، لم يتفاجأ أحد في دار «مار منصور» حين جاءت سلمى تطلب رؤية جدتها.

- هي مصابة بالألزهايمر، ربما لن تتذكرك!

قالت المشرفة، فأجابتها سلمى في سرها «هي لا تعرفني لتتذكرني».

- ما زالت في المرحلة الأولى من المرض، أي أنها بالرغم من نسيانها للأحداث الجديدة إلا أنها بقيت تتذكر بدقة فائقة الأحداث القديمة بكل تفاصيلها.

- لا بأس.

فكرت سلمى أنها، ولكونها لا تنتمي إلى أي حدث قديم أو جديد في حياة جدتها، فلن يكون عليها أن تقلق من احتمال نسيانها. وقالت:

- لعلها تتعرف عليَّ اليوم... من جديد.

كانت قد لمحت جدتها ماري عدة مرات من بعيد، وحفظت لها في ذهنها صورة لم تطابق تمامًا تلك التي بانت لها عندما جلست على بعد متر واحد منها.

شعرها، الذي يبدو أنها توقفت عن صبغه عند دخولها الدار أو ربما منذ إصابتها بالمرض، بدا قصيرًا وناصع البياض، عيناها شاردتان في المجهول ويداها العجوزتان كانتا مشغولتين بترتيب شال صوف بني ملقى على أكتافها فوق «روب دوشامبر» أخضر.

- ماري... انظري من جاء ليراك!

قالت لها المشرفة وهي تميل عليها، وتساعدها في ضبط وضعية الشال.

- شكرًا لك، أستطيع أن أتدبّر أمري معها وحدي.

قالت سلمى للمشرفة التي فهمت قصدها فانصرفت وهي تقول:

- سأكون في الحجرة المجاورة.

- مرحبا جدتي... كيف حالك؟

قالت لها لتجذب نظراتها التائهة، ونجحت أخيرًا، إذ تعلقت عينا العجوز بوجهها واستكانت هناك، وبقيت لبرهة ليست بالقصيرة تحدق فيه باهتمام ووجل، حتى قالت أخيرًا:

- جانو؟؟ متى جئت من السفر؟

ارتجف قلب سلمى، وشعرت بالدموع تتجمع في عينيها، من دون أن تشعر وخلاف ما خططت، وجدت نفسها تلتقط كفي جدتها وتضغط عليهما:

- أنا لست جانو... أنا ابنتها.

- ابنتها؟؟!! قالت العجوز بذهول، وأضافت: هل تزوجت جانو؟ متى تزوجت؟

ابتسمت سلمى وقد تلاعبت بوجدانها مشاعر غريبة:

- تزوجت منذ زمن بعيد، بالدكتور سامح!

اتسعت عينا الجدة وسألت:

- من هو هذا؟ هل هو رجل جيد؟
- نعم يا جدتي، هو رجل طيب!
- هل سيأتيان لزيارتي؟
- هل ترغبين بذلك؟

صمتت الجدة وعادت للتحديق في الفراغ، ثم قالت بعد هنيهة:

- فيفيان أيضًا لا تأتي لزيارتي... لا أعرف لماذا... قد تكون سافرت هي الأخرى.
- لكنني هنا... وسأزورك دائمًا إن رغبت في ذلك.

حررت العجوز كفها ورفعتها لتلامس وجه سلمى، ثم سألتها بصوت هامس، كأنها تفشي سرًا:

- أنت ليلي؟

تحرك شيء ما في قلبي عندما سمعت اسمي، وعرفت أنه مسجّل على الأقل ضمن القوائم القديمة في ذهن جدتي، فطفرت الدموع من عينيّ.

- نعم أنا ليلي. ابنة جانو.
- أنت جميلة مثلها... اقتربي لأقبل وجهك الجميل.

وكانت القبلة التي لن أنساها، إذ استنشقت فيها لدهشتي البالغة رائحة أمي، ممزوجة برائحة تلك العجوز التي تبدو غريبة، ولكن مألوفة إلى حد التماهي مع دفء عتيق، إلى حد التضوع بالرائحة التي استنشقتها مع أول نفس دخل إلى صدري.

انتابتني رغبة قوية بأن أشتت الغربة التي لم تبارح المكان بعد، رغم الألفة التي تسللت إليه بتردد وخجل، كتلميذ يدخل الصف للمرة الأولى ولا يجد كرسيًا ليجلس فيه.

تمنيت للحظات أن أصاب أنا الأخرى بالألزهايمر، لأمسح من

ذهني كل التفاصيل القاسية التي حكمت تلك العلاقة وأستقبل عوضًا عنها تفاصيل أخرى من حياة مَنْ كانت السبب في وجود أمي.

أحببت أن أتغلغل في عمق تاريخ تلك العائلة التي أخذت منها نصف جيناتي، لأبحث عن أي أثر لي هناك يمكن أن يؤكد انتمائي الذي نبذته كل تلك السنين بعد أن نبذني.

- حدثيني يا جدتي...

- أحدثك؟ عن ماذا؟

- عن أي شيء، احكي لي مثلًا...كيف تزوجت جدي، وكيف كان عرسكما؟

ضحكت ماري وأشرق وجهها، وأرسلت نظراتها إلى البعيد كأنها تتفرج على شاشة خفية تعرض صور حفل زفافها.

- تزوجنا سنة الطوفان.

- طوفان؟ متى حدث ذلك؟

- سنة الـ 52، كان عمري ستة عشر عامًا عندما طلبني صبحي للزواج، كنت صبية جميلة... مثلك هكذا... أمه كانت ابنة خالة جارتنا أم إلياس في حي الحميدية. ذلك الموسم وقبل الزفاف بحوالي شهر، حصل الطوفان.

- آاه نعم... تذكرت أني سمعت عن ذلك، عندما ارتفع نهر قويق ارتفاعًا كبيرًا أخرجه عن مجراه، وطافت المجاري في الأزقة والبيوت القريبة من مجرى النهر، ومنها حارات العزيزية ومحطة بغداد، حتى بلغ ارتفاع المياه أكثر من نصف متر هناك... صحيح؟

- صحيح... عمتي أنطوانيت كانت تسكن مع زوجها وأولادها الأربعة في شقة أرضية في محطة بغداد، عادت وزوجها إلى بيتهما تلك الليلة بعد سهرة عند بعض الأقارب لتجد الشقة غارقة في مياه

قذرة يسبح فيها الأثاث وتطفو على سطحها القطع الخفيفة منه. أولادها كانوا عند الجيران في الطابق الثاني، ملتفين بما تيسر من مناشف عند جارتهم ويرتجفون من البرد بينما تقطر المياه من شعرهم. جاؤونا ليلتها على عربة طنبر.

- طنبر؟ ماذا يعني؟

- طنبر... يعني عربة ذات دواليب كبيرة تجرها جياد أو بغال.

- صحيح... لتستطيع أن تعبر الحارات الغارقة بالمياه... أليس كذلك؟

- نعم... نعم.

- وبعد أن وصلوا في تلك الليلة؟ كم ظلوا عندكم؟

- أقاموا عندنا لفترة طويلة... لا أذكر كم طالت... ريثما انحسرت المياه وتمكن الوالدان من إعادة تصليح ما يمكن إصلاحه ليعود البيت جاهزًا للسكن من جديد.

- عمتك وزوجها وأربعة أطفال؟

- أربعة قرود... وأنا كان «عرسي قايم»[1] في تلك الفترة، فضجَّ المنزل بإخوتي الخمسة وأولاد عمتي الأربعة، ما أربك أمي وأم يوسف الخيّاطة التي كانت تداوم عندنا كل اليوم لإنهاء «الجهيز»[2] في الوقت المحدد له قبل يومين من موعد العرس. لقد أودوا بعقل المسكينة إذ سرقوا مقصها ذات يوم، ورسموا بيوتًا وعصافير على أحد الفساتين التي كانت تطرزها عندما دخلت إلى الحمام في يوم آخر، غضبت عدة مرات وتركت البيت، لكن أمي كانت تسعى خلفها

(1) العرس قائم: يقصد بها فترة التحضير للعرس.
(2) الجهيز أو الجهاز: ملابس وكسوة العروس وحاجياتها التي تصطحبها معها إلى بيت زوجها.

وتطيّب خاطرها كل مرة، وانتهى بها الأمر بأن تفرغت لمساعدتها... بذلت الاثنتان كل جهدهما حتى تم الاحتفال يوم الجمعة بعَرْض الجهاز «المنظوم» ثم نَقْله إلى بيت احماي حيث كنت سأعيش بعد الزواج، في حارة مجاورة لحارة بيت أهلي في حي «الحميدية» نفسه.

- ومتى احتفلتم بالعرس يا جدتي؟

- يوم الأحد كان الإكليل، في الساعة السابعة مساءً في بيت احماي.

- في البيت؟ وليس في الكنيسة؟

- في البيت، «إيه لكَن»!... كما جرت العادة. في ذلك الوقت لم تكن كل الناس تتزوج في الكنائس... وقد كلّلنا المطران إيزيدور فتال الذي كان صديقًا لوالدي واثنان من الخوارنة وبحضور كل الأقارب والأصدقاء. وبعد الإكليل بدأت السهرة العامرة.

- في نفس البيت؟

- في الحوش نفسه... حوش بيت احماي.

- وكيف اتسع المكان؟

- «بيت الضيق بيسع ألف صديق»، خصوصًا إن كان «حوش عربي» كبير. استأجروا كراسي خيزران وصفّوها في الباحة ليجلس المعازيم، وعلى الليوان جلست «النوبة».

- نوبة؟

- نوبة منظومة! عوّاد وقانونجي وكمنجاتي ورقّجي وطبال ومغني. الجيران شاركوا من أسطح بيوتهم، وكانت ليلة من العمر، بطقسها الربيعي المعتدل الذي لم يفسده هطول المطر. أكل الناس فيها وشربوا ثلاث «دمجانات»*3 من العرق، ورقصوا حتى طلوع الفجر حين دارت عليهم صواني حلوى البلورية بالفستق الحلبي.

- «يا مسعدك صبحية»؟ سألتها بشجن فأشرق وجهها، وصفقت

العروس بكفّيها إيقاع تلك الأغنية الشعبية القديمة التي اعتاد الحلبيون أن يختتموا بها سهراتهم مع شقشقة الفجر، ثم طفقت بالغناء.

- يا مسعدك صبحية... مع طلعة الفجرية... كتر الدلال يلبقلك... وأنا العذاب كلو عليَّا.

شاركتها:

- آه يا سلام يا سلام يا سلام... آه يا سلام والله الليل ما بنااام.

«قومي لعبي جوز ولوز... يا مطلقة ومالك جوز...»

ركبتُ سيارتي وأنا أدندن تلك الأغنية بسلطنة وشجن، دموعي تسيل على خديّ من دون أن أستطيع التحكم بها، لم أعرف ما نوع الانفعالات والمشاعر التي تجتاحني، لماذا أبكي بينما كل ما فيّ يرقص؟ كأن الفرح والنشوة يصبحان في زمن الحرب وجعًا أشد وطأة من الحزن، ليالي حلب القديمة... الطرب... دمجانات العَرَق... جدتي؟ مدينتي؟ الحرب؟ شمس الدين؟ كنت مقهورة... مقهورة حتى الوجع، ومنتشية حتى التحليق بتلك الأغنية التي رفعت صوتي عندما أغلقت باب السيارة وغنيتها بكل جوارحي من خلال دموعي الحارة وشهقاتي:

«بيعي الفرشة واحويلك جوووز... ليدفيكي بالشتوية... آه يا سلام يا سلام يا سلام...»

سحبتُ منديلًا مسحت به عيني وأنفي الذي يسيل، كان الظلام قد بدأ يهبط على شوارع المدينة المقفرة إلا من بعض المارة البائسين، وانتبهت إلى أن سيارتي تكاد تكون الوحيدة في الطريق. قبل الحرب كانت تستغرق المسافة التي قطعتها أكثر من نصف ساعة من شدة الازدحام، بينما أعبرها اليوم في دقائق معدودة مغلّفة بهدوء وصمت قاتل، وكأنني في مدينة مهجورة.

فجأة، طرق رأسي سؤال مباغت: هل انتهت الحكاية؟ هل ستتحول هذه المدينة إلى مدينة منسية أو ميتة لتنضم إلى رفيقاتها «المدن الميتة» المتناثرة على هضاب وجبال إدلب المجاورة.

طيف جدتي أم محمود الإدلبية الأصل، والتي توفيت في السنة الأولى للحرب، زار ذاكرتي فجأة كأنه غار من انشغالي بجدتي الأخرى. الحاجّة رئيفة ابنة مزارع وتاجر الزيتون الأشهر في سورية، تراءت لي في شرفة بيتها في حي السبيل، تبسمل وتسقي أصص الفل والياسمين وقلب عبد الوهاب والعسلة، قبل أن تجلس في ركنها وتطلب مني أن أسكب القهوة، التي فاحت رائحتها الزكية المعطرة بالهال وامتزجت بعبير الفلّة التي كانت الجدة تداعبها منذ هنيهة.

في أثناء ارتشاف القهوة كررت أم محمود على مسمعي دعواتها لي بأن يرضى الله عني ويرزقني بابن الحلال الذي يقدّرني ويسعدني، ثم أكملت بسرد قصة خطبتها للحاج عبد الله العطار الذي لم يكن حاجًا بعد، بل شابًا يافعًا يساعد أباه في دكان العطارة بالمْدينة حيث عرف والدها.

- اللهم صلي عالنبي... أبيض أحمر بيدخل بهالباب بيسدو... جاب معو لإدلب جاهة[1] وقت الطلبة نص كباريّة حلب، والمليك[2] اللي لبسني ياه... كل حلب وكل إدلب حكت فيه... مخمّسة وجنزير وسوارة جنزير وست مباريم... إيييييه... يما ألف رحمة ونور تنزل عليك يا حجي.

---

(1) الدمجانة: وعاء يتسع لـ5 ليترات

(2) الجاهة: مجموعة من الوجهاء يرافقون الشاب الراغب بالزواج إلى بيت الخطيبة أثناء طلب يدها لتزكيته أمام أهلها، المليك: الهدية التي يقدمها الخطيب لخطيبته وتكون عادة من الذهب: المخمّسة: ميدالية من الذهب، مباريم: أساور ذهبية صيغت بطريقة مميزة

عندما وصلت بيتي، جلست سارحة أمام مرآتي أتأمل صفحتها ولا أرى فيها صورتي، بل انعكاسات أخرى لها تدفقت من مخيلتي وغمرت المكان بتفاصيل قديمة توهجت ألوانها الباهتة فجأة.

اختلطت في رؤيتي الصور وتداخلت الأحداث والشخصيات، رأيت في مرآتي رئيفة عروسًا يافعة ترقص بخجل في ليلة عرسها في باحة دار جميلة في حي الحميدية، و«النوبة» تعزف لها وتغني: يا مسعدك صبحية. وتخيلت ماري حاجة بشوشة تشبك فلّة نضرة على صدرها، تجلس في شرفة مشمسة وهي تحدق في قعر فنجان القهوة التي كانت حفيدتها قد قلبته بعد أن فرغت من ارتشافه، باحثة لها فيه عن سمكات الرزق وابن الحلال.

أخذت إلى حضني الكتاب الذي سلبني راحتي بينما كان يستريح في غرفتي منذ سنوات، فتحته وبحثت قليلًا عن جملة تاق وجداني إليها فجأة، وجدتها بعد برهة، فقرأتها بتمهل كعطشان يرتوي بكأس من الماء:

« مادام المصباح قد أُشعل من شمعة، فكل من رآه رأى الشمعة يقينًا.»

أنت لا تعرف شيئًا يا لوكاس

# -1-

اشترى لوكاس الآيباد لكنه لم يلفه بورقة ملوّنة لأنه كان يعرف أن مانويل سيصر على معاينته قبل تقديمه لجدته.

- عساه ينال الرضى، ويطابق المواصفات!

قال لنفسه وهو يفكر بابنه الخبير بالتكنولوجيا الحديثة، والذي أرسل له المواصفات المطلوبة للآيباد، قبل أن يشتريه، عبر رسالة واتساب عقب حديثهما الهاتفي.

عندما انتهى من تجهيز حقيبة صغيرة تكفيه لقضاء ليلة في سانتاندير، رنّ هاتفه، ظن أنه مانويل، لكنها كانت مونيكا.

- مرحبا عزيزي، لم تتصل!

كان قد نسيها تمامًا، فأربكه اتصالها وتلعثم وهو يقول لها:

- آسف جدًا مونيكا، لن أراك هذا المساء، أنا مسافر إلى سانتاندير.

- ماذا تقول؟ أنا لم أرك منذ أكثر من أسبوع، ألم تشتاق إليّ؟

- بلى... طبعًا... ولكن... هو عيد ميلاد أمي ويجب أن أكون معهم.

- ولماذا لم تقل هذا منذ الصباح؟ لقد رتبت أموري لنتعشى معًا.

- المعذرة مونيكا كنت ناسيًا إلى أن هاتفني ابني... لن أتأخر هناك بكل الأحوال... يومان فقط، وسنلتقي بعدها.

رفعت نبرة صوتها وقالت بضجر:

- لا لا... هذا غير مقبول أبدًا... أن تقول اعذريني في اللحظة الأخيرة وتذهب... ماذا جرى لك يا لوكاس؟ أنت لم تعد طبيعيًا...

- لا تصرخي من فضلك... هذه هي ظروفي الليلة ولا أستطيع أن أغيرها.

- هل ثمّة امرأة أخرى؟

- ما هذا الهراء؟

- أنا أحبك يا لوكاس.

- حسنًا مونيكا... أعرف ذلك.

- لا... أنت لا تعرف شيئًا يا لوكاس.

أنهت المكالمة وتركته يستشيط غضبًا... لم يكن غاضبًا منها بقدر ما كان غاضبًا من نفسه، فهو في كل مرة ومع كل النساء اللاتي مررن في حياته، لا يعرف كيف يوجه دفة العلاقة، ولا يعرف كيف ينهيها حين يشعر بالرغبة في ذلك، فقد تعوَّد أن يتجاهل رغباته خوفًا من دموع النساء وخشية إيلامهن، كان يدرك مشكلته تلك ويكرهها، ولا يدري كيف يعالجها.

حمل حقيبته والآيباد ونزل من البيت، ركب سيارته وانطلق بسرعة تتناسب مع توتره العالي، وقد زاده ارتفاعًا تفكيره في أخيه ميكيل أنخل، الخبير في العلاقات مع النساء والمستقر منذ سبع سنوات في علاقة زواج ناجحة. نصحه ميكيل أنخل مرارًا بأن يكون حازمًا في علاقاته، لكنه لم يدلّه كيف يفعل ذلك. كان يفكر بزيارة أخصائي نفسي، لإدراكه العميق أن الموضوع ليس مجرد طيبة قلب، إنما هو مرض ويجب أن يعالج. فكر أن يستشير أخاه بما يتعلق بمونيكا، فطلبه على الهاتف:

- ميكيل أنخل... كيف حالك؟

- لوكي... اشتقت إليك... أين أنت؟

- في طريقي إلى سانتاندير... غدًا عيد ميلاد ماما... ألن تأتي؟

- آه... لقد نسيت تمامًا!!
- تعال إذن... ستكون فرصة جيدة لنلتقي...
- سأحاول.
- بل تعال... أحتاجك في أمر ما...
- أمر ما؟؟ قل لي...
- لا... ليس الآن... يجب أن نتكلم بهدوء.
- حسنًا لوكي... سأبذل قصارى جهدي.
- أتمنى أن أراك غدًا إذن.
- أرجو ذلك... إلى اللقاء.

اتصلت مونيكا ثانية، رد عليها من دون تردد على الرغم من أنه كان في نفس اللحظة يفكر في كيفية التحرر منها.

- لوكاس... عندي فكرة.
- قولي؟
- لماذا لا أذهب معك إلى سانتاندير؟ ستكون فرصة جميلة لأتعرف بعائلتك، أليس كذلك؟

«بماذا تراني أجيبها... هذه المرأة؟»، فكر لوكاس بغيظٍ جاهد لكتمانه ثم قال:

- في فرصة أخرى مونيكا، لقد خرجت إلى الطريق منذ فترة ولا أريد العودة من جديد من أجلك.
- أستطيع اللحاق بك بسيارتي.
- لا مونيكا! اليوم لا!

صرخ بصبر نافد، ثم عرف من صمتها وصوت تنفسها أنها تبكي، فلان قلبه وقال بصوت أكثر دفئًا:

- عزيزتي، أعدك أنني سأصطحبك قريبًا إلى هناك، لكن ليس اليوم، أنا آسف.

- حسنًا لوكاس، اتصل بي فور وصولك لأطمئن عليك.

- سأفعل يا عزيزتي.

- إلى اللقاء حبيبي.

غمره عندما فصل الخط إحساس بغيض هو مزيج من الغضب والعجز. «لماذا وعدتها؟» لام نفسه بحنق، وذكّره إصرار مونيكا بامرأة أخرى دخلت حياته قبل أربع سنوات ولم تشأ الخروج، ولم يفلح هو في إخراجها إلا بعد الاستعانة بأخيه الذي تطوع لمساعدته في إنهاء معاناته ومعاناتها أيضًا، تلك كانت ناتاشا، الروسية.

- هل تكون مونيكا ناتاشا أخرى؟

سأل نفسه بهلع، وتمنى ألا يستطيع ميكيل أنخل القدوم في الغد، عدل عن فكرة استشارته، هربًا من بسمة السخرية التي كانت يعرف أنه سيرشقه بها وهو يقول له: «إلى متى ستبقى طفلًا طيبًا يا أخي الصغير؟»

كان يعرف أنه يقصد القول: « طفلًا ساذجًا وغبيًا...»، ويعرف أن في قوله هذا شيء من الحقيقة، الحقيقة التي آمن بوجودها مرغمًا ولم يعرف كيف يغيرها.

هل أحبَّ ناتاشا؟ هل يحبُّ مونيكا؟ أيبقى أم يرحل؟ هل يورط نفسه ويورط النساء في حب باهت بلا مستقبل إن يبقى، أم يحرم نفسه ويحرمهن فرصة الاستمتاع بعلاقة مستقرة ومبهجة إن يرحل، لِمَ يفعل هذا؟

- إذا كنت تحبها، لا تجلد ذاتك وتعذبها، امنح هذه العلاقة فرصة.

استعاد كلمات ميكيل أنخيل عندما راح يسأله وسيلة للتنصل من ناتاشا.

- لكنني لا أحبها.

- أنت متأكد؟

- وهل هذا موضوع يحتمل الشك؟

- ما يحتمل الشك هو إن كنت رجلًا طبيعيًا يا أخي الصغير! أنا لا أذكر أنني وجدتك عاشقًا يومًا ما، ألم تحب امرأة في حياتك؟

- بلى... لقد أحببت.

- لا تقل لي تلك المتزوجة ريبيكا!

- بل امرأة أخرى قبل ريبيكا... وقد أغرمت بريبيكا فقط لأنها تشبهها.

- ألا أعرفها أنا؟

- لا... حتى أنا... لا أعرفها!

وكانت سلمى في هذه الأثناء، تبتسم في خياله تلك الابتسامة الصغيرة التي انتظرها كثيرًا لكي تكبر... ولم تكبر، نصف الحقيقة التي سعى خلفها جاهدًا... ولم تكتمل.

--2

عندما فتح عينيه، استغرق لوكاس زمنًا طويلًا، طويلًا بالفعل، حتى أدرك أين هو. حاول أن يتذكر ما حدث، فعاودته فجأة لحظة الرعب الأخيرة التي عاشها قبل أن يغيب، لحظة خاطفة تذوّق فيها طعم الموت، سمع صوته، ارتطم بجدرانه وحلق في فضائه... والآن...أين هو الآن؟ غرفة في مستشفى؟ هي غرفة في مستشفى، فكّر: «ليس في الموت مستشفيات، إذن، ما زلت على قيد الحياة... شكرًا للحياة التي تمسكت بي... شكرًا للموت الذي لفظني».

أحس براحة عميقة وتوقّف عن التفكير... وعلى الرغم من أنه استيقظ لتوّه من نوم لم يعرف كم طال، إلّا أنّه شعر بتعب ونعس شديدين، وقبل أن يستسلم للنوم ثانية، مرت في خياله صورة مانويل،وصورة سلمى، وصورة ذلك الخاتم أيضًا، خاتم التنين.

عندما استعاد وعيه كاملًا، كان قد مرَّ أكثر من أسبوعين على الحادث. علم أنه بعد أن دخل في غيبوبة لمدة خمسة أيام، أخضع لجراحةٍ لإزالة وذمة في الدماغ، تشكلت إثر نزيفٍ تسببت به صدمة قوية على الرأس، ما تبقى من جسده كان سليمًا تمامًا كما طمأنه الأطباء، وكذلك الآيباد... كما طمأنه مانويل:

- لن تصدق المعجزة يا لوكي... الآيباد... سليم!

- وهل أعجبك وأعجب جدتك؟

- مطابق للمواصفات...

- كم يسرني ذلك...

- شكرًا بابا...

- لا داعي للشكر يا عزيزي...

- ليس من أجل الآيباد السخيف... شكرًا لأنك بقيت معي... أنا أحبك بابا... وبحاجة إليك.

لم يستطع لوكاس أن ينهض كما اشتهى ليعانق ابنه الذي غصّ بانفعال مؤثر... كما لم يستطع أيضًا أن يمنع سيلًا من الدموع تدفق من عينيه، ضغط كف مانويل بين كفيه... واكتفى بابتسامة رضى وحب، إذ لم يقوَ على الإجابة خشية أن يجهش بالبكاء.

وجد نفسه يتساءل بعد مغادرة مانويل وانفراده بنفسه، هل أستحق فعلًا أن يشكرني ابني لبقائي معه؟ هل أنا موجود معه أساسًا... كي أبقى؟ قتلته نغمة الاستجداء التي سمعها في صوت الصبي عندما كان يقول: «أنا أحبك بابا... وبحاجة إليك»... شعر بندم قاتل عن كل الأيام التي أمضاها بعيدًا عنه تاركًا إياه لجدته بحجة أنه بحاجة لحنان امرأة، ورعاية امرأة، كما أقنعته إستير عندما قالت له: «أنت لا تعرف شيئًا عن تربية الأطفال يا لوكاس»!!

«كم أنت أب سيئ يا لوكاس... أنت لا تصلح لشيء يا لوكاس!»، خاطب نفسه وشعر بقلبه يؤلمه، كان يعرف أن هذا الألم إنما هو حنان جارف وحب مكبوت لذلك الولد الذي شاء له القدر أن يعيش بعيدًا عن الأحمقين اللذين أنجباه.

وضع يده على قلبه الموجوع حبًا وسأل نفسه: «هل من امرأة في هذا الكون بما فيهن أمي نفسها، تحب هذا الكائن المسمى مانويل مثل هذا الحب؟»

قرّر ليلتها أن الوقت قد حان، ليلتمّ شملهما كعائلة صغيرة تحت سقف واحد، لوكاس الأب، وابنه مانويل...«لعل عودتي إلى الحياة كانت فقط من أجله... فلولا مانويل... ماذا يضير هذا العالم التافه إن متّ وتلاشيت؟؟ ما الذي سيفتقده الكون برحيلي؟ أتلك الصور التي أصنعها من خلف الكاميرا؟! العالم يغصّ باللوحات والصور، وبآلاف الفنانين، لكن مانويل... ليس عنده إلا أب واحد،أب مشتت وضائع... ولا يعرف شيئًا!»

في الصباح التالي، عندما استطاع لوكاس أن يجلس في الفراش ليتناول فطوره، دخل عليه مانويل مبتسمًا، داسًا كفيه في جيبيه.

– صباح الخير بابا.

– صباح الخير أيها الشاب الوسيم.

– يقولون إنك تتحسن.

– أنا بخير... وأتطلع للخروج من هنا.

– كم يسعدني هذا... بالمناسبة... ماما ترسل تحياتها... لقد قلقت عليك كثيرًا المسكينة.

– آه... شكرًا... متى رأيتها؟

– زرتها مساء الأمس.

- وكيف هي الآن؟
- بخير... لقد وجدت والدتها... مجددًا.
- للمرة الرابعة؟
- الخامسة.

لولا تنقّلت على مدى السنوات السابقة من مصحّ إلى آخر حتى استقرّ بها المقام منذ ثلاث سنوات في مأوى فخم لرعاية ذوي الاحتياجات الخاصة، حيث صارت لها غرفتها المنفصلة وممرضة تسهر على رعايتها ومرافقتها. كانت تمضي وقتها في قراءة الكتب وانتظار مانويل الذي يزورها في فترات متقاربة، ويخرجها من حين لآخر إلى نزهة قصيرة في الجوار أو للتجول في مركز تجاري وحضور فيلم سينما، أو للغداء في أحد المطاعم. كانت تبدو مستقرة ومتزنة بمرور الوقت وانتظام العلاج، تحسن طبعها الحاد نسبيًا وتخلّت عن اكتئابها ورغبتها بالموت، إلا أن عارضًا جديدًا ظهر عليها، إذ استحوذت عليها رغبة جارفة بالعثور على أمها. فكّرت أن امرأة مثل والدتها يمكن على الأغلب أن تنتهي وحيدة في إحدى المصحات. لذلك صارت تشتبه في كل النزيلات اللاتي يبلغن عمرًا مطابقًا لعمر أمها الافتراضي، وتتحرى عنهن الواحدة تلو الأخرى، ثم تحصر الشكوك فيمن تنطبق عليها كل المواصفات وتصدق أنها أمها، إلى أن يثبت العكس، فتُحوّل تحرياتها إلى اتجاه آخر، التحريات التي تنقّلت من أجلها بين كل مصحات مدريد وتوليدو، إلى أن حطت رحالها هنا بعد أن زرعت عيونًا وجواسيس في كل الأماكن الأخرى، يأتونها بأخبار الوافدات الجديدات اللاتي تنطبق عليهن المواصفات، لتتحرّى عن كل واحدة منهن من جديد.

بالأمس قالت لمانويل عندما كانا في حديقة المأوى، وعيناها تشعان ألقًا:

- أنظر إلى تلك المرأة ذات القميص الأزرق.

وأشارت إلى سيدة في خريف العمر تجلس في كرسي مدولب، تقرأ كتابًا.

- هذه هي... إنها هي... أمي.

- هل تأكدتِ من ذلك؟

- سأفعل... أنا أقوم الآن بالتحريات اللازمة... لكن قلبي يحدثني هذه المرة... أنها ستكون هي.

ضحك مانويل:

- دائمًا تقولين هكذا.

- لا لا... هذه المرة أنا أشعر بشكل مختلف... سترى يا مانويل.

- حسنًا ماما... بلغيني بالمستجدات أولًا بأول.

ضحك مانويل مجددًا وهو يحكي للوكاس:

- جهز نفسك للقاء حماتك.

- أنت ولد شرير.

- دعنا من لولا الآن، وأخبرني، كيف هي أعصابك؟

قال بخبث.

- أعصابي؟ لماذا تسأل عن أعصابي أيها الشقي؟ هل ستعترف لي بمصيبة؟

- مصيبة؟ لا... هو حدث غريب... وأظن أنه سيعجبك!

- ما الأمر؟

- عليك أن تعدني أولًا، ألا تلومني لأنني أخفيت هذا الأمر عنك لزمن طويل!! لقد فعلت ذلك لمصلحتك!

نظر إليه بدهشة وافتتان وهو يتعجب من اكتمال هذه الشخصية التي تواصل إبهاره يومًا بعد آخر، ارتشف وجهه الجميل بنظراته المتيّمة كمن يرتشف شايًا بالعسل، كأنّه يراه للمرة الأولى، أحب شعره الكستنائي المنسدل على جبينه بغرّة تتماشى مع آخر الصرعات الحديثة، وعينيه الذكيتين المشعتين ألقًا والمتوهجتين حماسًا. «متى كبر هذا الطفل ليصبح شابًا فاتنًا كهذا؟ أين كنت أنت يا لوكاس؟» فكر بشجن وهو يتساءل إن كان هذا الكائن الساحر المستقر بحاجة إليه فعلًا؟!

«أنا من هو بحاجة إليك يا مانويل»، قال له بصوت غير مسموع، قبل أن يخاطبه ضاحكًا:

– حسنًا، لنرى... إن كان ما فعلته من أجل مصلحتي، فأنت تعرف أكثر بلا شك!

– عدني.

– أعدك.

أخرج مانويل كفّيه من جيبيه، ومد كفّه اليمنى مقربًا إياها من أبيه، الذي خطفته المفاجأة الصاعقة إلى كوكب آخر. ظن لبرهة أنه يحلم فوق تلك السجادة العجيبة، إحدى تلك الأحلام السوريالية التي كانت تعاوده بين فترة وأخرى، برهة خاطفة لكنها بدت له طويلة جدًا وتنتمي إلى عالم بعيد، بعيد جدًا.

أمسك بيد مانويل الممدودة نحوه، تحسس مذهولًا إصبعه والخاتم الذي كان فيها، تفقّد النقش القديم والتنين الملتف حول ذاته، وسأله:

– من أين لك هذا؟

– هي أعطتني إياه!

– هي؟

- سلمى.

لم يستوعب لوكاس ما يقوله مانويل، صمت للحظة متريّثًا، ليتمالك نفسه ويعيدها من ذلك العالم البعيد إلى غرفته في هذا المستشفى. لبث محدقًا في الخاتم بصمت باحثًا عن تبرير منطقي لوجوده في إصبع ابنه، هنا في هذه الغرفة، في هذا المستشفى، بعد أن كان قد تركه على طاولة الليل في غرفة نومه في توليدو، قبل أن يغادره متوجهًا إلى سانتاندير.

- هل ذهبتَ إلى بيتي في توليدو؟ سأله.

- بل سلمى كانت هنا.

- سلمى كانت هنا؟ (كرر خلفه غير مصدق)، ماذا جاءت تفعل؟

كان لوكاس يطرح الأسئلة بينما يعمل ذهنه بسرعة وعصبية ويطرح أسئلة أخرى: إن كان هذا خاتم سلمى، فلمن إذن الخاتم الذي وجدته في المطار؟ وما السر خلف تلك المصادفة، أن أحصل فجأة وفي وقت واحد على نسختين، من الخاتم الذي اشتهيته طويلًا ولم أستطع الحصول عليه؟

- جاءت لتطمئن عليك.

أجاب مانويل.

- وكيف عرفَت بما جرى لي؟

- أنا أخبرتها.

- أنت؟ هل تعرفها أنت؟

- نعم... هي صديقتي في الفيسبوك، نحن نتحدث من حين لآخر منذ حوالي الثلاث سنوات.

# كملح يذوب في المحيط

## -1-

البند الآخر الذي تكرر في مفكرة سلمى القديمة، بعد الجدة ماري، كان: لوكاس.

بعد اتصاله الأخير بها قبل رحلته إلى سورية، لم تسمع منه شيئًا، أدركت بحدسها أنه لم يحقق حلمه. وعلى الرغم من تعطشها الشديد لمعرفة سبب عدم تنفيذه تلك الخطة التي بدا متحمسًا لها، ثابرت على قرارها ولم تتصل به.

***

الحرب كانت قد زادت من التصاقي المعنوي بشمس الدين، فكففتُ عن محاولة إيجاد رجل آخر. أبحاثي في النبش والتحقيق عن ماهية الحب، أوقفتها أيضًا واستسلمت بعد أن اقتنعت أن الحب حتى وإن كان خيالًا مخترعًا يصنعه وجدان مريض لغاية في نفس صاحبه، إلا أنه خيال مستبد يسيّر كل الحقائق في حياة الإنسان كلاعب خفي يحرك خيوط دماه المتحركة.

اكتفيت بنصف الحقيقة، لأنني كنت مرهقة ومستنفدة، وعاجزة عن مواصلة بحثي عن النصف الآخر. علقت في عنق الزجاجة، وشعرت أنني أضعف من أن أجاهد للخروج منها، وأثقل من أن أستطيع العبور للعودة من حيث أتيت، إلى حيث كنت أرتاح بخفة هائمة في بطنها.

عندما أدخلت لوكاس إلى حياتي، عرفت أنه لن يكون بديلًا مثاليًا لشمس الدين، لكنني تعشّمت أن يقتلعني من انتظاري كإعصار قوي من دون أن يسألني الموافقة. حلمت أن يكون العاشق الوفي الذكي

الذي سيداوي جراحي بصبر، محررًا إياي مع الزمن من قيد حبي المريض، ومالئًا الفراغ الذي حاصرني واستهلك روحي. لكنه خيّب آمالي، ولم يؤدِّ الدور المطلوب بالطريقة التي انتظرتها منه، لم يفهم من رسائلي المشفّرة إلا الشيء الذي لم أكن أريده أن يفهمه: أنه بحبه لي لن يحصل عليّ وحدي، بل أيضًا على شمس الساكن داخلي، (اثنان في واحد، Package). عرض خاص، وثقيل، رفضه لوكاس وبقي بانتظار عرض أخف، لم أمنحه إياه بعد أن شعرت بالإهانة لرفضه عرضي الأول.

لم يجاهد لوكاس كي يُخْرِج «شمس» من حياتي، ولهذا السبب عاقبته بالهجران، لكنني فشلتُ أيضًا في إخراجه هو الآخر من حياتي، وبقي فيها كقضية معلقة، وكبند مدون في دفتر يومياتي.

مع مرور أكثر من ثلاث سنوات على الزلزال الذي ضرب سورية، وانصرام السنة الثانية للحرب التي روّعت مدينتي، استسلمتُ لرغبتي العارمة بأن أعرف شيئًا عنه. كنت حين أبحث عبر الإنترنت، كثيرًا ما أجد أخبارًا عنه كمصور فوتوغرافي مهم، لكن أحدًا لم يتطرق إلى حياته الخاصة، اللهم إلا ريبورتاج صغير منشور في صحيفة ABC الإسبانية، ولقّبه التقرير بالعازب الخجول الأشهر في توليدو.

في خضم بحثي وقعت على عدة صفحات باسمه في مواقع للتواصل الاجتماعي والمهني، ولكن على سبيل المثال صفحته على الفيسبوك كانت مقفلة لغير الأصدقاء، ففكرت أن أطلب صداقته لكنني تراجعت عن الفكرة، واستبدلتها بطلب صداقة ابنه، مانويل أورتيز فاسكيس.

عندما فتحت صفحة مانويل التي كانت أكثر انفتاحًا من صفحة والده، وقلّبت صوره ومنشوراته، أحسست ببهجة حقيقية تغمرني،

وعاطفة طاغية تشدني نحو هذا الصبي الذي يقولون إنه يشبه أمه، لكنني لم أرَ فيه إلا وجه أبيه المُحبب، مزيّن بنظرة أكثر جرأة، وبسمة طيبة تنعش القلب.

لم يردّ مانويل على طلبي، ربما لأنه لا يعرفني. تركني أنتظر لأسابيع، قبل أن أقرّر أن أغامر وأكتب إليه:

*مرحبا مانويل، أنا سلمى، صديقة قديمة لوالدك من حلب، هل تعرف حلب؟ حسنًا... أتمنى أن تنتهي الحرب سريعًا لتسنح لك الفرصة لزيارتها، أنا واثقة أنك ستقع في غرامها كما فعل لوكاس.*

*أتمنى أن تقبل صداقتي، لكن إن فعلت، عليك أن تعدني ألا تذكر شيئًا عني لأبيك لأنه لن يكون مسرورًا بذلك!! لا أدعوك للكذب عليه، ولكن فقط، لا داعي أن تقول له شيئًا ما لم يسألك.*

*لماذا أفعل هذا؟ لأن لوكاس صديق يعزّ عليّ كثيرًا وأحب أن أطمئن عليه من حين لآخر، لكنني لا أستطيع أن أتصل به مباشرة (في الوقت الحالي على الأقل) لأسباب كثيرة ومعقدة، أعدك أن أشرحها لك إذا تيسر لي وفهمتها يومًا ما... شكرًا لك بكل الأحوال، وأنا سأعدّ نفسي صديقتك من الآن، إذ أسعدني مجرد أن أكتب إليك... سلمى»*

بعد يومين، أجابني مانويل بعد أن قبل طلبي:

*مرحبا سلمى، أنا أعرف حلب وأعرفك، أنتما جميلتان، لقد رأيت كثيرًا من الصور لكِ ولها ضمن مجموعة والدي الخاصة. وقد وعدني لوكاس أيضًا أن يحكي لي عنك يومًا ما!!! أظن أنه هو الآخر ينتظر أن يفهم شيئًا!*

*وأظن أنني (وبلا غرور)... الوحيد الذي يفهم ماذا يجري هنا! تشرّفت بك يا صديقتي.*

أذهلني رده بكل ما في الكلمة من معنى، فقد أدهشتني أولًا تلك الكلمات التي عكست الشخصية القوية والذكاء الفذ لكاتبها، فيصعب تصديق أنه طفل لم يتجاوز العاشرة. كما فاجأتني وأثلجت صدري الرسالة الباطنية التي حملتها تلك الكلمات، وفحواها: أنني ورغم كل شيء، ما زالت حاضرة في حياة لوكاس، ولو على هيئة صور مخبأة ضمن أرشيف سري، وحوار لم يكتمل مع ابنه، انتهى بوعد.

مع مرور الوقت، لم يعد مانويل مجرد وسيلة لاستقاء أخبار الصديق القديم، بل صار في حد ذاته صديقًا جديدًا، محببًا إلى قلبي ومهمًا في حياتي، وسببًا من الأسباب القليلة للبهجة في فضائي المعتم الملبد بالدخان.

في هذه الأثناء، علمت أن شمس الدين غادر حلب. كان الخبر طعنة مزدوجة في الصميم، مغادرته أولًا، وعدم إبلاغي بالأمر ثانيًا.

هذا الخبر كان له وقعٌ كبيرٌ ومدمّر في داخلي. ماذا يعني أن يغادر شمس الدين حلب؟ ماذا يعني أن يختار الرحيل عن المدينة التي اختارها وعشقها وتماهى فيها حتى أصبحا بالنسبة إليّ شيئًا واحدًا... كما كنت أؤمن بالمقابل أنني وحلب بالنسبة إليه شيء واحد... هل هي نهاية اللعبة؟

هذه خيانة، فكرت... وشعرت بالغربة، كأنه أخذ معه الوطن... زعزع قلبي الخوف، كأنما اختلّت فجأة كل قوانين الطبيعة، تاركة الكون يتخبط باضطراب وعشوائية، بانتظار كارثة آتية.

عرفت أنه غادر إلى إستانبول، مُزمعًا تشكيل فرقة موسيقية صوفيّة جديدة، ليستأنف نشاطه الفني الذي دخل في سبات طويل منذ اندلاع

الحرب. لكنني، بعد نحو عام، سمعت أنه تخلى عن فكرة تشكيل الفرقة وترك إستانبول إلى إيطاليا، وطنه الأم، بعد التردّي الكبير الذي ألمّ بصحته على أثر مرض خطير لم يُعرف عن تفاصيله الكثير.

هي الكارثة الآتية إذن... فكرتُ بألم، وصممت ألا أقع في شرك الانتظار باستسلام مركب فقد البوصلة. لا انتظار بعد اليوم... قررت، وتجاهلت موعدنا المقرر الذي بقي عليه خمسة أشهر، واتصلت به، فجاءني صوته ضعيفًا ومختلفًا، سبقني بالحديث من دون أن يترك لي مجالًا لأقول ما كنت قد أعددته من كلام.

- سلمى... هل أنت بخير يا عزيزتي؟ أنا لست كذلك، نعم أنا مريض، آسف للشحنة السلبية لكنها الحقيقة. الخبر الجيد هو إنني قادم إلى حلب قريبًا، سأستبق موعدنا بشهر أو شهرين، وسيسعدني أن أراكِ، يا سليمى.

- سأكون في انتظارك...اعتنِ بنفسك.

كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي قلتها قبل أن أودعه. شعرت بلا جدوى الكلام، لم أكلف نفسي عناء تذكّر ما نويت أن أقول، فقد تذكرت عوضًا عن ذلك شيئًا مهمًّا وأساسيًّا في علاقتنا، أن شمس الدين يعرف قبل أن يسمع.

«أنت تعرف كل شيء يا شمس الدين! أنت تملك خاتم سليمان». خاطبت اسمه الذي كان ما يزال متصدرًا شاشة الموبايل، محدقًا في عمق عينيّ، سابرًا كل ما فيهما من أسماك ميتة وشعب مرجانية محطمة وسفن غارقة!

***

ولكن، هناك في روما، في مشفى الأورام السرطانية، كان شمس

الدين يعيش حالة من الضياع الحقيقي، يشعر بالخواء والعبثيّة، كأن كل معرفته وخبراته ويقينه لم تعد تعني أي شيء على الإطلاق.

عندما جاءه اتصالها، وبمجرد أن لمح اسمها على شاشة الموبايل، اجتاحته موجة من الحنين إلى حلب، المدينة التي كانت سلمى أحد أهم رموزها في وجدانه. عاد توازنه إليه دفعة واحدة، شعر بالانتعاش، واتخذ في لحظة خاطفة قرار القيام بزيارة أخيرة، الأمر الذي أعلنه لها عندما أجاب على اتصالها الذي كان يعرف مسبقًا القصد منه.

قام من سريره بعد أن أنهى المكالمة، فتح الخزانة باحثًا عن صندوق خشبي مطعّم بالصَّدف كان يحتفظ فيه بأشيائه الحميمة، وجد فيه مصحفًا صغيرًا، مسبحة أمه التي يتدلى منها صليب فضي، صور عتيقة من طفولته، وخاتم سليمى.

أخرج الخاتم، وتأمله منتشيًا بذكرى ذلك اليوم الذي قامت فيه سلمى بإهدائه إياه، قائلة له بابتسامة كبيرة:

- إليك يا صديقي... خاتم سليمان.

- خاتم سليمان؟ أم خاتم سليمى؟

- هو خاتم سليمى حتى الآن، لكنني أتعشم أن يتحول في إصبعك إلى خاتم سليمان... هل تعرف قصة الملك سليمان؟

كان يعرفها، لكنه قال لا، أحب أن يسمعها منها، ليفهم ما تعنيه لها، وما قصدها من روايتها له.

«الملك سليمان هو أحد أنبياء الله تعالى الثمانية والأربعين، وعاش في الفترة ما بين (970-931) ق.م. يقال إنه كان يملك خاتمًا سحريًا يمنحه القدرة على التحكّم بالطبيعة وتسيير الرياح، والتواصل مع الجن والحيوانات والطيور، وبفضله، كان يعرف كل شيء، ويحكم بالعدل في البلاد.

في أحد الأيام، استودع سليمان خاتمه عند زوجته، فقام الشيطان بحيلة خبيثة إذ تنكر بهيئة زوجها وطلب الخاتم فأعطته إياه، وانتقلت القدرة العجيبة إليه وحكم البلاد عوضًا عن سليمان الذي أُبعِد وجُرِّد من عرشه، واضطر للعمل صيادًا للسمك ليكسب قوته.

عاث الشيطان فسادًا في البلاد وحكم بالظلم، فانتقم الله منه بأن جعله يُسقط الخاتم سهوًا في البحر، حيث ابتلعته إحدى الأسماك، قبل أن يقوم الصياد سليمان باصطيادها مع مجموعة كبيرة من شقيقاتها.

وكعادته، باع سليمان كل ما اصطاده في سوق السمك عدا واحدة احتفظ بها لنفسه للعشاء، وعندما همّ بأكلها، وجد خاتمه في بطنها، فاستعاد قدرته وقوته، وبالتالي استعاد زوجته وعرشه وطرد الشيطان».

وتابعت سلمى وهي تضع الخاتم في إصبع معبودها:

- وها إنني أمنحك بهذا الخاتم، مزيدًا من القوة والحكمة والمعرفة، لتكلّم كل الأرواح الهائمة في هذا الكون، ولتصبح منذ اللحظة يا شمس الدين، عالمًا بكل شيء.

تأمل الخاتم مبهورًا وقال لها:

- رائع جدًا، ولكن، من أكون أنا في هذه القصة؟ سليمان؟ أم الشيطان الذي تنكر بهيئته فأعطته زوجته المخدوعة الخاتم؟

ابتسمت سلمى بهدوء:

- لا أدري تمامًا... قد تكون أحدهما، وقد تكون البحر الذي سقط الخاتم فيه سهوًا، وقد تكون السمكة التي خبأته في جوفها ثم لفظته في الزمان والمكان المناسبين، ما يهمني في القصة: أن يعود الخاتم إليّ في نهاية المطاف!

- شكرًا للهدية يا سليمى... ولكن، هل يزعجك ألا أضعه في إصبعي، فأنا لا أحب وضع الخواتم!

- لا يزعجني منك شيء يا شمس الدين، أهديتك هذا الخاتم من دون شروط لأنني أحببت أن أفعل هذا، وهو ملك لك الآن، افعل به ما تشاء!

بقي ذلك الخاتم نائمًا في سريره المخملي الخمري داخل الصندوق المطعّم بالصدف لأعوام كثيرة، واليوم، اشتاق شمس الدين أن يخرجه منه وأن يضعه في إصبعه أخيرًا مستمتعًا بامتلاكه شيئًا بهذا الجمال ومتباهيًا به، وعندما فعل، أصابه الذهول من النحول الشديد الذي ألمّ ببنصره، إذ انزلق منه الخاتم الذي لم يعد ملائمًا له أبدًا، حدّث نفسه بكآبة: «إن الأوان قد فات للتحلي بهذا الخاتم.» لكنه لم يستسلم، وضعه في السبابة، فاستقر بوضع مناسب ومريح، وغمره امتنان عميق وتذكّر سبابة سلمى، التي كانت تحمل نفس ذلك الخاتم بنسخته الخاصة بها، ولم تخلعه منها أبدًا في أي وقت من الأوقات.

عندما اقترب موعد لقائهما الثالث، انشغلت سلمى بالتفكير في هدية مبتكرة وغريبة تقدمها إلى ذلك الرجل الذي ملك حياتها وقلبها من دون سبب واضح. أرادت أن تهدي إليه أحد تلك الخواتم القديمة الثمينة التي تملكها ضمن مجموعتها، والتي كانت تتخيل أنها تخص ملوكًا وسلاطين من العصور الغابرة، لكنها لم تقتنع بأي منها، فقررت أن تصمّم له خاتمًا خاصًا، استوحته من حكاية لطالما أثّرت بها: «أسطورة الملك سليمان».

قدّمت التصميم بعد أن رسمته بعناية لصائغ أرمني عجوز ومخضرم، وطلبت منه صنع توأمين من الفضة، واحد لها، والآخر لسليمانها، الملك شمس الدين. وأضافت إلى الأسطورة فصلًا يحكي كيف صنعت زوجة سليمان نسخة تطابق خاتم زوجها بعد أن اكتشفت خدعة الشيطان الذي فقده في البحر، وتضرعت إلى الله أن يبارك

خاتمها الجديد ويمنحه قدرة عجيبة وحيدة، تتمثل باجتذاب نسخته الأصلية وجلبها إليها، فكان لها ذلك، لتتحقق النبوءة: «التوأم ينادي توأمه الآخر، الذي يخرج له من بطن سمكة في البحر، ملبيًا النداء، حيث تتشابك الأصابع ويقبّل كل خاتم توأمه».

أين وقعت سلمى على هذه النبوءة؟! بكل بساطة، اخترعتها، ثم أحبتها وصدقتها، وآمنت بها.

## -2-

نزع شمس الدين خاتمه العزيز وأعاده إلى العلبة، وهو يفكر في مدى أحقيته في امتلاك هذا الشيء الجميل الثمين والنابض بالحياة، وفي حجم الذنب الذي يقترفه إذ يدفنه حيًا في تابوت مظلم، وينساه.

قبل أن يغلق العلبة، نادته مسبحة أمه، فأخرجها بدورها ليلقي عليها السلام.

في لقائهما الأخير قبل حوالي خمسة عشر عامًا، كانت كلاوديا تودع الحياة على فراش الموت بعد صراع طويل مع الأقدار ومع المرض.

سيلڤيو هو بكرها الذي أنجبته في التاسعة عشر من العمر، إثر زواجها من ضابط جيش كان قد ورث مهنته عن أبيه الذي خدم في ليبيا لسنوات طويلة كضابط مرموق في أثناء فترة الاستعمار الإيطالي.

عندما بلغ سيلڤيو عامه السادس أغرمت كلاوديا برسام فرنسي يكبرها بثلاثة وعشرين عامًا، تركت من أجله زوجها وابنها وهربت معه إلى فرنسا حيث جرجرها خلفه في أزقة باريس وأسكنها في بيوت قذرة، كما استعملها كموديل لعشرات اللوحات، قبل أن تقرر هجره بعد نحو سنتين، عندما خمدت جذوة الغرام.

عادت كلاوديا لتطلب الغفران من زوجها، لكن الضابط المجروح لم يمنحها إياه، إنما منحها الرحمة بشفاعة ابنها، فلم ينفذ فيها الحكم العسكري الذي أصدره يوم رحيلها: «الخيانة عقوبتها الوحيدة هي الموت».

طردها من البيت فعادت للعيش مع والديها، ثم ما لبثت أن تزوجت

بعد عدة سنوات من كهل ثري، وأنجبت منه ثلاثة أولاد، وأمعنت في التدين لدرجة التزمّت، مما حسن من صورتها لدى زوجها السابق فسمح لها لاحقًا بزيارة ابنها البكر مرة في الشهر.

عاش سيلفيو وحيدًا، إذ كان نادرًا ما يلتقي والده الذي يعيش في كنفه، لانشغال هذا الأخير بمهماته العسكرية الشاقة. ربّته الخادمة الليبية العجوز التي رافقت جدته إلى روما عند انتهاء خدمة جده في ليبيا بعد الاستقلال، إذ لم يكن لها مكان تلوذ به بعد أن توفي زوجها الذي كان يعمل معها على خدمة أسرة الضابط كارلوني.

ميمونة البرقاويّة كانت تحكي له عن بلدها ودينها وتغني له أغانيها الشعبية القديمة، ما فتح أعين الولد الحزين على بشاعة الظلم والإستعمار أولًا، وعلى جمال الموسيقا المختلفة الآتية من بلاد بعيدة ثانيًا.

عندما بدأ سيلفيو يخطو في سنوات المراهقة، أوعز والده إليه أن يتحضّر للانخراط في السلك العسكري أسوة بأسلافه، لكن الصبي الرقيق بدا أبعد ما يكون عن ذلك الطريق. كان يهوى الموسيقا بكل أنواعها، ويحلم بامتلاك كمان يتعلم العزف عليه، الحلم الذي حققته له أمه عندما جاءت لزيارته في عيد ميلاده الخامس عشر.

أبدع في العزف على الكمان، ومنه انتقل إلى الغيتار عندما بدأ جنون الشباب يعبث برأسه الحالم، وشكّل مع مجموعة من أصدقائه فرقة موسيقية صغيرة، كان يقوم هو بقيادتها وباختيار الأغاني والمعزوفات التي تضمّنت بضع مقطوعات قصيرة من تأليفه.

صارت الألحان دواءً لعزلته ونقمته على كل شيء، ومتنفسًا للاحتقان والتمرد اللذَين كانا يعتملان في داخله. تبحّر في كل أصناف الموسيقا، وسافر خلفها في كل بقاع الأرض مكتشفًا ثقافات عديدة وفنون متنوعة أنعشت روحه ونمّت حسّه الإنساني وشكلّت شخصيته، حتى التقى بقدره حين سمع الموسيقا الشرقية في القاهرة، فسلبت لُبّه

في ليلة حاسمة قرر في نهايتها مصير حياته، في خطة مشت به عبر دروب كثيرة، حتى أوصلته إلى حلب، وفيها حطّتْ روحه الرحال.

- أصدقني القول يا سيلفيو... هل صحيح أنك اعتنقت الإسلام؟
- لماذا تزعجين نفسك يا أمي بهذا الموضوع؟
- هل يعقل أنك تخليت عن ديننا في نهاية المطاف؟
- ديننا... دينهم... آه يا أماه، ليس ثمّة ديننا ودينهم...الدين هو شيء واحدن وهو أمر شخصي جدًا لا يجب أن يناقش.
- ماذا يعني هذا؟
- يعني أنني أرجوك أن ترتاحي... أنا اعتنقت سلامي وسكينة روحي، ولا أحب أن أسمي هذا الذي اعتنقته، دينًا، كفرًا، تصوّفًا أو إلحادًا، هذا أمر يناسبني وحدي، ويخصني وحدي، ولا أحب أن أحكي عنه لأحد.
- ليباركك الله يا عزيزي، ويحرس خطواتك أينما كنت.

جمعت مسبحتها في راحة يدها، ثم أخذتْ كف ابنها ووضعت المسبحة فيه وهي تهمس:

- هل سامحتني يا سيلفيو؟

نظر إليها من دون أن يجيب، فاستطردت:

- لقد هجرتك طفلًا من أجله... لكن الأمر لم يكن بيدي، صدقني، كنت أحبه، هل تعرف ما الحب يا سيلفيو؟
- أعرفه يا أمي، وأعرف كيف أواجهه إذا حاول أن يدمّر حياتي.
- أنت قوي يا ولدي، أما أنا فلم أكن كذلكن فهل تسامحني؟
- سامحتك منذ زمن بعيد يا أماه، هل ترتاحين؟
- احتفظ بهذه، كي أرتاح.

أغلق كفّه على الهديّة التي استودعتها أمه فيها، وأجابها:

- سأفعل يا أمي.

## -3-

عندما سألته سلمى في أي فندق هو وأين ستلتقيه، أجابها شمس الدين الذي وصل لتوه إلى حلب:

– مستشفى فريشو.

كانت حالته الصحية أسوأ من أن تسمح له بالسفر، لكنه أصر ضاربًا عرض الحائط بكل تحذيرات الأطباء، مرددًا شطر من بيت شعر حفظه للمتنبي: «أنا الغريق فما خوفي من البللِ».

برونو أنشيلوتي، طبيبه الخاص وصديق طفولته، وعازف الدرامز في فرقته الموسيقية الأولى، رافقه في رحلته المجنونة الطويلة، حاقنًا إياه بالمورفين في سيارة الإسعاف التي أقلّته من مطار بيروت إلى مستشفى فريشو بحلب.

«مستشفى القدّيس لويس»، هو الاسم الحقيقي لهذا المستشفى القديم الذي بوشر العمل فيه بعد ترميمه الأخير في العام 1920، وقد أطلق الحلبيون عليه اسم فريشو نسبة للطبيب الفرنسي «هنري فروشود»، الذي ترأسه عام 1944.

مشفى فريشو! قالت سلمى لنفسها، مقصقصة أجنحة فرحتها التي نوت التحليق عاليًا في سماء ملبدة بدخان أسود.

«لن نحلق أعلى من السقف العالي للغرفة الفسيحة في مستشفى فريشو، وعندما نبلغه، ستلتصق روحي فيه كعنكبوت بليد، وسأتركها هناك وأمضي».

ذلك الصرح الحلبي العريق بغرفه ذات الأسقف العالية، كانت

تديره رهبنة «مار يوسف الظهور» الفرنسية، التي أرسلت لخدمته لفيفًا من الراهبات المُدرّبات المتعدّدات الجنسيّة عند افتتاحه الرسمي الأول في العام 1905، لكنهن غادرنه وهربن من حلب مع نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914، ليعدن بعد انتهائها لاستلامه، وإعادة ترميمه وإصلاحه بمساعدة المفوض السامي الفرنسي.

سلمى كانت تعرف، مثل معظم أبناء المدينة، الراهبات اللاتي بقين يخدمنه حتى اليوم، مجاهدات لترك أبوابه مشرّعة في وجه الجرحى والمصابين ولو بأقل الإمكانيات، برئاسة الأخت مارغريت، التي قاربت التسعين ورفضت مغادرة حلب لدى نشوب الحرب، قائلة جملتها الشهيرة:

- لطالما أكلنا من خبز سورية الأبيض، لن نتركها اليوم إن صار أسمر.

الأخت آنجيلا الإيطالية، الصديقة المقرّبة من شمس الدين، ما تزال هناك أيضًا على رأس عملها الذي باشرته منذ أكثر من أربعين عامًا. تتذكر سلمى الغيرة التي كانت تنتابها من جلساتهما الطويلة حين كانت تدعوه إلى وجبة اسباجيتي ويطلقان العنان للغتهما الأم في أحاديث لا تنتهي عن الوطن. أو حين كان يتطوّع للعزف في القداديس الاحتفالية في أعياد ومناسبات الدير، مرافقًا تراتيل الأخت آنجيلا التي سمعتها سلمى عدة مرات ترنم بخشوع بصوتها الملائكي.

ستفرح «سور آنجيلا» برؤية صديقها القديم ثانية، أو ربما ستحزن، ستحزن جدًا. فكّرت سلمى.

أحبّ المستشرق المكسور أن يخرج ليتجول في حلب القديمة، فرافقه برونو مع اثنين من الممرضين ومعداتهما الطبية الكاملة التي تتضمن نقّالة خفيفة تصلح لحمل المريض في حال اقتضى الأمر.

الجيش السوريّ النظاميّ كان قد انتهى منذ أشهر قليلة من فرض سيطرته على أحياء حلب الشرقيّة التي سيطرت عليها الفصائل المعارضة مسبقًا ولوقت طويل، وبالتالي توقفت الاشتباكات العسكرية تمامًا، ما سمح للناس بمعاودة التجوال في المدينة القديمة التي وقعت خلال المعارك في خط النار.

ندم برونو أشد الندم لسماحه لشمس بالإتيان بهذه الجولة، إذ غمرته الكآبة وهو الذي لم يكن يعرف عن حلب سوى أنها المدينة التي استقر فيها صديق عمره. دمعت عيناه وشعر بضيق في صدره، وتساءل عما يدور في صدر صديقه وهو يتجول على أنقاض معشوقته. وإذ شعر أن ركبتيه ترتجفان تحت جسده من هول ما يشهده، استغرب قدرة شمس الهائلة على الاستمرار في السير قدمًا، حاملًا أوجاعه وذكرياته ومتوغلًا في عمق الخراب في حارات ما عادت مأهولة، لمدينة لقبت يومًا بأقدم مدينة مأهولة في التاريخ.

- نحن في باب قنسرين... وهنا كان بيتي.

أشار شمس الدين إلى بناء مهدّم لم يبقَ منه إلا بضعة جدران مخلخلة، استطاع أن يسمع بين جنباتها صوت قانونه يعزف: «يا دار ما فعلت بك الأيام...»[1].

- لقد اقترفتَ غلطة لا تغتفر يا برونو، بتأجيل زيارتك لحلب سنة بعد أخرى.

لمس ندبةً لجرح ملتئم في جبينه. بدأ يئن بألم، لمّا استرجع ذلك الأنين الذي زعزع أعماقه، عاودته مشاعر الذنب والعجز، عندما داهمته ذكرى تلك اللحظات الجهنمية الدامية التي شهدها هنا، في مسقط روحه وقلبه، في المرة الأخيرة التي جاء فيها خلسة إلى البيت.

---

(1) موال من قصيدة شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد بعد هجوم التتار 1258م

## -4-

قبل أن يتخذ القرار بالرحيل إلى إستانبول، ألحّت عليه رغبة جامحة أن يزور داره، ليعاين الحي الذي قالوا إنه بات اليوم من أخطر أحياء حلب. عمل جاهدًا لعدة أيام، مستغلًا علاقاته بجيرانه القدامى هناك الذين تفرقت أهواؤهم، واستطاع أخيرًا أن يعثر على من تبرع بمرافقته إلى قلب جهنم، مخترقًا الحواجز وخطوط النار.

تحت زخات متفرقة لرصاص لا هوية له، دخل إلى الحي بصحبة حسن، ابن جاره أبو عبد الرحمن، الذي بقي مع قلائل مثله مقيمًا في داره هناك، بينما نزح بقية السكان مثلما فعل هو، تاركين دورهم العتيقة لقدرها، وللقذائف العمياء التي كانت تمطرها نارًا ودمارًا.

- سأدخل وحدي.

قال لحسن، عندما وصلا أمام داره التي بدت متماسكة من الخارج.

- سأنتظرك على الناصية هناك. «أجاب»

كل الأبواب كانت مفتوحة، اللوحات اختفت مع كل السجاد، التحف القديمة، الفضيات والنحاس من فوانيس ومباخر وصوانٍ ومناقل، لم يبق لها أثر، الزجاج محطم، وخشب النوافذ والأسقف منه ما هو محترق، ومنه ما هو، كما قدّر شمس، مسروق.

في كل خطوة كان يدوس على فوارغ الرصاص المتناثرة، وعلى ذكريات بعثرتها الحرب وحولت حلوها مرًا. وفي أرض الديار، لمح حرائق صغيرة ما زالت تجتر قطع الأخشاب العتيقة وأوراق الأشجار اليابسة في الزوايا.

ألجمه الألم، وجمده خدر في المشاعر والأفكار، فتحرك كرجل ميت نحو السلّم الصاعد إلى غرفة نومه، وفي منتصفه، جاءه ذلك الأنين، كنواح أرواح بائسة في مقبرة.

قلبه المخدّر عاد إلى لحياة فجأة إذ خفق هلعًا، وتدفق الرعب نابضًا في رأسه وقارعًا صدغيه. توقف لهنيهة رهيبة منصتًا، تحركت قدماه ببطء على السلّم ساحبة إياه نحو الأسفل، ثم تجمدت ثانية، إذ سرى في جسده تيار ساخن غريب، جعله يصعد السلّم قفزًا، بقلب جريح فارقه الوجل وروح تلبّستها حالة عجيبة لا إسم لها.

في غرفة نومه الخالية من الأثاث، أبصر أبشع صورة حية صادفته في حياته، صرخ بهستيريا لم تنتابه قبلًا، ثم تقيأ بعنف. خرّ راكعًا ماسحًا قيئه ودموعه بكمّيّ قميصه، بينما بقيت عيناه معلقتان بذلك الجسد المشوّه الدامي المنطرح أرضًا لرجل يحشرج ويئن ويجاهد لالتقاط أنفاسه.

بعد برهة خاطفة حسبها دهرًا في الجحيم، تماسك شمس وقام مقتربًا من الجثة المحتضرة العارية إلا من دماء تجمدت عليها، فبدت كأن جلدها قد سُلخ عنها.

تفرّس في الوجه، فعرفه رغم تشوهه، هذا صلاح! أحد قارعي الرق في فرقته الموسيقية.

- صلاح... صلاح... هل تسمعني؟

تحرك الرأس باتجاه شمس، وواجهه صلاح بوجه متورم، لا عيون فيه، بل فقط شفتان ممزقتان تمتمتا بخفوت:

- أستاذ شمس الدين؟؟ أهذا أنت؟

- ما الذي فعل بك هذا؟

بدا الشاب كأنه يستجمع كل قواه الخائرة، ليستطيع الكلام، لكنه لم يقوَ، وأتت الإجابة من الخلف.

- أنا من فعل هذا... وهذا أقل قصاص ممكن للجرائم التي اقترفوها.

استدار شمس مذعورًا ليواجه أعينًا تقدح شررًا.

- مهند؟؟؟

الصدمة كانت صاعقة، عضو آخر من أعضاء فرقته، مهند، كان أحد أبرز المنشدين وأحبهم إلى قلبه، بصوته الرخيم القادر وإحساسه الذي قل مثيله.

- أنت يا مهند؟؟ ماذا يحصل هنا؟ بربك قل؟ ما الذي جرى وأوصلكما إلى هذا.

- ما الذي جرى؟؟ وتسأل ببراءة يا أستاذ شمس الدين.

كان مهند مدججًا بالسلاح، مرتديًا بنطالًا عسكريًا. وجهه الذي تعوّده شمس سمحًا وبشوشًا، أكلته لحية سوداء وأظلمته نظرة قاسية.

- ما الذي أتى بك اليوم إلى هنا يا أستاذي؟ هذا ليس مكانك.

- هذا بيتي!

- لم يعد كذلك، وبالأصل، لم يكن كذلك، فأنت مع كل تبجيلي واحترامي لك لست منا، جئتنا سائحًا، وستبقى كذلك، بدليل أنك تسأل الآن بعد كل هذا الذي جرى... «ماذا يحصل هنا؟».

- ماذا فعلت بصلاح؟؟

- اسألني ماذا فعل هو وجماعته بنا، ماذا فعلوا بالبلد، ماذا فعلوا بقريتنا، بأختي وأمي، وماذا فعلوا بأخي الصغير، وفي أي معتقل دفنوه؟

- صلاح؟؟

- خاله ضابط في جيش الزنادقة، وقد كان ضمن الكتيبة التي

داهمت قريتنا بحجة (التطهير)، وقتلت أمي دهسًا تحت جدران المنزل، واعتقلت أخي... أما أختي التي فرت من المجزرة، فقد وُجدت جثتها في الحقل بعد أيام مهشمة الرأس... ومغتصبة.

أصاب البكم شمس الدين لعدة ثوان، شعر فيها أنه سيتقيّأ مجددًا، قبل أن يتابع مهند.

- ماذا تعرف أنت وضيوفك عن الذي يجري؟ ماذا تعرفون عن قرانا وحياتنا؟ ماذا تعرفون عن معاناتنا؟ تحبون حلب؟؟ ماذا تعرفون عن حلب؟

طفرت الدموع من عينيّ شمس مجدّدًا، ونطق أخيرًا.

- ولكن ما ذنب صلاح؟ إذا كان الضابط خاله؟!

- ذنبه أنه خنزير وخائن ويحمل في عروقه دمًا نجسًا، لقد سمعته بأذني يضحك ويفتخر بما فعله الجيش في تلك القرى، من دون أن يدرك أن إحداها هي قريتي.

انتفض صلاح، أو بقاياه الدامية، وحشرج بصوت جاهد لكي يخرجه من حلقه المحروق:

- بل اسأله يا أستاذ ماذا فعلوا هم في قرى ريف اللاذقية؟ وأين هي خطيبتي؟!!

- اخرس أنت.

عاجله مهند بركلة في خاصرته، فصرخ شمس بدلًا عنه:

- كفى يا مهند بحق الله، دعه، وقل لي، لماذا جئت به إلى بيتي؟ وكيف؟

- لقد استدرجته إلى هنا، قلت له إنك عدت وتريد رؤيته، أردت مكانًا منعزلًا لأنفرد به فيه، لأتلذذ بتعذيبه كما عُذّبت أختي، اعذرني يا أستاذ، لم أجد مكانًا أنسب، لم أعرف أنك قد تأتي.

- وماذا تنوي أن تفعل به؟

صمت مهند، ثم وضع سلاحه جانبًا، وجلس على الأرض مسندًا ظهره ورأسه إلى الحائطن أغمض عينيه كأنه يستريح من تعب ليالٍ من دم ونار، وبدا لشمس أنه قد نام، لكنه قال أخيرًا بصوت منخفض، صوت المنشد اللطيف المسالم.

- لست أدري بعد، كنت أعتقد أنني قد أجعله أسيرًا وأبادله بأخي، لكنني فطنت أن لا أحد يأبه بكيس الخراء هذا، هو مثلي، ومثل أخي، مجرد شيء تافه لا قيمه له.

تنفس شمس الصعداء عندما سمع الصوت الذي كان يعرفه كل المعرفة يتحدث من جديد، واستغل الفرصة ليقول:

- تعقّل يا بني، دعني أحمله معي إلى المستشفى، هو بحاجة إلى إسعاف سريع، لا تدع هذه الحرب المجنونة تذهب بعقلك وآدميتك، انتقامك من صلاح لن يعيد أمك وأختك، وصلاح، صلاح يا مهند، لقد كان صديقًا لك.

- صديقًا؟؟

ضحك مهند، وطالت ضحكته، وعلا صوتها حتى صارت تشبه العواء المنتحب، وترافقتْ بدموع سالت على اللحية السوداء.

- أنت لا تعرف شيئًا يا أستاذي العزيز.

- أعرف ماذا يا مهند؟

- صلاح لم يكن فقط صديقي، هو أخي نصف الشقيق، ولكنه ابن فاطمة الزهراء... ونحن أبناء خديجة.

اقشعر بدن شمس الدين، ضاع في التفاصيل ولم يعد يميز شيئًا، من ابن من، وما هي طائفة هذا أو ذاك؟ الصراع السني العلوي في نفس العائلة، وبين أخوين من أب واحد؟ لم يصدق، ولم يتكلم، فكّر:

«ما جدوى الكلام في هذا الزمن الرديء، وما جدوى التفاصيل؟».

فكّر أيضًا: «هل مهند محق، ماذا أعرف أنا عن هذه البلاد التي سميتها وطني؟ وعن هؤلاء الناس الذين اتخذتهم أهلي؟»

لم يطل تفكيره أكثر، إذ اهتزت الدار بهم بعد أن دوى صوت انفجار عنيف إثر قذيفة قريبة، عجّ الغبار وتطايرت الشظايا في الغرفة عابرة النافذة المحطمة الزجاج. وأصابت إحداها جبين شمس الدين بجرح لم يشعر به في وقته، إذ كان مغيبًا في فضاء مرعب آخر.

مهند الذي لم يحرك ساكنًا كأن الانفجار لا يعنيه، انتظر حتى هدأ الغبار، ثم ترجل والتقط سلاحه وعلقه على كتفه بهدوء، نظر ببرود إلى شمس العائد لتوه وقال:

- ارحل من حيث جئت يا أستاذ شمس الدين، لم يعد للفن مكان هنا، ولا للتصوف وعشق الله، ارحل، فلقد رحل الله جلّ جلاله من قبلك، ولا أحد يعرف متى سيعود.

- لن أغادر من دون صلاح.

- بل ستفعل يا سيدي،(أجابه بحزم) انسَ صلاح وانسني، وانسَ هذا البلد الملعون، بالمناسبة أنت مصاب، اذهب وعالج جرحك... فدمك غالٍ!

عندما خرج شمس من بوابة داره، لم يعرف الحارة التي انطمست ملامحها، ولم يكن مرافقه حسن ينتظره كما وعده على الناصية، بل جثته التي كان عدد من الشبان يحاولون إخراجها مقطعة الأوصال من تحت الأنقاض.

## -5-

انتاب برونو قلق شديد وهو يتأمل وجه صديقه، الذي زاد المرض من نحوله وهو يتحول إلى قناع حجري قاتم تحت وطأة الذكريات. تمنى أن يلمح دمعة تتأرجح في عينيه، اللتين كادتا لفرط جفافهما وجحوظهما أن تخرجا من محجريهما لتتدحرجا ككرات بلورية على الحجارة الخربة وتضيعا في الركام.

أما هو، فقد كان يتساءل بينما يتحسس الندبة في جبينه، إن كان مهند قد قتل صلاح أخيرًا، ودفنه تحت هذا الحطام.

عندما عادا إلى المستشفى، تمدد شمس الدين على سريره بسكون، وهمس لصديقه الذي سأله إن كان يشعر بالألم وبحاجة لحقنة:

– هذا ألم نابع من مكان لا يجد المورفين إليه سبيلًا يا برونو.

في الصباح التالي، أشرقت عليه سلمى. فاجأته طلّتها الفاتنة التي لم تنل الحرب منها ولا السنوات، رغم التعب الواضح في وجهها الذي تراجع جماله اللعوب الفتيّ، مفسحًا الساحة لمسحة من وقار وحزن زادت من فتنته، في معادلة تُناقض كل قوانين الطبيعة.

أما من ناحيتها، فلم تكتفِ بالمفاجأة، بل أصيبت بالذهول والهلع، وارتجف قلبها لرؤية هذا الغريب الهرم الجالس في السرير ينظر إليها باستكانة، وسألت نفسها إن كان هذا هو فعلًا الرجل الذي أنفقت عمرها كله في عشقه وانتظاره.

اقتربت منه، فتعرفت على شمس حياتها من نظرة عينيه، تنفست الصعداء، وابتسمت.

- كم أنا سعيد برؤيتك يا سليمى.
- كم اشتقت إليك يا شمس الدين.
- أعرّفك بصديق العمر، وطبيبي الخاص، برونو. برونو، هذه سلمى، روح حلب وزهرتها الشذية.
- تشرفت بمعرفتك.
- الشرف لي سيدتي.

تصافحا، وابتسم لها بودٍ بادلته بمثله، وهي تحاول أن تصرف نظرها أدبًا عن الوشم الذي شد انتباهها في رقبته.

بعد أن خرج برونو معتذرًا، ساد صمت طويل في الغرفة. لبث الاثنان يحدقان في بعضهما البعض من دون أن يعرف أي منهما كيف يبدأ الكلام.

- كيف تشعر يا شمس الدين؟

قالت سلمى أخيرًا مبددة الصمت، سنوات من الصمت، اقترفتها عامدة متعمدة، بحجة أن شمس الدين يعرف كل شيء.

- في هذه اللحظة بالذات، أشعر أنني بخير، لا بل أشعر أنني سعيد.
- يسرني هذا يا عزيزي.
- وأنت؟ حدثيني عنك؟

ابتسمت تلك الابتسامة الخطيرة التي لطالما هدّدت سلامه وعمل جاهدًا على الهروب منها، لكنه اليوم استسلم لها بانصياع لذيذ وغرق فيها حتى القاع، وهو ينصت مستمتعًا لنبرة صوتها ويفكر: كم هو جميل وحزين أن نعرف متى تكون المرة الأخيرة التي نعيش فيها موقفًا محببًا، أو نسمع صوتًا عزيزًا، أو تهددنا ابتسامة خطيرة بسرقة سلامنا وأمننا.

- حسنًا يا شمس، أنا كما أنا، مع كثير من الفراغ والضجر، وشيء من الحزن... أتعرف ما هي آخر مشاريعي؟ حسنًا... لقد توقفت عن

انتظار نهاية الحرب، وأخرجت مفكرتي القديمة وبدأت بتنفيذ البنود المعلقة المدونة فيها منذ زمن طويل، وكأن الحرب لن تنتهي، أو كأنني لن أخرج منها سالمة!

- وإن انتهت، وخرجتِ سالمة؟

- حسنًا، سأخترع بنودًا جديدة، وأعلّقها.

ضحك شمس للمرة الأولى منذ أن وصل إلى حلب، ثم سألها:

- وهل أنا أحد تلك البنود المعلقة؟ وما الذي ستنفذينه بشأني؟

لم تعجبها المزحة، نظرت إليه بعمق وراودها شك بالقاعدة التي آمنت بها لسنوات طويلة، أن شمس الدين يعرف كل شيء. وأجابته أخيرًا بلهجة لا تخلو من عتب:

- لا تقل لي إنك لا تعرف يا شمس، أنت لم تكن يومًا بندًا معلقًا ومؤجلًا، لقد كنت دائمًا مادة أساسية في حياتي أتعامل معها بشكل يومي، ومهمة مستحيلة لم أتوقف يومًا عن محاولة إيجاد طرق ممكنة لتنفيذها.

- أعرف يا سُليمى.

- أحب أن تناديني بسُليمى.

- وأنا أحب ذلك أيضًا.

- وإذن؟

- إذن ماذا؟

- ما الذي تريد أن تقوله لي؟

- وكيف عرفت أنني أريد أن أقول لك شيئًا؟

- حسنًا، أنا الأخرى أملك خاتم سليمان، هل نسيت؟

رفعت كفها وأرته الخاتم الذي يرتاح في سبابتها، فابتسمت عيناه الرماديتان.

- بل هو خاتم سُليمى، الذي يفوق في قدرته خاتم سليمان!
- قدرة معلّقة!
- بل فعالة يا سليمى! أنت على حق، لقد أردت أن أقول لك: إنك ربحتِ التحدي.
- تحدّي؟
- هل نسيتِ؟
- موعدنا الأول؟
- لقد سألتكِ يومها إن كنتِ مستعدة للتحدي!
- فأجبتك: جدًّا.
- طلبت منكِ حينها أن نؤجل حديثنا مدة عامين، كنت واثقًا أنك لن تعودي... لكنك فعلتِ!
- لم تكن تعرف شيئًا عني وقتها!
- حسنًا... لم أكن أملك خاتم سليمان!
- سألتك وقتها لماذا عامان؟ وأكرر السؤال اليوم بما أنك طرحت الموضوع.
- لأنني أعرف امرأة أحبت رجلًا يكبرها بأكثر من عشرين عامًا، عشقته وهجرت من أجله كل شيء، لكنها تركته بعد عامين!
- وهو؟ هل كان يحبها؟ وهل صرّح لها بذلك؟
- نعم، عاشا علاقة حب حقيقية لمدة عامين.
- هنا يكمن الفرق إذن.
- أتظنين ذلك؟
- لو أحببتني وقتها وصرّحت لي بذلك، وعشت معي علاقة الحب التي كنت أنشدها، ربما كنت تركتك بعد عامين.
- ربّما!!

- ربّما، كنت سأنتهي منك، لأستأنف حياتي بذهن صاف وقلب خال، مستعد لحب جديد.
- ومن كنتِ ستحبين يا سُليمى؟
- ربما... لوكاس!!
- لوكاس؟! المصور الإسباني؟
- أقول ربما.
- هل ما زلتما على اتصال؟
- لا، لكنّني أستقي أخباره من مصادري الخاصة.
- بواسطة خاتمك السحري؟
- دعك من لوكاس الآن، فقد فشلتْ علاقتنا فشلًا ذريعًا، على الرغم من أنه رجل رائع. لقد أردت بشدة أن أكون معه، لكن قلبي كان معلقًا برجل آخر، رجل رفض أن يحبني، ورفض أن يُحرّرني!

أغمض شمس عينيه فشعرت أنه يتألم، ندمتْ على جملتها الأخيرة التي جاءت على الرغم من صحتها ثقيلة الوطء على رجل يصارع مرضَ عضالٍ، جاء من مكان بعيد لمجرد أن يلقي نظرة وداع.

- آسفة يا شمس الدين!
- آسفة؟ أنتِ؟ لا يا صغيرتي، أنا هو الآسف، وسأقول لك من أجل ماذا.
- إذا كان الكلام يتعبك، فلا أريد أن أسمع.
- بل ربما الكلام سيريحني، على الرغم من أنني لم أكن أريد أن أقول ما سأقول.
- أنا أسمعك.
- أولًا، أنا آسف، ليس لأنني لم أحبك، فأنا في الحقيقة أحببتك يا سلمى، وما زلت أحبك، وهذا الحب هو من أجمل ما مرّ في حياتي.

تقطّعت أنفاسها، أصابها دوار خفيف وظنت أنها تحلم، تسمّرت في مكانها من دون أن ترمش، وتحولت كل ذرات جسدها وروحها إلى آذان صاغية، لتلتقط صوت شمس الضعيف، وهو يقول ما انتظرتْ سماعه عمرًا طويلًا.

- أنا آسف، لأنني استسلمت لأنانيتي وكررت معك ذلك التحدي السخيف، في المرة الأولى كنت نزيهًا وواثقًا مما أفعل، وكنت مؤمنًا أنها خطة ناجحة لتعيدي حساباتك ولتبحثي في أعماق روحك وقلبك، كنت أعرف أنك لن تجديني هناك، ولن تعودي، لكنك فاجأتني وعدتِ، فأحببتك وقتها، أحببت خبثك وبراءتك، عنادك واستسلامك، ولم أميز إن كان تمسكك بي ضعفًا أم قوة، وهذا السؤال جعلني مشغولًا بكِ ومشدودًا إليكِ، كان عليَّ وقتها أن أغيِّر الخطة، كي أحررك، وأنا لم أفعل، لأنني في أعماقي أحببت أن أحتفظ بك، من دون أن ألزم نفسي بعلاقة لم أجدها منطقية ولا تنتمي للواقع بصلة، ولا تتناسب مع الخطة التي رسمتها لحياتي المكرّسة للموسيقا والتأمل.

- ولكن... إذا كنت قد أحببتني، لماذا جزمت أن العلاقة لا منطقيّة، ولا تنتمي للواقع؟

- لأنها كذلك يا سلمى، لقد شعرتُ أنه حب شاذ، لقد كنت طفلة يومها، وأنا كنت أقرب أن أكون والدًا لك، وانظري إلينا اليوم، أنت امرأة ساحرة في أوج فتنتها، وأنا عجوز على فراش الموت.

- أرجوك يا شمس.

- لا تجزعي من الحقيقة يا صغيرتي، لست آسفًا لأنني لم أستسلم لحبي لك ولم أعترف به، فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الصحيح الذي فعلته، لكنني آسف لأنني لم أكن قويًّا بما يكفي لأتحرر من هذا الحب وأحررك منه.

- كان يمكن لها أن تكون علاقة رائعة، حتى وإن لم تستمر، لماذا حرمتنا هذه التجربة؟

- لأنني خشيت أن يكون الثمن غاليًا، لم أتخيّل أن أكون ذلك الحقير الذي سرق أمي مني ومن حياتها، ربما هي عاشت تجربة حب رائعة لمدة عامين، لكننا دفعنا عمرنا كله ثمنًا لهذا الحب، ولهذه التجربة!

- أمك؟؟

- بعض التجارب يا سلمى باهظة الأثمان، وقد تكلّف المرء حياته.

- وبعض الحب يا شمس يستحق أن يبذل الإنسان من أجله حياته.

- أنت قلتها... حياته هو، لا حيوات أشخاص آخرين.

ألحّ عليها ذلك السؤال الذي كان عقدة حياتها، لم تسأله إيّاه قبلًا، لأنها ظنّت أنه لم يختبر الحب. لكن، بعد اعترافه اليوم، تجرّأت وسألته:

- ما هو الحب يا شمس؟

- قد لا يعجبك الجواب يا سلمى!

- قل أرجوك!

- هو مجرد كيمياء... كيمياء لعينة، تتفاعل صدفةً في معادلة معقدة، فتتحكم بأذهاننا ووجداننا، وعمرنا كله.

- كيمياء؟

- تمامًا مثل العقاقير التي تجعلنا نهلوس.

- ومتى توصّلت إلى هذه الحقيقة؟

- منذ زمن قصير، في المستشفى في روما.

- كيف؟

- ذات يوم وبعد عملية استئصال لبضع خزع من جسدي لفحصها

مخبريًّا، وفي أثناء فترة إنعاشي من التخدير، حلمتُ حلمًا غريبًا جدًا! عشتُ لحظات مخيفة خلتها عمرًا طويلًا وأنا مُستلب بحالة معقدة، سراديب معتمة وقبور تحوي كل الموتى الذين أعرفهم. كانوا يكلمونني، ثم بدأوا يصرخون بي، وعندما استيقظتُ لم أصدق أن ما مررت به لم يكن حقيقيًا. وعندما حكيت لبرونو ما رأيت، بصفته طبيبًا وصديقًا، ضحك ببساطة وقال لي «لا تقلق يا صديقي، هذا حلم شائع يراه كل المرضى الذين يحقنون بنفس ذلك العقار الذي حقنت به قبل العملية».

- عقار؟

- نعم... عقار، تركيبة كيماويّة، غيّرتني وغيّرت الكون من حولي، جعلتني أهلوس وأعيش في عوالم أخرى، مثلي مثل أي شخص غيري يحقن بها.

- وما علاقة هذا بالحب؟

- عندما تأملت سلطة الكيمياء على ذهن الإنسان وجسده، تذكّرتُ تلك الحالة التي تَستلبُ الوجدان من دون أسباب منطقيّة، وتلوّن الحياة تارة بالورديّ وتارة بالأسود، كأنها تمامًا مُجرّد آثار جانبية لبعض التفاعلات الكيماويّة! والإنسان في النهاية هو عبارة عن خلايا تتكوّن من عناصر حيوية قابلة للتفاعل مع أيّة عناصر أخرى حسب معادلات لا حصر لها.

- فالحب إذن... مجرد هلوسة!

- ثمّة طبعًا أنواع من الحب، لكن ذلك المجنون... الأعمى... الذي يسكن تحت الجلد ويسري في الدماء... هو مجرّد هلوسة، وعناصر حيويّة نحملها في جيناتنا.

- وما هو العلاج إذن؟

- لا علاج، لا تحاولي أن تتخلّصي من هلوستك لأنها في جيناتك أصلًا، ولكن أيضًا، لا تصدّقيها وتُسلميها زمام حياتك، تعايشي معها، وعيشي.

ضحكت سلمى:

- ما أسخف الحياة!

فابتسم شمس بعذوبة وقال:

- لا أحلى من تلك السخافة!

أشار لها إلى يمينه:

- افتحي هذا الدرج من فضلك.

فتحت درج الطاولة الصغيرة بجانب سريره، فأومأ لها إلى صندوق خشبي مطعم بالصَدَف، أخرجته ووضعته في حضنه، ففتحه، وأخرج منه أولًا مسبحة أمه:

- أعطتني أمي هذه وهي على فراش الموت، وقد وعدتها يومها ألا أدع الحب يحطم حياتي، وقد نفذت وعدي، ولكن، ليس بشكل كامل.

أعاد المسبحة وأخرج الخاتم، خاتم سليمان... وقدمه إلى سلمى:

- وأنا آسف مرة أخرى يا صغيرتي أنني لم أكن سليمانك... استعيدي خاتمك، لعله يجد سليمانه يومًا ما وتتحقق النبوءة.

تناولت الخاتم منه، تأمّلته قليلًا، ثم أعادته إلى الصندوق الذي كان ما يزال مفتوحًا في حضنه، أغلقته، وسحبته منه وأعادته إلى درجه.

- لا يحق لك أن تعيد الخاتم إليّ، ستفسد الأسطورة، افعل به ما تشاء، ارمه في البحر، غيّر مجرى أحداث الحكاية، غيّر النبوءة، ولكن أرجوك، لا تعده إليّ.

- لا أستحقه يا سلمى!

- لست أنت من يقرر هذا!

- القدر قرّر وانتهى الأمر!

- كيف عرفت أن الأمر انتهى؟

- أنا أعرف كل شيء يا سلمى... قالها وهو يغمز بعينه، ويبتسم بحيويّة، ثم أردف:

- أنت امرأة فريدة يا سليمى!

- لقد أحببتك يا شمس الدين، بغض النظر عن الأسباب الباطنية لهذا الحب، وبغض النظر عن كونه حقيقة أم هلوسة أم خيال، لقد أحببتك ببساطة، ولا يسعدني أكثر من أن يبقى هذا الخاتم معك، ولك.

- وأنا سيسعدني أن يكون هذا الخاتم في مكانه الصحيح... لنترك الأقدار تكمل لعبتها، لعلّ الأوان لم يفتْ بعد، بالنسبة إليكِ على الأقل، عزيزتي سليمى.

قبل أن تودعه بقلب يعتصره الألم، تردّدت قبل أن تسأله:

- وكيف... كيف سأطمئن عليك؟

ابتسم لها ابتسامة شاحبة وحلوة، وأجابها مدركًا قصدها:

- سيتصل بكِ برونو.

قبل أن تغادر الغرفة، التفتت إليه لتلقي النظرة الأخيرة، وجدته يحدق فيها بعمق، وتخيلت أنه يهمس: «هل تقتربي؟»

عادت واقتربت منه، فرفع كفيه واحتضن وجهها، انحنت نحوه من دون أن تشعر، فقبل شفتيها بمزيج غريب من عاطفة عنيفة وحنان لطيف، وعندما أبعدها، أغمض عينيه وتمتم:

- «الآن يا سيدي، أطلق عبدك بسلام.»

اتصل برونو بعد ثلاثة أيام. فقط ثلاثة أيام، ليعلن لها أن شمس حياتها غربت، ولن تشرق من جديد.

وعلى الرغم من أنها كانت تنتظر ذلك الخبر بين اللحظة والأخرى، إلا أنها لم تستطع أن تتقبله بسلام. لم تتمكن من التحكم بشلال المشاعر المتناقضة الذي انهمر فوقها، فأغرقها وقطع أنفاسها. عاودها الشعور بالغبن الذي شعرت به يوم رحل عن حلب، وشعرت إلى جانب الحزن بالغضب الشديد. «أهكذا إذن... أهذه هي النهاية إذن؟ ترحل فعلًا... ترحل حقًا؟ تمضي من دون أن تفعل شيئًا ومن دون أن تترك لي شيئًا، تتركني خلفك كأنني لم أكن، وكأن كل هذا العمر الذي عشته من أجلك، كان هباء في هباء؟»

احترم برونو الدموع التي أخرستها لعدة دقائق، وبقي منتظرًا بصبر على الطرف الآخر من الخط حتى استطاعت أن تتنفس، وتقول:

- أرسل لي العنوان وموعد الجنازة من فضلك، أنا آتية.

## -6-

عندما أقلعت بها الطائرة حاملة إياها إلى روما، بعد سنوات من الحبس الاختياري في جحيم حرب حلب، حلّقت سلمى في عوالم غريبة لا تحكمها قوانين الأرض ولا الطبيعة. راقبت مذهولة مشاعرها التي تخفّفت من أثقالها، فبدت كأنها تسبح في مجالٍ خارج نطاق الجاذبية. عوضًا عن الحزن الذي كان يلتهم روحها منذ ساعات، أحسّت سلمى بشعور لم تعرفه قبلًا، له مذاق الحرية، ويتضوّع بعبير الأمل وانتظار غد جديد، كأنه الانعتاق بعد سجن طويل، أو السلام بعد حرب ضروس.

هل تخجل من المشاعر التي تنتابها الآن وهي في طريقها إلى دفن الرجل الذي عشقته حوالي عشرين عامًا؟ لا تخجل، بل تشعر أن مهمة قاسية كانت ملقاة على عاتقها نُفّذت الآن على أكمل وجه. لذلك استمتعتْ بالاسترخاء في حضن سلام روحي، لا تشوّش سكينته أيّة نغمة ناشزة، وهي تردد في قلبها كلمات شمس الأخيرة: «لا تحاولي أن تتخلصي من هلوستك لأنها في جيناتك أصلًا، ولكن أيضًا لا تصدقيها وتسلميها زمام حياتك، تعايشي معها، وعيشي».

عندما اتصلت ببرونو لدى وصولها، أخبرها أن سيلڤيو كارلوني المسيحي المولد، وشمس الدين المستشرق المسلم، قد أوصى بأن يُحرق جثمانه، ويلقى برماده في البحر، ماعدا حفنة صغيرة، تسلّم ضمن قارورة لسلمى، على أن تنثرها في أرض بيته بحلب!

في المكان الذي تجمّع فيه الناس للوداع الأخير كانت هناك لوحة

كبيرة كتبت عليها عبارة لجلال الدين الرومي بعدة لغات: «لا تبحث عن ضريحنا في الأرض بعد وفاتنا... فضريحنا قلوب العارفين».

كان يعرف أنه سيُعد مرتدًا عن الإسلام لإصراره على مخالفة الشرع فيما يخص حرق جثمانه وطقوس وفاته، كما كان قد سُمّي سابقًا خارجًا عن المسيحيّة حين أعلن إسلامه، فأوصى أن يُصلِّيَ على روحه كل فرد من الحاضرين صلاته الخاصة بينه وبين نفسه في دقيقة تأمل وصمت. أغلقت سلمى عينيها وقرأت ما تذكرته من سورة ياسين، وطلبت المغفرة لكليهما، قبل أن تُقرأ فوق الجثمان النصوص التي اختارها شمس من مجموعة جلال الدين الرومي، وتناوب على قراءتها عدد من أقرب الأصدقاء:

*«في الكنيسة وفي المسجد، أنت المقصود يا مرشدي*
*أينما وجّهتَ وجهَك، أتجّه أنا، قسما بروحك»*

*«أنت الذي أحببت حياة الغراب*
*برد الشتاء وثلج الشتاء...*
*منفيّ أبدًا من وديان الورود الحمراء، والعنادل...*
*خذ هذه اللحظة إلى قلبك*
*وعندما ستغادرك*
*ستظل تبحث عنها طويلًا*
*كما لو أنها تختفي*
*مع مئات المصابيح والعيون».*

*«كملح يذوب في المحيط*
*ابتلعت في بحر الله*
*الإيمان الماضي، الكفر الماضي*

الشك الماضي واليقين الماضي.
وفجأة أشرق في صدري نجم لامع
واختفت في ضوء ذلك النجم
كل شموس السماء.
إنه يوقد العالم لهبًا
ويضعني فوق مائة من ألسنة النيران
تلتف حول محرقتي».

«إذا رحلت الحياة
فالله يعطيك حياة جديدة
الحياة الأبدية تتجدد
فهذه الحياة من الموت
ينبوع الفساد يوجد في الحب
يجيء، وفي هذا البحر اللامتناهي من الحب يغرق.
لقد كنت سعيدًا
أرقد في قلب اللؤلؤ
إلى أن ضُرِبت بإعصار الحياة
فركضت في موجها المندفع
نطقت عاليًا سر البحر
ورقدت مثل غيمة مستنفدة على الشاطئ بلا حراك».

«متذكّرًا شفتك، أقبل الياقوت الأحمر
لا أملك أن أرتشف، شفتاي لا تمس هذا
يدي المبتهلة لا تصل إلى سماك البعيدة
ولذا فأنا راكع أعتنق الأرض.

بحثت عن الروح في البحر
ووجدت المرجان هناك
وتحت الرغوة
كان كل المحيط يرقد عاريًا لأجلي
في ليل قلبي وعلى طول الطريق الضيق
شعرت بالضوء
أرض أبدية من النهار».

بعد مراسم الحرق، تفرق الحشد الغفير الذي أذهل سلمى تنوّعه، إذ ضمّ فنانين وأدباء وموسيقيين، مستشرقين ومستغربين، سياسيين وعسكريين، رجال دين مسيحيين ومسلمين ويهود، رهبان ومتصوفين وملحدين، أثرياء ومشهورين، بسطاء ومتشردين، عرب... أوروبيين... آسيويين وأفارقة. كل واحد من هؤلاء كان يعدّ نفسه صديقًا مقرّبًا من شمس الدين، وكل واحد من هؤلاء، كان لديه حكاية ليحكيها عن شمس الدين.

حمل أقرب الأصدقاء رماد سيلڤيو شمس الدين كارلوني، وركبوا سياراتهم متجهين إلى «ليدو أوستيا»، أقرب شاطئ إلى مدينة روما لينثروا رماد صديقهم في البحر.

ركبت سلمى مع برونو وزوجته، وهي تضم إلى صدرها، القارورة الصغيرة التي استلمتها للتو.

عندما أوصل برونو سلمى إلى فندقها في المساء، سألته قبل أن يمضي:

- ألم يترك لي شيئًا؟
- بلى... ولكن ليس معي!
- ماذا يعني هذا؟

- لا أعرف يا سلمى... لقد أوصاني أن أجيبك هكذا إن سألتني هذا السؤال... كأنه كان يعرف أنك ستفعلين!

طفرت دمعة باسمة من عينها وقالت:

- نعم كان يعرف... شمس الدين يعرف كل شيء.

# نصف الشمعة السادسة

# -1-

تمددّتُ على سريري منهكة الروح والجسد، القارورة التي تضم رماد شمس كانت ما تزال في يدي. أفكر بذهن مضطرب... ماذا يعني أن يتحوّل الإنسان إلى رماد؟ طوله الفارع، نظراته المهيبة، صوته الرخيم الواثق، ابتسامته الآسرة، كل موسيقاه الرائعة، كل كلماته المؤثرة، كل تلك القسوة وكل ذلك الحب، كل شيء... صار اليوم حفنة من رماد،حصلت عليها أخيرًا، وهي هنا الآن، في قبضة يدي.

ضممتها إلى صدري، أقرب ما يمكن إلى قلبي الذي كان يرتجف مستغربًا، لطالما حلمتُ أن أنام في حضنك يا شمسي... واليوم، أنت الذي ستنام أخيرًا في حضني.

تساءلت عن مصير الخاتم. هل ما زال يعانق مسبحة أمه في ذلك الصندوق، أم أنه تركه لي في مكان آخر؟ كان يعرف أني سأسألُ عنه، إذن؟ ماذا تعني الرسالة التي حمّلها لبرونو؟ تعني أنه ترك لي شيئًا ما في مكان ما، هل هو الخاتم؟ وأين؟ «يا إلهي يا شمس الدين، حيًّا وميّتًا، تسرق سلامي، ترميني في وادٍ من ألغاز، تحيّرني!».

بعد هنيهة قصيرة، شعرتُ بالقارورة تسخن في يدي، فتحت عيني... جلست في السرير ونظرت إليها، فإذا بها تسطع بنورٍ أحمر يزداد توهّجًا شيئًا فشيئًا... خفت... وضعت القارورة على طاولة الليل إلى جانبي وراقبتها وهي تهتز وتتوهج... خلع الرعب قلبي، ماذا

يحدث هنا يا شمس الدين؟ صرخت، فأجابني شمس: افتحي لي القارورة يا سلمى... حرّريني... شعرتُ بقوة تتغلغل في كياني عندما سمعت صوته الهادئ، مددت يدي بثقة، أمسكت القارورة الساخنة، ونزعت عنها الغطاء، فخرج منها غبار كثيف اجتاح الغرفة كعاصفة رملية، أغمضت عينيّ التي هاجمها الغبار، لبثت ساكنة حتى هدأ الجو حولي وساد السكون. شعرتُ بيده تمسّد شعري، فتحت عيني وكلي شوق لرؤيته، وجدت لوكاس أمامي، تأملته بذهول ولم أنبس ببنت شفة، فبادرني هو: اسألي عني يا سلمى، أنا أحتاجك.

كيف جئت يا لوكاس؟ قلتُ له، لكنه لم يرد، مددت يديّ لألمس وجهه، فإذا به يتفتت تحت أصابعي ويتحول إلى غبار... سمعت صوت شمس الدين يقول: «إذا رحلتْ الحياة... فالله يُعطيك حياة جديدة...

فتحت عينيّ، وحدّقت في الظلام، استغرق الأمر عدة لحظات، قبل أن أعي أنني كانت أحلم... القارورة ما زالت في قبضتي... أضمها إلى صدري، ولوكاس لم يكن موجودًا، ولا كان صوت شمس الدين ولا الغبار.

جلستُ في السرير، أضأتُ المصباح على يميني، ووضعتُ القارورة على طاولة الليل بحذر، ماذا تريد أن تقول لي يا شمس، لوكاس بحاجة إليّ؟

نظرت إلى الساعة، إنها الواحدة ليلًا وعشرين دقيقة، مستحيل أن أتصل بمانويل الآن. تناولت موبايلي وكتبت له: «عزيزي مانويل... اتصل بي أو اكتب لي حالما تستيقظ... الأمر مهم... سأكون بانتظارك.»

في الصباح التالي، أيقظتني رنة الماسينجر الحادة. عندما فتحت

عيني ونظرت إلى يميني، كانت القارورة الصغيرة هناك، منتصبة بهدوء ووقار، وترنو إليّ بصمت:

- صباح الخير يا شمس الدين.

تمتمت، وتذكرت حلم ليلة الأمس، وتذكّرت لوكاس، تناولتُ الموبايل من جانب القارورة، وفتحت الماسينجر، لأجد رسالة مانويل:

مرحبًا سلمى... بابا في المستشفى... تعرّض لحادث سيارة منذ أيام، وقد أجريت له عملية في رأسه بالأمس، وهو الآن في العناية الفائقة، لم يستعد وعيه بعد.

نهضتُ من سريري منتفضة، هوى قلبي إلى عمق سحيق وأحسستُ بفراغ مؤلم في صدري.

- لا يا لوكاس... أرجوك.

جرّبت أن أتصل بمانويل، فلم يرد، كتبت له: «أرسل إليّ عنوان المستشفى يا مانويل.»

شعرت أني أتحرك في دوامة من جنون، من حلب إلى روما إلى مدريد، من الحرب إلى المحرقة إلى غرفة العناية الفائقة، وماذا بعد؟!

قبل أن أفكر وأتردد، تناولت الموبايل من جديد، اتصلت بمكتب سفرياتي وطلبت منه تغيير بطاقة حجز الطائرة، لتصبح وجهتي التالية مدريد، وعلى أسرع رحلة ممكنة.

وبانتظار الإجابات، هدأت لبرهة قصيرة، سهوت فيها عن كل شيء وانا أرنو ساهمة إلى القارورة العجيبة. أعادتني رنة الموبايل من شرودي، وقبل أن أرد، همست بهدوء: «شكرًا يا شمس الدين، عسى أن نصل قبل فوات الأوان.»

***

في ظهيرة اليوم التالي كانت سلمى في الفندق في مدريد، أرسل إليها مانويل عنوان المستشفى، وموعد الزيارة، وقال لها إنه سيكون هناك في انتظارها.

التقته في المدخل، عرفا بعضهما البعض على الفور، صافحها بوقار وتهذيب، أما هي، فقد جذبته إليها وطبعت قبلة على خده.

في المصعد قال لها مانويل، الذي يتحدث الإنجليزية بشكل جيد، إن الزيارات ممنوعة عن لوكاس لأنه ما زال في قسم العناية الفائقة، لكنها يمكن أن تراه من خلف الزجاج.

- وماذا يقول الأطباء عن حالته؟

- مستقرة، والعملية ناجحة ولا مضاعفات خطرة، استعاد وعيه جزئيًا وفتح عينيه مرتين، لكنه ما زال بحاجة لبعض الوقت ليصحو بشكل كامل.

- الحمد لله.

أمام مدخل العناية الفائقة، كانت هناك ردهة صغيرة، جلست فيها صبية شقراء تحتسي القهوة، ورجل فارع الطول يتحدث بالموبايل.

- هذا عمي ميكيل أنخيل، وهذه مونيكا. (همس لها مانويل.)

عندما اقتربا قدّمها لعمه قائلًا:

- هذه سلمى، صديقة قديمة لبابا من حلب.

أنزل ميكيل أنخل موبايله وصافحها:

- مرحبا، أنا أخوه ميكيل أنخيل، تشرفت بلقائك.

- شكرًا... أنا أيضًا... تشرفت بلقائك.

نهضت مونيكا واقتربت منهما متفحصة سلمى بفضول، وقالت:

- وأنا مونيكا... «صاحبة» لوكاس.

- أنا سلمى... تشرفت بمعرفتك.

- لندخل...

قال لها مانويل وهو يحدج مونيكا بنظرة جافة.

سارت خلفه بذهن مشوش، حتى وصلا إلى حيث يرقد لوكاس، تحدث مانويل إلى إحدى الممرضات، فدخلت الغرفة وكشفت الستار عن نافذة عريضة أظهرتْ مريضًا مسجّى على سرير وملفوف الرأس بالشاش وتتصل بجسده وتتدلى منه كمية كبيرة من الأشرطة والأنابيب.

هل هذا لوكاس؟ سألت نفسها التي لم تتعرف على أي جزء منه. هل أنا مجنونة لأركب الطائرة من روما إلى مدريد لأقف هنا خلف الزجاج أتطلع إلى رجل ذي رأس من شاش وجسد مغطى بالخراطيم وصاحبة تنتظر في الخارج؟

- تقول الممرضة إن وضعه جيد. همس مانويل.

- هذا يسرني.

- هل نخرج؟

- هكذا... بهذه السرعة؟

- لا فائدة من البقاء أكثر.

- ألا تسمح لنا بالدخول... (قالت مشيرة إلى الممرضة) اسألها.

- أنا سمحت لي بالدخول هذا الصباح... لكن لا أعرف إن كانت ستسمح لك أيضًا.

- اسألها... من فضلك.

أومأ مانويل للممرضة أنه يريد الدخول... فأشارت أن لا... وهمت بإغلاق الستار إلا أن انتفضت سلمى وقالت:

- إنه يتحرك!!

لوّح الاثنان للممرضة وأشارا إلى لوكاس، فتركت الستار وتوجهت إلى مريضها الذي كان يحرّك رأسه... ويحاول فتح عينيه.

نظرت الممرضة إلى مانويل وابتسمت ثم توجهت إلى الباب وفتحته لهما قائلة:

- لقد فتح عينيه... من الجيد له أن يراك يا مانويل ولو أنه ليس بوعيه الكامل، ادخل.

دخل مانويل فدلفت خلفه سلمى... تجاهلتها الممرضة عمدًا، وتنحّت إلى الخلف.

كان وجهه متورمًا وتحيط بعينيه هالات كحلية اللون، لكن مقلتيه... كانتا هما نفسهما،العسليتان اللطيفتان، هما نفسهما، عينا لوكاس، هذا لوكاس إذن:

- مرحبا لوكاس.

همست له وهي تبتسم، فنظر إليها بعمق لبرهة لم تطل، خالت أنه يبتسم، ثم أرخى جفنيه من جديد، وعاد إلى سباته.

- حسنًا... هلا خرجتما الآن من فضلكما.

- أهو بخير؟ (سألتها سلمى.)

- نعم هو بخير، لا تقلقي.

- شكرًا لك.

عندما خرجا قال لها مانويل قبل أن تغادر:

- شكرًا لك سلمى... أنا سعيد جدًا لحضورك.

- وأنا أيضًا يا مانويل، أتمنى للوكاس أن يتعافى بسرعة.

- وأنت...أين ستذهبين الآن، ألن تعودي؟

- حسنًا يا عزيزي، سأذهب لزيارة أهلي في فرنسا لبضعة أيام، وسأبقى على اتصال بك لأطمئن على لوكاس.

- وهل ستعودين إذا صحا؟

- حسنًا، أتمنى أن يصحو قريبًا، ولكن، أظن أنه محاط بكثير من الأحبة هنا ولن يكون بحاجة إليّ.

ظهرت خيبة فاترة في نظرته الذكية، وفكر قليلًا قبل أن يجيب:

- اسمعي سلمى، مونيكا ليست «صاحبة» بابا كما ادّعت، هو يخرج معها في بعض الأحيان، لكنه لا يحبها.

لم تتمالك ضحكة فاجأتها وفاجأت مانويل، كتمتها بالكاد احترامًا للظرف الثقيل، ثم قالت:

- أنت أذكى طفل عرفته في حياتي يا مانويل.

- طفل؟ علّق مستنكرًا.

- بل شاب رائع... يا صديقي.

- سأقول له أنك أتيتِ.

هزت له رأسها وهي تبتسم، وخطرت في بالها فجأة فكرة هيجت مشاعرها، فدمعت عيناها، ثم خلعت خاتمها العزيز من سبابتها، وقدمته لمانويل قائلة:

- اسمع يا مانويل... كنت قد وعدت لوكاس أن أحكي له قصة هذا الخاتم عندما آتي لزيارته في مدريد، وأنا كنت قد قررت أن أهديه إياه أيضًا... ونظرًا للظروف، فإنني سأفي بوعدي الآن بما يخص الهدية، أما القصة، فليس بإمكاني حكايتها للأسف.

استلم مانويل الخاتم منها مأخوذاً، وضعه في إصبعه، فاستقر ملائمًا لها تمامًا:

- كم هو جميل!

- احتفظ به يا مانويل، وعندما يصحو لوكاس، قل له إنني جئت لزيارته، وأنني تركت له الخاتم معك أنت.

- شكرًا يا سلمى، أظن أنه سيكون سعيدًا جدًا.

- أتمنى هذا، اعتن بنفسك يا صديقي.

- وأنت أيضًا، يا صديقتي الجميلة.

خرجتُ وقلبي يقطر ألمًا... وسألتُ نفسي... من أين خطرت لي فجأة فكرة زيارة أهلي في فرنسا؟ فأنا قبل أن أسمع بحادث لوكاس كنت متشوقة للعودة إلى حلب بأسرع وقت... لأنثر رماد شمس الدين هناك حيث أحب أن يرقد ويستريح... ممتزجًا مع حطام الحجارة العتيقة، ومتوحدًا مع رماد الحضارة التي صنعت التاريخ ووجدت قبله.

اليوم، غيّرت الخطة لأبقى قريبة من مدريد، سأعتذر من شمس الدين، وأنا أعرف جيدًا أنه سيفهمني... لن يضير رماده، أن ينتظرني عدة أيام أخرى كي يتحرر، أنا الحرّة التي انتظرت في سجنه طوعًا عمرًا كاملًا... حتى كادت أن تتحول إلى رماد.

## -2-

في تولوز، انتهزت سلمى الفرصة القصيرة للاسترخاء في حضن والديها لتتخلص من التوتر الكبير والضغط الهائل اللذين عاشتهما في الأيام الأخيرة. كانت هي المرة الأولى التي تغادر فيها حلب بعد الحرب. شعرتْ بالاغتراب عن كل ما حولها، كأنها مسخ آتٍ من كوكب آخر. بدا الهدوء غريبًا عليها بعد سنوات من ضجيج القذائف، نامت بعمق لساعات طويلة، وشعرتْ أنها بحاجة إلى فترة من إعادة التأهيل، لتتأقلم من جديد مع أسلوب الحياة العادية كإنسانة طبيعية.

حاولتْ أن تعود طفلة الدكتور سامح المدلّلة، لكن محاولاتها لم تكلل بنجاح باهر... فلا هي الطفلة المدلّلة نفسها... ولا الدكتور سامح هو نفسه، هو هنا مجرد شيخ بليد المشاعر يقضي وقته بين البيت والسوق والحديقة، لا المستشفيات تعرفه ولا الناس يتهافتون على تحيته واستشارته وسماع حكاياته. أصابته كآبة لم يشأ أن يعترف بها، لكنها لازمته كظله، ووقفت كحاجز سخيف بينه وبين مدلّلته التي التزمت معه بالصمت.

لازمتْ والدتها لساعات طويلة، لبثتا فيها تتكلمان عن جدتها ماري، التي اعتادت سلمى أن تُمرّر أخبارها لأمها بعد كل زيارة من زياراتها المتكرّرة التي كانت تقوم بها لرؤيتها في حلب.

حكتْ لها عن القذيفة التي ضربت مأوى «مار منصور» حيث كانت تقيم ماري، وسببت إصابات خطيرة لعدد من النزلاء المسنين، لم تكن جدتها ضمنهم لحسن الحظ. وكيف تم إغلاق المأوى على أثر الدمار

الكبير الذي أصاب مبناه الموجود قرب ساحة فرحات المتاخمة لحيّ الجديدة في حلب القديمة، وإرسال من فيه إلى مأوى آخر في منطقة بعيدة عن مركز المدينة، حيث ذهبت سلمى لزيارة جدتها المذعورة، التي كان الألزهايمر ينفذ مهمته في ذهنها بنشاط ملتهمًا ما تبقى من ذاكرتها بما فيها القصص البعيدة.

- عادت ونستني من جديد... بعد أن صدقت أنها عرفتني... وتذكرتني.

قالت سلمى لأمها بمرارة... سلسلة من المرارة كانت تلبسها كالعقد على صدرها، كل حلقة من حلقاتها أمرُّ من الأخرى... مرارة الحرب... ومرارة فقدان شمس الدين، ومرارة انتظار اتصال مانويل.

بضعة أيام فقط، أنفقتها في انتظار اتصال مانويل الذي لم يأتِ، ليأتيها اتصال لم تنتظره... من لوكاس

- سلمى... كيف أنتِ؟ أنا لوكاس.

- لوكاس؟ يا للمفاجأة الحلوة! الحمد لله على سلامتك، كيف تشعر؟

- أنا بخير، قد أغادر المستشفى في غضون يومين، وكل شيء على ما يرام.

- كم يسعدني هذا.

- ويسعدني أنا أيضًا، شكرًا للحادث الجميل الذي جعلك تتصلين بي، وتأتين لزيارتي.

- كنت على اتصال بك منذ زمن بعيد!

- عن طريق مانويل!

- أنت وابنك شيء واحد، أليس كذلك؟

- لا... بالطبع لا! وبالمناسبة... شكرًا لأنك أهديته الخاتم، لكنني ما زلت متمسّكًا أن أعرف قصته.

- حقك.
- ومتى سأحصل عليه؟
- ارتاح الآن، سنتحدث لاحقًا.
- لاحقًا؟ أنا آسف، لقد شطبت هذه الكلمة من قاموسي.
- منذ متى؟
- منذ أن لفظني الموت بعد أن لاكني!
- ما أقوى هذا التعبير، أنا سعيدة لنجاتك يا لوكاس، سعيدة من أجلك، وسعيدة من أجل نفسي، لا تسألني ماذا يعني هذا.
- لن أسألك عن هذا، فعندي لك سؤال أهم، وخبر مدهش.
- ماذا عندك يا لوكاس؟ تكلم.
- لا... لن أقول، سأرسل لك صورة لاحقًا، لتشرح لك ما أريد قوله.
- أهي أحجية؟
- نعم، ولن يحلها أحد سواك.
- لقد أثرت فضولي وحماسي، أرسل لي الصورة فورًا.
- قبل ذلك، حدثيني عنك، إنني متشوق لمعرفة أخبارك، كيف أنت؟ وكيف هو... شمس الدين؟
- البقية في حياتك يا لوكاس... لقد توفي شمس الدين.

بعد يومين، أرسل لها لوكاس الصورة التي أذهلتها: الخاتمان التوأمان معًا، وتحتها كتب:

«ماذا يعني أن أحصل في أسبوع واحد على نسختين من الخاتم الذي تمنيته لعشرة أعوام؟؟!! إن لم تأت لتشرحي لي ذلك... سأحمل رأسي المفتوح وأجيء إليك... بأسرع مما تتخيلين.»

تحققت النبوءة!! أربكتها المفاجأة، شلّت ذهنها تمامًا وقطعت

كل خيوط المنطق التي كان من الممكن أن تسير خلفها. هي لا تملك الشرح الذي ينتظره، لكن، لعله هو يملك إجابة لذلك السؤال: كيف وصل الخاتم الذي تركته في صندوق شمس الدين في الأمس القريب، إلى يد لوكاس اليوم؟

صار عندها سبب أقوى لتعود إلى مدريد: خاتم سليمان، الذي أرادت أن تعرف أية سمكة لفظته هناك، على مائدة لوكاس.

لم يكن صعبًا أن تصل إلى بيته في توليدو، استقبلها أخيرًا في المنزل الذي لطالما جال طيفها في أرجائه، إذ كان عمر انتقاله إليه من عمر حبه لها. كما كانت تنتشر في كل زواياه التحف التي شحنتها خصيصًا من حلب، والتي كانت هي قد انتقتها له بعناية، قطعة تلو أخرى.

في الساعة الأولى من اللقاء، نسيت سلمى كل شيء عن الخاتم، إذ استحوذ عليها حضور لوكاس الذي لطالما عهدته لطيفًا وسلسًا، استحوذ عليها الآن بقوة وجبروت، فاستسلمت لدفء لذيذ شعرت به يغمرها برقة لا متناهية. لم تستوعب تمامًا ما يحصل لها، وتساءلت إن كان هذا بسبب الفراغ الكبير في وجدانها الذي خلفه رحيل شمس الدين، وغيابه الأبدي.

بعد فترة وجيزة، أخرج لها لوكاس خاتم سليمان. عندما انهمرت دموعها رغمًا عنها، شعرت بروح شمس الدين تحوم حولها، مذكرةً إياها بالنبوءة التي اخترعتها بنفسها، ولم تتحقق كما أرادت لها أن تتحقق.

– لأن الخاتم صار بحوزتي، تجرأتُ أخيرًا ليلة الأمس وأشعلت الشمعة الأخيرة وغفوت فوق تلك السجادة، أتذكرينها؟ أو تعرفين بمن حلمت؟ بشمس الدين، رأيته يخلع هذا الخاتم من إصبعه، ويضعه في إصبعي!

أكملت هي الحديث، حكت له كيف صمّمت الخاتمين بنفسها وكيف صنعتهما، وكيف أهدت واحدًا منهما إلى شمس الدين واحتفظت بالآخر. وقصّت عليه حكاية سليمان، وأكملتها بالإضافات التي أدخلتها عليها، وبالنبوءة التي اخترعتها لنفسها، ولبثت تنتظر تحقيقها عمرها كله.

عندما حان دوره، بدأ بالاعتذار قائلًا:

- يؤسفني أن أفسد أسطورتك الجميلة يا صديقتي... فأنا لم أجد الخاتم في بطن سمكة، وإنما على رفّ مغسلة في حمّام الرجال في مطار بيروت.

- مطار بيروت... متى كنت هناك؟

- قبل يوم واحد من الحادث.

- هذا يعني... قبل وفاة شمس الدين بثلاثة أيام.

- وما العلاقة؟

- شمس الدين في هذا اليوم بالذات، كان في مطار بيروت أيضًا، عائدًا من حلب إلى روما.

- هل تعتقدين... أنه نسيه قرب المغسلة هناك؟

- نعم، أغلب الظن!

قالت له ذلك بينما كانت تفكر في احتمال آخر.

- تقصدين أنه كان موجودًا هناك في الوقت الذي كنت فيه أنا؟

- أكيد.

- ولكن كيف يعقل أن أصادفه ولا أنتبه لوجوده؟ أنا أعرفه جيدًا!

- لقد تغيّر كثيرًا في أيامه الأخيرة، وأظنه استعان في المطار بكرسي مدولب لأنه بات أضعف من أن يسير على قدميه، هل تذكر أنك صادفت رجلًا كهذا؟

- ربما، ولكنني لست متأكدًا، فقط أتذكر ذلك الرجل الذي ظهر خلفي وأعطاني الخاتم.

- كيف كان ذلك؟ ألم تقل إنك وجدته قرب المغسلة؟

- نعم في البداية، عندما رأيته وعرفته طار صوابي، وتخيلت أنك قد تكونين في الجوار، فخرجت كالمجنون أبحث عنك، وتركت الخاتم مكانه.

- وبعد ذلك؟

- عندما لم أجدك، تذكرت الخاتم مجددًا، فهرولت عائدًا إلى الحمام باحثًا عنه، وعندما وصلت، لم يكن هناك.

- وإذن؟

- انفجرت من غيظي، وبينما كنت أشتم غبائي، ظهر رجل خلفي فجأة، كان يحمل الخاتم بيده وسألني إن كان يخصني وأبحث عنه... فقلت له نعم.

اتضح في ذهن سلمى ذلك الاحتمال الآخر، وسألت لوكاس لتتأكد:

- وكيف كان شكل ذلك الرجل؟ لهجته، عمره؟

- لم يكن شابًا، تحدث معي بالإنجليزية، لكن بلكنة أجنبية، إيطالية ربما، وأذكر أنه كان يحمل على رقبته وشمًا غريبًا.

«لقد وصلت الأمانة!»... فكرت سلمى وغمر الامتنان قلبها، وابتسمت بسلام.

- بماذا تفكرين؟

- بالسمكة التي طلعت لك من البحر، لتعيد إليك خاتمك، أيها الملك سليمان، لتحقق لي نبوءتي!

- إذن، لم يكن الموضوع مصادفة؟

- بلى... المصادفة حدثت، والأقدار تدخلت، عندما التقيتما في تلك البقعة من الكون في ساعة واحدة بعد كل تلك السنوات، وقبل أيام من رحيله عن هذا العالم، الذي تمّ في نفس الساعة التي كنت فيها أنت عائدًا من الموت.

- لم أفهم تمامًا!

- الأقدار يا لوكاس لا تفعل كل شيء...هي توزع علينا الأوراق، ونحن نلعب.

- وما الورقة التي ستلقين بها على الطاولة الآن في لعبتنا؟

ابتسمت له ابتسامة كبيرة وكاملة، وقالت:

- سأفتح كل أوراقي دفعة واحدة، لم تعد ثمّة فائدة من إخفاء شيء عنك، أنت الآن تملك خاتم سليمان، أنت تعرف كل شيء يا لوكاس.

- لا أعرف إلا شيئًا واحدًا، أنا أحبك يا سلمى... ولن أسمح لهذا الحب أن يهرب مني ثانية.

- هذا كل شيء يا لوكاس.


النصف الآخر من الشمعة السادسة

كان عليها أن تعود إلى حلب، لتنثر رماد شمس الدين على التراب الذي ستأتي بكمشة منه لتذرّها في هواء توليدو.

في انتظارها وكمشة ترابها، بقي لوكاس محتفظًا بالخاتمين ومطمئنًا لعودتها إليهما، وإن ساورته شكوك غريبة للحظات قليلة.

- كم نحن مختلفان يا سلمى... تحركين أحجار دنياكِ كما تهوين... أما أنا... فلا يحلو لي إلا أن أتفرج على لعبة الحياة من زاوية بعيدة، ثابتة، وألتقط الصور للملعب واللاعبين، لأثبتهم على الورق، مثلي، ثم أتلذذ بتأملهم، وبالتخمين... ماذا يختبئ خلف هذا السكون؟

- هذا قد يجعل منا ثنائيًا متكاملًا، أنا أخترع عوالم وأنت تصورها.

- ومتى سنعيشها؟

- حال عودتي يا لوكاس.

لم يعلق السجادة ذات الورود الحمراء على الحائط من جديد، بل فرشها أمام المدفأة، وصار يتربع عليها كل ليلة متوسّدًا بضع وسائد مطرّزة بخيوط قصب ذهبية، كان قد أحضرها معه من حلب ثم هجرها بعد هجران سلمى لحبه.

هذه الليلة، انتبه لوكاس إلى أن الشمعة الأخيرة التي أشعلها قبل ليلة من وصول سلمى ما زالت في الشمعدان، وقد بقي منها ربعها. احتار لبرهة ما يفعل بها، لكنه أخيرًا أقدم على إشعالها، لينتعش بعطرها الأخاذ المُسكر، ممنّيًا النفس بتلقّي المزيد من الشموع قريبًا.

أوقد النار في المدفأة، وصب لنفسه كأسًا من النبيذ قبل أن يتربع على السجادة ممسكًا الآيباد، قارئًا مقالًا منشورًا في إحدى الصحف الإلكترونية عن «باكو دي لوسيا» (1947-2014)، الموسيقار الإسباني المشهور وعازف الغيتار الذي عزف الفلامنكو في كل بلاد العالم، وبمرافقة أشهر الموسيقيين العالميين.

بدا له المقال طويلًا وغالبه النعاس، لكنه انتبه ثانية إلى أحد المقاطع حين تحدث المقال عن الحفل الكبير الذي أحياه دي لوسيا في بيروت، حيث قدم مقطوعة نادرة اعتبرت وقتها تحفة موسيقية نفيسة، وشاركه العزف فيها الموسيقار المستشرق «سيلڤيو شمس الدين كارلوني»، وقدما معًا مزيجًا رائعًا من الموسيقا الشرقية والفلامنكو.

تسارعت دقات قلب لوكاس عندما قرأ اسم شمس الدين، لاحظ أنه كتب باللون الأزرق وتحته خط، فنقر عليه بسرعة وقد أثاره الفضول:

من هو هذا الرجل الذي لعب من خلف الستار، دورًا مهمًا في حياتي؟!

«ويكيبيديا-آخر تحديث / تاريخ الأمس/ :

سيلڤيو كارلوني، ولد في روما 5 آذار 1954، درس الموسيقا هناك وعزف على الغيتار وشكل فرقة موسيقا كان يقودها ويلحن الكثير من أعمالها. انتقل إلى دراسة الموسيقا الشرقية بدءًا من العام 1985، وتنقل في عدة معاهد بين تونس والقاهرة وإستانبول، حيث تعلم عزف العود والقانون. اعتنق الإسلام عام 1994، واتخذ لنفسه اسم شمس الدين. استوطن في مدينة حلب السورية منذ العام 1997 وتخصص في الموسيقا الشرقية الصوفية، وشكل فرقته الخاصة التي قدمت عروضًا تصل إلى أكثر من 400 عرض على كثير من مسارح العالم: مسرح المدينة/ باريس، معهد العالم العربي/ باريس، مهرجان بيت

الدين/ بيروت، كارنيجيه هول/ نيويورك، وأيضًا على عدة مسارح في ساو باولو، واشنطن، وهونغ كونغ وغيرهم. له كثير من المؤلفات الموسيقية الشرقية، كما نشر كتابين عن الموسيقا الصوفية.

بسبب اندلاع الحرب في سورية انتقل إلى العيش في إستانبول منذ العام 2015، وشكل فرقة موسيقية جديدة في العام 2016، قدمت آخر حفلاتها في إستانبول بتاريخ 30/11/2017».
ذُهول كامل! 30/11/2017 صادف الأسبوع الماضي، أي بعد وفاة شمس بثلاثة أسابيع!! هل يعقل؟!
بتجديد البحث عبر جوجل، ظهرت العشرات من المقالات عن سيلڤيو شمس الدين كارلوني، صور، حفلات، مقطوعات موسيقية، ولكن، ليس من ذكر لواقعة الوفاة، بل أنه يوجد فيديو للحفل الأخير، ظهر فيه شمس الدين على المسرح خلف قانونه، حيًا يرزق! يدغدغ الأوتار بإصبعين لمع في أحدهما خاتم فضي، كأنه خاتم سليمى!

هناك في حلب، كانت سلمى تكتب له: «عزيزي... يؤسفني أن أبلغك بتأخير موعد عودتي. لقد ذهبت لزيارة جدتي، فأبلغوني أنها تسللت منذ يومين من المأوى ولم تعد، لقد ضاعت، وأودت بي إلى ضياع مماثل... لست أدري ماذا أفعل، وماذا أريد. أنا أرغب حتمًا في البحث عنها، لأجدها سليمة معافاة، وأضعها في سريرها وأغطيها، وأقبلها لمرة أخرى لاستنشق ثانية ذلك الدفء الحميم. ولكنني أيضًا، أفكر للحظات أخرى، للحظات كثيرة، بأن أتناساها كما تناسيت

سجّادي وتحفي، بأن أتركها في متاهتها لأعود إليك، كي لا أضيّع أنا الأخرى ما تبقى من حياتي سارية خلف ظلها التائه... سامحني عزيزي... أحتاج قليلا من الوقت لأتوازن... انتظرني... إن كنت ما تزال قادرًا على الانتظار.

ماذا يجري هنا يا سلمى؟ بدأتُ أشعرُ بخوف غريب يتسرب إلى قلبي. أتحسس إصبعي بحثًا عن الخاتم، لم يكن هناك... أين خاتمي يا سلمى؟ تخطر لي فكرة أخرى، فكرة مجنونة، أجدّد صفحة الجوجل، وأكتب في حقل البحث: لوكاس أورتيز بيريز. أول مقال يطالعني هو التالي:
«تعرض المصور الفوتوغرافي لوكاس أورتيز بيريز لحادث سير عندما كان متوجهًا بسيارته من توليدو إلى سانتاندير، وقد فارق الحياة إثر هذا الحادث متأثرًا بضربة في الرأس عن عمر يناهز الأربعين عامًا»
أنا لم أعد أعرف شيئًا يا سلمى!

لم يُميّز إن كان قد فتح عينيه فجأة أم أغلقهما!
فقد تلاشى نور الشمعة التي اكتمل ذوبانها، وبقي عطرها سابحًا كالبخور في فضاء الغرفة التي حاصره فيها الظلام.

-تمت-



